تائية الجعفي

المسمى: المغاني النفيسة في شرح معاني الكبيسة

أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي عفا الله عنه

تائية الجعفي المسمى: المغاني النفيسة في شرح معاني الكبيسة

أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي عفا الله عنه

تضمنت بعض التائيات مواضيع تهم إرشاد السالكين الراغبين في الوصول إلى رب العالمين، ولو أن أغلب التائيات خلت من ذلك، وما تطاولنا على محاكاتهم، ونحن أصغر منهم وأدنى، ونظمنا تائيتنا، سوى تشبها بالصالحين ومحبة للعارفين، عسى الله تعالى أن يبعثنا في زمرتهم يوم القيامة.

وربما عرضنا في تائيتنا لكثير مما أغفله أو غفل عنه غيرنا مما لا يستغني عنه الطالب، ومما يجب أن يعتقد ويعرف في الطريق، ولم نقصرها على الخمرة والحبيب.وسميناها بالكبيسة، لأن عدة أبياتها ثلاثمائة وستة وستون بيتا، وذلك عدد أيام السنة الكبيسة، ولذلك سميناها باسمها. وها نحن نشرحها في هذا الكتيب، شرحا ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، شرحا لغويا واضحا، متبوعا بكلام يقرب المضمون إلى الأفهام

الثمن: 25 درهم

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

شرح تائية الجعفي

المسمى:

المغاني النفيسة في شرح معاني الكبيسة

أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي عفا الله عنه



الكتاب: المغاني النفيسة في شرح معاني الكبيسة

الكاتب: أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي

الإيداع القانوني:2015MO1994

ردمك: 978-9954-35-662-3

تصميم الغلاف: رشيد حميمي

الإخراج: الحسن سميح

الإشراف على الطباعة والنشر: عبد الإله فكير

الطبع: مطبعة طوب بريس 22 زنقة كلكوتا حي المحيط الرباط المغرب

الهاتف:212537733121

الطبعة الأولى

2015ميلادي / 1436هجري

إهداء

إليك حضراتة[1] . . ما حملت معنا هم هذه الأمة

وما تحملت منا ما جرينا فيه

وأجريناه عليك

من أحكام وألطاف وحكمة

وما صبرت على انزياحاتنا عنك

وعن هذي الأناسي

مما تفهمين . . ومما لا تفهمين

نديمة الأفراح والمآسي

ورفيقة درب الحياة القاسي

نعم النديم ونعم الرفيق

الأنيس المواسي

إليك لا إلى غيرك

أهدي هذه الأفكار

---

[1] حضراتة هي أسماء لقبيبي حرم المؤلف أبقاهما الله تعالى

تقديم

الحمد لله الذي شرف آدم بالخلافة في أرض الشقاء والعنت، وأرسل رسله بالبشرى في أمم قد خلت من بعدها أمم، ما زاغت أو غوت، يدعون إلى الله على بصيرة ويقرؤون آيا بالحق أنزلت، من لدن عليم خبير بالسرائر وما عليه انطوت

فمن اهتدى لم تكن لله عليه من حجة، كيف وقد دان بالمحجة، بيضاء ليلها كنهارها، أوضحها فتوضحت، ومن زاغ ألقى بيديه إلى التهلكة، وباء بالخذلان والجهالة والغلت

أشهد أنه الله في السموات وفي الأرض، دعا الخلائق فآمنت وأذعنت، وشهدت بوحدته أقوام في أصلاب آبائها وأجدادها وألهت

لا إله إلاه، فلا يغرنك أناس أشركت، تفرد في الوصف عن كل موصوفات مهما حاولت، هو بخلافها وهي عنه انزوت

لا يحيط به العلماء مهما تعلمت، ولا تتصوره الأذهان مهما تصورت

خاضت المتكلمة في شؤونه بما تكلمت، وتزندقت الفلاسفة بما تفلسفت

بيد أنه أشرق على قلوب بما تحررت وصفت، وتعرف إلى أحبة فعرفته أحبته بما تعرفت

لا تدركه العقول مهما تعقلت، ولا تحيط به الفهوم مهما تفهمت

الساطعات لما تجلى نوره انطفت، والظاهرات لما تبدى صدوره امحت، والحائلات لما جازت أموره هوت

من إلاه يضيء ليلاء جهلي وحيرتي، إذا انبرى فضولي يثنيني عن رويتي؟

من إلاه يهدي تائهات أفكاري في مهامه فتنتي، إذا قضت مضجعي وزادت في ليلتي؟

من إلاه يقربني عند بعدي، ويؤنس غربتي إذا أنستني من أكون في قومي وعترتي؟

لا إله إلاه، في عقيدتي وملتي، ولا معبود سواه أخص في تهجدي بركعتي وسجدتي

وأشهد أن محمدا رسول الله، اجتباه ربه وخصه بالختمة، وأظهره على الأنبياء والمرسلين كافة في كمال خلق وخلقة، معتدلا أوسط من غير تساهل وشدة.

للمكرمين إكرام يزيدهم بما أكرموا كرما في البرية، وللمتولهين نجوى يهيمون بها في أرجاء القربى وميادين الحضرة

وللبكائين دمعة يسدلونها في جنح الليل وجلا وانزعاجا، ألا يحظوا برضا رب البرية

الهين اللين في فظاظ غلاظ، لكن في إباء وعزة

الإلف المألوف ما تناكر الأخلاء شذ في لطف ورأفة

النور المبين ما تشرد السراة على أضواء نجوم رقيقة

بأبي وأمي أنت يا رسول الله في حياتي وعند موتتي

أفديك بالمال والولد، وما ملكت أيماني في جهري وخفيتي، وفي يسري وعسرتي.

أنا على دينك ما حييت لا تبديل لنهجي وشرعتي

وأنا على هديك سائر في إقامتي وسفرتي

صلى عليك الله صلاة بلا بداية ولا نهاية

صلى عليك الله ما تاق طائر لأوكاره واشتاق ذاكر لسبحة

وما قنت قانت وأمعن ساجد في سجدة

صلى عليك الله حتى ترضى بما يرضيه، وعلى الآل والصحب والعترة

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه الغني، أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي، عفا الله تعالى عنه:

أدرك أسيادنا العارفون بالله تعالى آداب مناجاته سبحانه، وأبدعوا في أساليب النجوى والمخاطبة، في أحزابهم وأورادهم وأدعيتهم ومخاطباتهم؛ فهم أعرف الناس بالله سبحانه، ولذلك كانوا أعرفهم بما يليق من خطاب في حضرة الحكيم الوهاب

وقد خاطبوه سبحانه نثرا وشعرا

ومن شعرهم ما اشتهر من رائياتهم وتائياتهم

وقد اطلعنا على تائيات كثير منهم رحمهم الله تعالى، خاصة ما ذاع منها بين الناس، ومن ذلك:

تائية الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، توفي سنة: 555هجرية، يقول في مطلعها:

بنور تجلى وجه قدسك دهشتي   وفيك على أن لا خفا بك حيرتي

تائية الشيخ عبد القادر الجيلي، رحمه الله تعالى، توفي سنة: 561هجرية، يقول في مطلعها:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي   ونادمني صحوي بفتح بصيرتي

تائية الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى، توفي سنة: 632هجرية، يقول في مطلعها:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي   وكأسي محيا من عن الحسن جلت

تائية الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى، توفي سنة: 638هجرية، يقول في مطلعها:

تنزهت لما أن حضرت بحضرتي   ووحدت في ذاك المقام بنظرتي

تائية الشيخ العز بن عبد السلام المقدسي رحمه الله تعالى، توفي سنة: 678هجرية، يقول في مطلعها:

شهدت بعين القلب في حان حضرتي حبيبا تجلى للقلوب فحنت

تائية الشيخ علي بن مسعود الجعيدي رحمه الله تعالى، توفي سنة: 1032هجرية، يقول في مطلعها:

بدأت باسم الله من بعد حمده على نعم لا تحصى جلت ودقت

تائية الشيخ محمد بن أحمد البوزيدي السلماني الحسني رحمه الله تعالى، توفي سنة: 1229هجرية، يقول في مطلعها:

أيا من تجلى في بهاء جماله وسر كماله وعز رفعة

تائية الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الواحد بن يحيى، المعروف بالحراق رحمه الله تعالى، توفي سنة: 1261هجرية، يقول في مطلعها:

أتطلب ليلى وهي فيك تجلت وتحسبها غيرا وغيرك ليست

وقد تعارفوا على أن يخضعوا تائياتهم لشروط معينة لا يخالفونها، منها التزامهم في نظمها بالبحر الطويل المقبوض العروض والضرب معا، وأن تكون قوافيها منتهية بحرف التاء، ولذلك سميت بالتائيات

كما اتسمت التائيات بذكر الحبيب والخمرة والسكر

ولوحظ أنهم في تائياتهم، ما منهم إلا من ادعى القربى من رب العزة، وكأنه يتباهى بما مكنه سبحانه من تصرف في الأكوان، وما خصه من منازل قد لا يؤتاها غيره

حتى أن القارئ قد يظن بهم سوءا، ويحسبهم من المتعالين في كبر وغرور.

إلا أننا لا نجرؤ على أن نتهم منهم أحدا، وإنما نسلم لهم فيما قالوه، مما لم نفهم مغزاه، ونتوصل إلى ما قصدوا منه

ولعل هذا التسامي الملحوظ في شعرهم، سببه إحساسهم هيبة المولى واستشعار جبروته، مما دعاهم إلى التعبير بهذا الشكل

وقد تضمنت بعض التائيات مواضيع تهم إرشاد السالكين الراغبين في الوصول إلى رب العالمين، ولو أن أغلب التائيات خلت من ذلك

وما تطاولنا على محاكاتهم، ونحن أصغر منهم وأدنى، ونظمنا تائيتنا، سوى تشبها بالصالحين ومحبة للعارفين، عسى الله تعالى أن يبعثنا في زمرتهم يوم القيامة.

وربما عرضنا في تائيتنا لكثير مما أغفله أو غفل عنه غيرنا مما لا يستغني عنه الطالب، ومما يجب أن يعتقد ويعرف في الطريق، ولم نقصرها على الخمرة والحبيب

وسميناها بالكبيسة، لأن عدة أبياتها ثلاثمائة وستة وستون بيتا، وذلك عدد أيام السنة الكبيسة، ولذلك سميناها باسمها

وها نحن نشرحها في هذا الكتيب، شرحا ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، شرحا لغويا واضحا، متبوعا بكلام يقرب المضمون إلى الأفهام

وقد تناولنا في تائيتنا مواضيع جانبنا في تناولها التفصيل، واقتصرنا على الاقتضاب، لأننا أشبعناها بيانا في كتابنا: الاستبشار، فمن أراد أن يزيد إحاطة بها، فليرجع إليه، يجد فيه مطلبه

واقتصرنا على بضعة مراجع في اللغة، أهمها لسان العرب

وسمينا هذا الشرح الذي بين يديك أيها القارئ العزيز: المغاني النفيسة في شرح مغاني الكبيسة. نسأل الله تعالى أن يتجاوز عما أخطأنا فيه، ويجعله خالصا لوجهه الكريم. والله ولي التوفيق، لا إله سواه.

كتبه أبو الفتح الجعفي عفا الله عنه

aiglebleu7@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

لما يكون السفر في ليالي الصبابة

أمن ظاعن غالبت دمعا بمقلتي تأبى على مي غداة تأبت؟
تسافر مي في ليالي صبابتي وتحمل صبري إن هممت بسلوة
بركبكم سارت وسرتم بسادل تدلى على همي وأهرق خمرتي
ولو كنت أدري ما بلغتم بسفركم أتيتكم أنى نزلتم بهمتي
وقد أهتدي إن ما ضللت بحبكم وقد أرتوي إن ما ظمئت بلوعتي
ستعرفني مي إذا ما تباطأت رواحلها والمزن شح بقطرة
وتعرف من عند الهموم أنيسها متى أرقتها ذكريات وملت
وتعرفني شهما إذا ما أهانها زمان وهانت في الفلاة وذلت

نبدأ بحول الله تعالى بإعراب البيت الأول من التائية إجلال للغة الضاد، وحتى يتضح معناه:

الهمزة: حرف استفهام مبني لا محل له من الإعراب

من: حرف جر مبني على السكون لا محل له من الإعراب

ظاعن: اسم مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره

والجار والمجرور في محل رفع مبتدأ، متعلقان بخبر مقدم غالبت

غالبت: غالب: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بالتاء المتحركة، والتاء: ضمير المتكلم مبني على الضم في محل رفع فاعل

والجملة في محل رفع خبر مبتدأ أمن ظاعن

دمعا: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره

بمقلتي: الباء: حرف جر مبني على السكون

مقلتي: اسم مجرور بالباء وعلامة جره الكسرة المقدرة على ما قبل منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة مناسبة

والياء: ضمير مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه

تأبى: فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر

على: حرف جر مبني على السكون لا محل له من الإعراب

مي: مجرور بعلى وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره

غداة: ظرف زمان مفعول فيه منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مضاف

تأبت: فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف التي حذفت لالتقاء الساكنين، والجملة في محل جر مضاف إليه

وفي هذا البيت يتساءل الشاعر ويسائل نفسه، مستعملا همز الاستفهام، وهو من قبيل قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم؟

ويقول الشيخ: أمن ظاعن، أي أمن ذاهب ومسافر. وظاعن اسم فاعل، من ظعن يظعن ظعنا وظعنا، بفتح العين المهملة وتسكينها، وظعونا، إذا ذهب وسافر

وفي التنزيل: "وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم". النحل80

والظعينة: المرأة في الهودج، ولا تسمى ظعينة إلا وهي فيه

قال عمرو بن أم مكتوم:

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

و يقصد الشاعر بالظاعن حبيبته التي سارت في الهودج مع الركب

وقوله: غالبت دمعا بمقلتي: أي من سير هذه الظغينة في الركب، وسفرها عني وخروجها عن الحي، غالبت دمعا بمقلتي، من غالبه يغالبه غلابا ومغالبة قال كعب بن مالك:

همت سخينة أن تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

ومعنى غالبت دمعا بمقلتي، أي أمعنت في أن أحبسه حتى لا يجري، ولكنه تأبى علي، أي امتنع وجرى؛ وقد يراد كذلك: أمعنت في أن أجريه رغم انحباسه، ولكنه تأبى علي ولم يجر، وهما معنيان يسوغان فيما قصد إليه الشاعر

وقوله: على مي غداة تأبت: تبين من الشطر الثاني المقصود بالظاعن، وهي مي حبيبته، ومي صيغة لاسم مية، وهو من الأسماء العربية القديمة الواردة في طلليات بعض الشعراء ونسيبهم

ومنه قول النابغة الذبياني في معلقته:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقفت فيها أصيلانا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

وقول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلا ولازال منهلا بجرعائك القطر

وقول كثزة أم شملة، وقد أصبح مثلا يضرب:

على وجه مي مسحة من ملاحة وتحت الثياب الخزي لو كان باديا

قال الشيخ: على مي غداة تأبت، أي أن الدمع الذي غالبته حتى لا يجري، وجرى مع ذلك. وإن شئت: غالبته حتى يجري، وبقي منحبسا لا يجري؛ غالبته بسبب سفر مي عني وبعدها، فقد تأبى علي وامتنع غداة تأبت علي هي الأخرى، فهجرتني إلى حيث لا أدري

وقوله: تسافر مي في ليالي صبابتي، استعارة تصريحية، صرح فيها بالمشبه به وهو الليالي، أما المشبه فلم يصرح به، وهو حر الشوق الذي تحدثه الصبابة، فقد مثله

بالليالي من شدة وطئه، وكأن ميا تسافر في صبابته وليس في الصحراء، ومهما تقدمت في سيرها زاد صبابة وشوقا.

والمراد أن سفر حبيبته آلمه وأزرى به، فأورثه ذلك الصبابة، وهي الشوق، وقيل: رقة الشوق وحرارته؛ فكأنها لا تسافر في الصحراء، بل في ليالي صبابته وشوقه، هذه الليالي المظلمة بما يكابده من الجوى، فكأنها كلما ابتعدت زاد حاله وما يعانيه، لذلك مثل سيرها بالسير في ليالي صبابته

وقوله: وتحمل صبري إن هممت بسلوة، أي أنها لما سارت حملت معها صبره، فلم يعد قادرا على الصبر عن بعدها، ومتى هم بالسلو والسلوان، وهو النسيان، لم يقو على ذلك، لأنه لا يستطيع أن يصبر وقد ذهبت مي بصبره وبقي بلا صبر. ومنه قول المتنبي:

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أي الظاعنين أودع

وقول الشاعر: بركبكم سارت وسرتم بسادل، الركب لا يكون إلا لمن ركبوا الإبل، فهم ركب وركبان

وفي التنزيل: "إذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم". الأنفال42

وقال سبحانه: "فإن خفتم فرجالا أو ركبانا". البقرة237

بمعنى أن ميا حبيبته سارت بركبكم وسرتم بها بسادل، والسادل الليل، وهو من باب إنابة اسم الفاعل على اسم المفعول، كقول أبي مليكة جرول بن أوس العبسي، المشهور بالحطيئة، يهجو الزبرقان بن بدر التميمي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وسمي الليل سادلا، لأنه يسدل جناحه الحالك على الكون ويرسله

وفي حديث عائشة أنها سدلت طرف قناعها على وجهها، وهي محرمة. أي أرخته وأسبلته

وقوله: تدلى على همي وأهرق خمرتي، بمعنى أن هذا الليل تدلى بجناحه الأسود على همي، فزادني وحشة وكمدا، وأهرق خمرتي، بأن كدر علي صفوي وسكري، حين تسلل إلي في وحدتي

قوله: ولو كنت أدري ما بلغتم بسفركم، يخاطب الركب الذي سارت فيه حبيبته، ويقول لهم: لو كنت أدري أين وصلتم في سفركم، أتيتكم أنى نزلتم بهمتي، بمعنى لن أعي وأحجم، فلو علمت أين وصلتم للحقت بكم، وإن ضللت فسيهديني حب مي ويدلني عليها

وقوله: وقد أرتوي إن ما ظمئت بلوعتي، استعارة مكنية، حذف فيها المشبه به وهو الماء، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الرواء؛ فقد مثل لوعته بالماء الذي يشرب منه ويرتوي عند الظمأ.

يريد: إذا ما ظمئت في طريقي إليكم، فإنني سأرتوي بلوعة الجوى التي تملأ علي جوانحي

وأصل السفر بسكون الفاء الموحدة، القوم المسافرون، ومنه قول النبي ﷺ: "أتموا صلاتكم، فإنا قوم سفر".

وقد أراد الشاعر بالسفر السفر بفتح الفاء الموحدة، وإنما جزم الفاء للضرورة.

ثم يرجع الشاعر إلى نفسه، ويقلع عن التطلع إلى حبيبته، وكأنه أحس بأنفته واعتز بصدق حبه وهيامه، الذي لم تقدر هي قدره، ويقول: ستعرفني مي إذا تباطأت رواحلها، إذا رواحل الركب الذي تسير فيه في الصحراء، تباطأت في مشيها؛ والرواحل جمع راحلة، وهي المركب من الإبل جملا كان أو ناقة، وقد يكون تباطؤ الرواحل في مشيها بسبب شدة عيائها وإجهادها وبلوغ العطش منها مبلغا، لانعدام الماء الذي تشرب به

قال الكميت:

أصبحت قد صالحني عواذلي   بعد الشقاق ومشت رواحلي

والمزن شح بقطرة، أي والسحاب شح، بمعنى بخل بقطرة واحدة تسقي الركب وتذهب عطشه وظمأه. وأصل المزن الغيم والسحاب، وقيل: هو السحاب دون ماء، واحدته مزنة ومزينة، تصغير مزنة، وهي السحابة البيضاء

قال: وتعرف من عند الهموم أنيسها، أي تعرف في همها وهي شاردة في الصحراء، وقد ظمئت وتباطأت رواحلها من الجهد والمشقة، ستعرف أنني لو كنت إلى جانبها لآنستها وأذهبت همها، قال: متى أرقتها ذكريات وملت، أي متى أرقت، أي سهرت، فهي أرقة وآرقة، وهي تتذكرني وتذكر ما مضى من فضلي وحسن عشرتي، وملت مما هي فيه من المشقة والاغتراب

وهذا من قبيل قول فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

قال: وتعرفني شهما إذا ما أهانها زمان، أي تعرفني شهما لا أتأخر عن المحتاج، ولا أفوت المحزون والمكروب، إذا ما أهانها زمان، أي أذلها، وهانت في الفلاة وذلت، حين لم يأت أحد لنجدتها وإغاثتها، وهانت مترلتها عند الناس، وأصابها الذل والمهانة

قال الجعفي بعد ذلك: وطال انتظار الحبيب، وهو يتطلع إلى وجه المحبوب، عله يستأنس في وحدته، ويطمئن في وحشته، فمنذ أن أحبك ما عاد يؤنسه غيرك، وما عاد يطمئن لسواك؛ منذ أن هويك تحطمت أمانيه ركاما هوى على كاهليه، ودكت مبانيه غبارا حجب عنه رؤية كل شيء، على كاهليه إصر وإصرار، وفي عينيه قذى وعوار

قذى بعينك، أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار؟[2]

---

[2] الخنساء واسمها تماضر بنت عمرو السلمية

يا دارا هجرها الأحبا في انزوائي وركوني، شدوا الرحال على مرأى من هزلي ومجوني، ونادوا بالرحيل، وقد أسلمت للكرى جفوني؛ كوني أو لا تكوني، فما عدت يا دار تؤويني، وما عادت جدرانك تداريني، كأنك يا دار خراب ليس فيه ما يستهويني

ما انتصابك يا دار وقد نضبت نواحيك من بشارات خلتها لا تنضب؟ وما ارتيابك يا دار، وقد أيقنت سواريك أنها لا تكذب، وما اغترابك يا دار، وقد استوطنت أرض المغرب؟

إذا جرى دمعي، ترى في جريه أحكي سوء حالي؟ وإذا تأبى، ترى في تأبيه عزة الرجال؟ مالي واجم لا حكم لي على مقلتي، سواء شحتا بالدمع أم سحتا بالدموع؟

ما زاد شوقي واهتياجي، إلا وزدتم بعدا عن رسومي، فإذا تفقدت صبري، ألفيت الصبر كان أكيس مني، حين أسرع إليكم وتركني في جحيمي

فكيف لي بالسلو عنكم وقد ذهبتم بصبري؟ لقد التحق صبري بخصومي، عاد صبري غريمي

أخاطب من بشروا من أحباب الله وقربهم من حضرته، أولئك السعداء، قد صرت أغبطكم وقد أرضاكم بالقربى، وقد صرتم تشفقون لحالي لما أخطأت البغية والأرب؛ ما زلت صريع هذي الحوادث تقض مضجعي، وتكدر صفوتي وتزيدني هما إلى همي

ياليتني أعرف أي طريق سلكتم للقاء الله؟ إذن لسلكتها بقوة عزمي في لقائه ومناجاته

ألست يا الله أهلا للقائك؟ وقد أفردتني بهذا الهوى، وقد غربتني في أوطاني بين أهلي وأحبائي؟ ألست أهلا لأحظى بقربتك، وقد أخلصت حبي لك وبت أناجيك وأشكوك جواي، والناس يغطون في نومهم؟ ما أهل غيري لجوارك،

وقد نفحتني بهذي الشؤون أعانيها وحدي في صمت وكتمان، ألا يكفيك أني أوحدك، و لم أشرك بك أحدا في زمان من الأزمان؟

إن لم أكن أخلصت في طاعتك فإنني أطمع في رحمتك.[3]

وإنما يشفع لي أنني قد عشت لا أشرك في وحدتك

أنا لا أشك في أنك ستجذبني إليك، ستشفق من حالي، فحتى إذا لم أجد من يدلني عليك، فلن أضل، لأنك لا تنسى أحبابك، حاشا أن تترك حبيبا أحرقته نار الشوق فطلبك، حاشا أن تسلم للتيه والخذلان من قصدك، ألست الله الرحمن الرحيم؟

[3] من رباعية غياث الدين أبو الفتوح عمر بن إبراهيم الخيام، المعروف بعمر الخيام. ترجمها من الفارسية إلى العربية، الشاعر المصري أحمد رامي

طفرة تنادمني

سكرت وقد دارى المدام صبابتي فما عدت أبكي عهد مي وخولة

صحوت وقد عزت علومي بسكرتي فمالي نسيت العلم في عز صحوتي؟

ترى طفرة طافت بكاس رشفته حميا حكت لي عن حقيقة نشأتي؟

تنادمني في ليلة قد تطاولت وتشرب من خمري وتطفئ غلتي

تجوز بي الأكوان والدهر شاهد وتمخر بي من غير فلك ولجة

متى ما أتمت شربها تستزيدني وإن زدتها زادت جمالا وجلت

كأني وإياها وحيدان هاهنا فحتى أنا ما عدت أثوي بجبتي

وما الدهر إلا واهم في توله إذا ما تولى أرغمته وولت

وما للحيا والموت عندي تساويا أموت وأحيى هاهنا ألف مرة؟

أقول: تراني قارئ ما كتبته؟ فتسخر من قولي وتمحو صحيفتي

يقول الشاعر: سكرت وقد دارى المدام صبابتي، بمعنى أن سكره لما شرب المدام أنساه شدة شوقه ولوعته، فما عدت أبكي عهد مي وخولة، وهما اسمان من أسماء النساء اللواتي تغزل فيهن الشعراء، كليلى ولبنى وأسماء.

قال طرفة بن العبد في معلقته:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقد قصد بإيراد الاسمين حبيبته وغيرها ممن أحب، إذ لم يعد يتوق لهن ويرغب في لقائهن، بل لم يعد يتحسر على انصراف عهود الهوى والوداد

قال: صحوت وقد عزت علومي بسكرتي، أي أنه لما صحا من سكره وانتبه، لم يعد يعلم شيئا من العلوم العزيزة التي لا تدرك، والتي كان يعلمها في سكره، ثم يتساءل ويقول: فمالي نسيت العلم في عز صحوتي؟ أي، كيف كنت عارفا بهذه العلوم العزيزة في سكري، ولما صحوت جهلتها، و لم أعد أعلم شيئا، رغم

أني في عز صحوتي وأوجها، فكيف أكون عالما في سكري وذهاب عقلي، وأصبح جاهلا وأنا متعقل مميز؟

ثم يتساءل مرة أخرى ويقول: ترى طفرة طافت بكاس رشفته؟ وهو بهذا التساؤل الثاني، يتابع استغرابه مما انتابه لما تساءل في البيت الذي قبله، ويصف ما حل به بأنه كان وحيا مما أسماه طفرة، لأنه لا يعرفه، وإنما حاول تسميته حسب ما أحس به واستشعره

والطفرة في اللغة وثبة في ارتفاع، وطفر الحائط، بمعنى وثبه إلى ما وراءه، فهو يعني أنه وثب من حال إلى حال، وانتقل من عالم إلى عالم

وثب من حال الجهل إلى حال العلم والمعرفة، وانتقل من لوح العبارات إلى موقع العبارات، وتسور المحراب ليتمرغ بين يدي رب الأرباب

هذه الطفرة طافت بكاس خمرته، يعني أنها انتابته في سكره، وتعبيره بالطواف مزيد من وصف الطفرة بالخفة واللطافة، وكأنها حلم من أحلام الصبا

قال الباري عز وجل:"فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون". القلم19

وقوله: بكاس رشفته، يشير إلى أنه كان يتلذذ بشرب خمرته، لأن الرشف، وهو المص، لا يكون إلا إذا رشف الظمآن الماء البارد وتلذذ به، أو لمن رشف شيئا لذيذا حلوا، كالعسل ونحوه، ومنه النحل ترشف رحيق الزهور

وقوله: حميا حكت لي عن حقيقة نشأتي، يزيد تقريب هذه الطفرة إلى الأفهام، هذه الطفرة التي نقلته من حال إلى حال و لم يعرفها، وصفها مرة أخرى بحميا الخمر، لأنها انتابته في أوج سكره

وحميا الخمر إسكارها وحدتها وأخذها بالرأس

هذه الحميا حكت له عن حقيقة نشأته، أي حدثته وأطلعته على سر نشأته ووجوده

وقوله: تنادمني في ليلة قد تطاولت، أي أن هذه الطفرة تشرب معه خمرته، لأن النديم هو الذي يشاطرك خمرك ويسامرك بليل، كل ذلك في ليلة لا تنتهي بروائعها وروعاتها. تشرب خمره وتطفئ غلته، والغلة هنا ما يعانيه من حرارة الحب والحزن، وإلا فالغلة شدة العطش وحرارته، فهي تطفئ عطشه وتشفي غليله

قوله: تجوز بي الأكوان والدهر شاهد، لم يعد قاعدا في كون واحد، فقد أخذته هذه الطفرة تسافر به في الأكوان وتسلكها به، والدهر شاهد متفرج، أي أن الزمان لم يعد يحكمه، و لم يعد يستطيع أن يسايره وهو في رحلته، بل بقي واقفا يشهد على هذه الرحلة عبر الأكوان

وتمخر بي من غير فلك ولجة، استعارة مكنية حذف فيها المشبه به وهو السفينة، ورمز إليه بأحد لوازمه وهو المخور، وكأن الطفرة سفينة تمخر به، أي تجري به، وكأنها سفينة تشق ماء البحر، وقيل: مخرت السفينة، إذا استقبلت الريح في جريها، فهي ماخرة

قال تعالى: "وترى الفلك فيه مواخر". فاطر12

لكن هذا المخور، هو مخور بغير فلك ومن غير لجة، أي بحر

قوله: متى ما أتمت شربها تستزيدني، أي تطلب الزيادة

وإن زدتها زادت جمالا وجلت، وقوله هذا، دليل على إحساسه بجمال الطفرة وجلالها، لأنه متى زادها شربا زادت جمالا وجلالا، على جمالها وجلالها

قوله: كأني وإياها وحيدان هاهنا، أي كأنه وإياها وحيدان في الكون، فقد انفصل بصحبتها عن كل بني جنسه، وكأن الجميع قد فنوا، و لم يعد يرى منهم أحدا

فحتى أنا ما عدت أثوي بجبتي، أي حتى هو صار غائبا عن نفسه، مستقلا عن طبعه، وكأنه لم يعد يثوي، يعني يسكن ويترل بجبته، والجبة جمع جبب وجباب، وهو لباس فضفاض واسع الأكمام يلبس فوق الثياب

قوله: وما الدهر إلا واهم في توله، أي أن الزمان ما هو إلا متوهم، لا يرى الأمور على حقيقتها، وهو في توله، من الوله، وهو الحزن، وقيل: هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف. إذا ما تولى، أي الزمان، أرغمته على الرجوع، وولت عنه

ويزيد انفصاله عن الموضع والزمان وضوحا بتساؤله قائلا: وما للحيا والموت عندي تساويا؟ يعني أنه لم يعد يأبه للموت و لم يعد يرغب في الحياة، فهما لديه سيان، وكأنه ليس بحي ولا بميت

ثم يقول: أموت وأحيى هاهنا ألف مرة، فهو بين الموت والحياة يموت ويحيى ألف مرة ولا يبالي بذلك

قوله: أقول: تراني قارئ ما كتبته؟ وهي إشارة إلى أن هذه الطفرة كتبت أشياء في صحيفته، أي أخبرته عن أشياء لم يكن يعلمها، فيسألها هل يقرأ ما كتبت ليعقله، فتسخر من قوله وتبادر إلى محو صحيفته

قال الجعفي بعد ذلك: بلا حول مني ولا قوة، وقد جلست إلى كأسي أحتسيه رشفات رشفات، من سلسبيل ما كلفت به، عذبا زلالا من شمائل الحبيب في جميع الهيئات، واحد في الذات والصفات والأفعال، ليس له ند في الحوادث والمخلوقات

أتشرف بحضرته وأنا في ذل عبوديتي، وأستشرف طلعته وأنا في أوج أمنيتي، وأسرف في وحدته وأنا في حل من إنسيتي

بلا حول مني ولا قوة، وسابق عزم وتدبير، نسيت أحاجي الفتوة، وأطفأت نار أشواقي واحتراقي في ماء الغدير، ترى كنت أعتلي في هوة، وأظن أنني كنت أطير؟

حسبته غاب عني، فإذا به في حضرتي قريب مني، أقرب إلي من خفقتي، وما غبت سوى أنا

حسبته قلاني واستقللت في إفرادي بانفرادي كالجمل الأجرب، بالذل والهوان، فإذا به ظل يراني في اقترابي وابتعادي، في المشرق والمغرب، في كل زمان وبكل مكان

حسبته لا يرضى بمثلي حبيبا، ولكن القائمين والصائمين هم الأحباب، فحاولت قيامهم وصيامهم، وطال وقوفي على الباب، وعاتبني بنو جلدتي و لم آبه للعتاب

لا تذكرني بعهود الأطلال لما بللتها بشؤوني في هذي البراري، ولا تذكر لي من خذلتني لما وحدتها في الهوى وأشركت بي يغوث ويعوق ونسرا، فما عاد لها حظوة في قلبي، وقد لعبت الشمول برأسي، فما عدت أبكيها، لا أستطيع عنها صبرا

عهود الغواني يا حبيبي تلاشت في سيرورتي، ومحاها سكري في اغتباقي، كأنها ما كانت وما كنت فيها قبل ليلتي، أرقب بدورا شاحبات لم أطالع منها بدرا.

حميا الخمر لما بثت في روعي هذي العلوم، علوم ما كنت أدريها، ثملت من شدة الفهوم ولست قاريها، فمالي صحوت وأنا ناسيها؟

من علمني في انسحابي بعد ارتيابي، وما ثم سوى ليل وكاس واغتباق؟ من عفا عني وآواني بعد انسيابي في الإباق؟

أتراها طفرة هبت لنجدتي من عوالم عنايات الواحد الخلاق؟ تطوف بكأسي وتزيد سكري، وتحدثني عن أحكام الخلق، وتسر لي بما لا يحتمل ولا يطاق

لا تنهاني عن الشرب وتكفرني، بل تنادمني في ليلة جثمت على أحزاني وأتراحي في بشر وانشراح، طالت وما استطلتها، لا تنتهي فيزعجني ضوء صباحي

طفرة أزاحت لما سايرتني سوء ظني، وروت ظمأة وصلي وهي تشرب وتغني، لا أملها ولا تمل مني، أخذتني مني وجازت بي أكوانا وأكوانا، فما عدت خاضعا لكوني، وما عدت محكوما بدهري، كوني ودهري انمحقا في نجواي، واتفقا على المحال

وتمخر بي في بحور بلا سواحل، بغير فلك على مراحل، فلا أخشى الموج ولا أطمع في الساحل

تستزيدني متى أنضبت شربها فأزيدها، ومتى زدتها زادت جمالا وجلالا، شربت فأشرب وجهها تلألأ واعتلالا، هلال أنساني الأهلة حسنا واكتمالا

أنا وإياها هاهنا وحيدان فريدان ما معنا من نديم، نديمها أنا، لكنني ما عدت في جبتي بمقيم

سلتني عن هيكلي، ووضعتني وراء النجوم

فابق أيها الدهر واهما في التثليت، متى ظننت نفسك تجري تتآكل الحوادث، لكنك لا تستقر على حال كالمتوله المحتار

ابق في وهمك، فإنك إن اهتديت للحقيقة أضللت المتشرعين، إياك أن تتولى عن هذه الصور، فمهما هممت بالتولي أرغمتك على التملي، حتى لا تتكدر أحكام السراب

يواقيت تاهت عن خيالي وأشرقت شموسا بليل مدلهم وأعشت
بصرت بها لما غضضت عن الورى فما الكون عندي غير ظل بحرة
تناست شجوني ثم أملت شجونها سطورا معانيها تناهت ورقت
لكم تيمتني أعين قبل ذلكم وقد نعست في خاطري طول شرعتي
بها حور يغري العميد بسحره ولكن أفاقت عند كفري وصبوتي

ثم يحاول الشاعر أن يصف لنا ما انتابه من إحساسات قدسية سامية في هذه الليلة التي لا تنتهي، فيقول: يواقيت تاهت عن خيالي وأشرقت، وهو مجاز لغوي، إذ مثل ما جرى في ليلته باليواقيت لشدة إضاءته وإشراقه، كأن ما حصل هذه الليلة في صفائه وإشعاعه يواقيت، واليواقيت جمع ياقوتة، وهو نوع من الأحجار الكريمة، لونه شفاف مشرب بحمرة أو زرقة أو صفرة؛ هذه اليواقيت، تاهت عن خياله، أي أنه لم يكن يتصورها حتى في خياله، بل فاقت كل تصور في جمالها ورقتها وشفافيتها، وتاهت وضلت عن خياله وجميع تصوراته، وأشرقت شموسا بليل مدلهم وأعشت، أي أن هذه اليواقيت أشرقت شموسا، منصوب على الحال، أي كالشموس جمع شمس، وليس كشمس واحدة، وفي ذلك إشارة إلى شدة النور والإضاءة، بليل مدلهم، أي أسود شديد السواد، وأعشت، أي أعمت العيون بنورها الوضاء

قال عز وجل:"ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين". الزخرف35

قوله: بصرت بها لما غضضت عن الورى، بمعنى، هذه اليواقيت المشعة، ما أبصرها حتى غضضت عن الورى، يقصد غضضت طرفي عنهم، قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعب بلغت ولا كلابا

ويعني بذلك أنه لما غض طرفه عن الورى، فلم يعد يأبه لما هم فيه، ولم يعد تهمه أمورهم، أبصر هذه اليواقيت

وقوله: فما الكون عندي غير ظل بحرة، وهنا يقلل من شأن الكون، أما الحرة من الأرضين فهي الصلبة الغليظة، التي ألبستها حجارة سود، كأنها احترقت بالنار

والحرة كذلك، أرض بظاهر المدينة لها حجارة سود كبيرة، كانت بها وقعة الحرة، أيام يزيد بن معاوية

فما الكون عنده إلا ظل بحرة، حيث لا نخل ولا شجر يستظل به في الهجيرة، كما أن الحرة تتضمن حرارة الشمس وقوة وهجها الذي يلهب حجارتها الصلبة السوداء

ثم يرجع الشاعر للحديث عن طفرته ويقول: تناست شجوني ثم أملت شجونها، سطورا معانيها تناهت ورقت

أي أن هذه الطفرة لم تعر شجونه أي اهتمام، بل تناستها وأملت عليه شجونها، هذه الشجون التي أملتها عليه، تناهت معانيها واستحال إدراك كنهها، ورقت من شدة ألطافها وأسرارها

ثم يرجع الشاعر إلى نفسه، وإلى ذكر حاله قبل أن ينقلب حاله ويقول: لكم تيمتني أعين قبل ذلكم، أي أنني كنت متيما بعيون الغيد الحسان والخرائد المليحة، قبل أن أبصر هذه اليواقيت؛ وتيمتني بمعنى استعبدتني بهواها.

ففي قصيدة كعب بن زهير: متيم بعدها مكبول

وقد نعست في خاطري طول شرعتي، يعني هذه العيون التي تيمتني، نعست في خاطري طول شرعتي، وقوله: نعست، يعني به أنها سكنت في خاطره، فلم تعد تغادر، وكأنها أصابها النعاس وفترت حواسها

وتعبيره بقوله: نعست، فيه كذلك وصف هذه العيون التي تيمته، بأنها عيون نواعس، إذ ذاك من جمال النساء، يقصد به أن جمال هذه الحسناوات وأعينهن النواعس، سلبني وسكن في خاطري، وأخذ إرادتي وتدبيري؛ وقوله: طول شرعتي، أي حين كنت متشرعا، أي كنت أسير على منهاج الشريعة دون أن أراعي معانيها، أيان كنت أقرأ عباراتها وأغفل عن إشاراتها، أفتي بأحكامها وأنسى حكمها

ثم يعود ليزيد هذه العيون النواعس التي سلبته وصفا، ويقول: بها حور يغري العميد بسحره، أي أن هذه العيون بها حور، والحور شدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة، وهو من علامات الجمال في النساء، تقول: امرأة حوراء ونساء حور، من الحور بفتح الحاء والواو، وهو ما ذكرناه

هذا الحور يغري العميد، أي يغري العاشق ويستهويه بسحره الفتان، كما أغراني آنفا، يوم كنت مؤمنا بشرعتي

ولكن أفاقت عند كفري وصبوتي، أي أن هذه العيون النواعس الحوراء، لم تعد نواعس في خاطري، بل أفاقت عند كفري وصبوتي، ويقصد بقوله: أفاقت، أنها لم تعد خاملة في خاطره، ولم تعد تظهر له نواعس، بل أصبحت في ناظريه عيونا كسائر العيون

وهذا التبدل الذي أصابه في نظرته إلى العيون النواعس، وهذا التخلص الذي حازه بتحرره من رق الحور النواعس واستعبادهن له، حصل كل ذلك لما كفر بشرعته وصبأ عن دينه، بمعنى أنه عرف الله تعالى بقلبه، وتعامل معه معاملة المحب للحبيب، ولم يتعامل معه تعاملا عقيما قائما على امتثال الأوامر طمعا في الجنة، واجتناب النواهي خوفا من عذاب النار

قال الجعفي بعد ذلك: شموس الأنس هذه أشرقت على عالم كان من قبل لا يشرق، لا يعرف معنى الضوء، عالم يسرج أهله بالعتمات يحسبونها فجرا،

فينبعث الدخان من سراجهم المنكوس، ويشكل غيمات سودا من فوقها غيمات، غيمات جاثمة تحجب عنهم ما تبقى من وجوم في السماء، فيستنشقون روائح الحريق، كريهة لا تطاق، يظنونها عطرا

يستمطرون سحابا عقيما، والسحاب لا يزيد إلا تكثفا وجثوما، وهم لا يزيدون إلا وحشة وجحيما

هكذا عالم هؤلاء الناس، هكذا موطنهم، لا يعرفون عالما غيره، ولا يغتربون فيه.

هكذا كنت، وهكذا كان عالمي، أعني موطني الذي أنتمي إليه

حتى ترصعت السماء باليواقيت الزاهية، وأشرقت كلها شموسا. عجبا لهذه السماء، ليست تطلع فيها شمس واحدة، كل شموسها في كبد السماء، شموس أضاءت عالمي أول مرة، أول مرة أعرف معنى الضوء

أستفسر الناس عن مصدر اليواقيت، فيقولون: وأية يواقيت؟ لا يرونها

أسألهم عن معنى الضوء، فيقولون: الضوء هو الظلام

ترى لما أشرقت اليواقيت أعمت عيونهم فلم يبصروها، الآن فهمت، هي من شدة ضوئها لا ترى، من شدة ظهورها قد اختفت عن الأنظار

أبصرتها لأنني ما كنت أسكن إلى ذاك الظلام، ما كنت أستمطر ذاك السحاب، لأنني كنت أعرف أنها يوما ستشرق على ذاك الظلام فتبدده، وعلى ذاك السحاب فتشرده

عرفت أنها ما فتئت هناك مشرقة لا تزول، وأن الظلام كان في روعي وفي بواطني، عرفت أن هذا العالم نهاراته لا تزول وشموسه لا تغرب، عرفت أنني أنا الليل البهيم

فلما تنكرت للسواد ولم أعد أستنشق الدخان، وعميت عن كل ساكن ومتحرك، خرجت من وجودي ورحلت عن نفسي وشهودي، أبصرتها،

وطفت أعوم في الضياء ولا أمل البقاء، ولا أرتقب الشروق ولا أخشى الغروب، لأن شموسي في صفحة السماء، لا تطلع من المشرق، ولا تغيب في المغرب، شموسي كانت هناك، وستبقى هناك، وأنا سأبقى هنا مشمسا ساطعا،

لا أحن إلى وطني الأول، فقد عاد وطني مغتربا، عشت فيه غريبا منذ صباي

هذا وطني، وهذا أنا، وهذا الضوء، وغير هؤلاء نكرات، ألفاظ بلا معان، نسيت أو أنسيت ما تكون

ذاك من عجائب طفرتي، كأن الطفرة فراشة تسللت إلي في هدوء من حيث لا أدري، وسحرت كوني ووجودي، أحالت كل فصولي ربيعا

لم تصغ لما أحكيها من شجوني، و لم تعرها اهتماما، ولكن أملت علي شجونها، روعا هالني، فتنني وأفناني، كتبتها سطورا وغنيتها مواويل، وكأنها مزامير الرعاة

لا زلت أذكر قبل أن أبصر، كيف كنت مشغولا بأعين ناعسات سكنت في خاطري، واستولت على قلبي، وأنا الذي كنت أظن أن لا شيء يستعمرني ولا أحد يسلبني

كيف يكون ذلك وأنا المتشرع القائم بأحكام الله؟

فما بال المتشرع لم ينفعه شرعه؟ ما باله فتنته العيون النواعس بحورها وسحرها؟ ما بال الفارس المدجج في السلاح، أصابت مقاتله حسان رقيقات لا عهد لهن بسيف ولا برمح؟

فتى في الحرب لم أخطئ رميا فمالي في الهوى طاشت نبالي؟[4]

فلما كفرت بشرعي، وانبثقت من قوقعتي، وتعرفت إلى الله كما أراد أن أعرفه، وعرفت الناس ليس كما أرادوا أن أعرفهم، و لم أعد متقيدا بأحكام الشريعة، لم تعد تلك العيون تظهر لي نواعس، لقد استفاقت في خاطري، صارت العيون

[4] للمؤلف

عندي سواء؛ حتى الذين رموني بالكفر، ما فعلوا سوى لأني كفرت بهم وآمنت بمولاي، ولو كفرت بمولاي وآمنت بهم عبدوني وكفروا، وظنوا أنفسهم من المؤمنين

الروح والنفس

وروحي ضياء قد وجدت صفاءه ونفسي ظلام حل بي في ضلالتي

فروحي سمت بي في السماء كرامة ونفسي رمتني في الهباء وزجت

وروحي بلا ظل تضيء جوانحي فلله در في غياهب جعبتي

تجلت بأمر الله أمرا أموره تخفت بأمر الله فينا وخفت

زلال جرى في غير واد بما جرى وسر سرى يشجي ذوات تردت

وليست سوى ضيف غريب وما أنا سوى من يضيف الضيف قسرا بجثتي

وقال: أنا الله، الحسين، وليس هو كما قال بل عبد ضعيف وليست

فمن يحرم النفس الحلال تحرزا طغت روحه حتى ادعى ما تألت

فسل مريم العذراء: من هو روحنا ومن كلمت لما استعاذت وعفت؟

وسلني أقل: ما ذاك جبريل فاتعظ فلا يهب الغلمان جبريل واثبت

بل الواهب الباري بنفخة روحه تأمل تجد ما قلت عين الحقيقة

وأوصافها من وصف من هي أمره فليست بمخلوق وليست بربة

ومن لم يميز ظن روحه نفسه فأخشى عليه القول يوما بوحدة

فلا فرق بين الرب والعبد عنده وذاك ضلال في اعتقادي وملتي

وقد كلفت نفسي وروحي بريئة إذا ما قضيت النحب نادت برجعة

ولا تقبض الأرواح عند الردى ولا بقاء لها في برزخ ما تبقت

تقوم مع الأملاك تشهد فيهم بأفعال من كانت به ثم سلت

ولكن نفوس الناس بالأمر كلفت فلا تحقروها وهي فيكم تربت

وقد سويت نفسي على فطرة وما يزيغ بها غيري دسست فدست

ثم يباشر الشيخ الكلام عن الروح، ليدلي بدلوه فيما تدوول بين علماء التحقيق بشأنها، من بعض ما فتح الله به عليه، وإلا فلا يعلم حقيقة الروح إلا باريها، سبحانه الحكيم العلام

ويقول: وروحي ضياء قد وجدت صفاءه، أي أن روحه ضياء بسموها وقدسيتها، قد وجد صفاءه، أي أحس به؛ وتعبيره بفعل وجد، فيه ما فيه من خصوصية هذا الإحساس، فهو لم يقل: أحسست أو شعرت بصفائه، ولكنه قال: وجدت صفاءه، ولعل وجد، أبلغ من أحس وشعر فيما رمى إلى بيانه

قال الله تعالى: "ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون". يوسف94

فعبر يعقوب عليه السلام بأنه يجد ريح يوسف عليه السلام، و لم يقل: أحسست بريحه وشعرت بها، فهو يجدها، وهو لا يشك في قربه منه وإقباله عليه حين وجد ريحه، إنها فراسة الأنبياء عليهم السلام التي لا تخطئ، وإنه إيجاد الأصفياء الذي لا يبطئ

يريد الشيخ أن يقول بهذا، أنه وجد صفاء روحه المضيئة، واستشعره بقوة، وكأنه يجده كما وجد يعقوب ريح يوسف واستشعرها بقوة

ويقابل الشيخ بعدها بين الروح والنفس، وهي مقابلة بين نقيضين، لأن الشيء بنقيضه يعرف ويتميز؛ فإذا كانت الروح ضياء وجد صفاءه، فالنفس ظلام حل به في ضلالته وبعده عن الله تعالى

ويقابل مرة أخرى بين النقيضين، فالروح سمت به في السماء كرامة، لأنها لا توحي إليه سوى بمحبة الله تعالى، ولا تطبعه سوى بالخصال الجليلة، وتنفحه بالحلم والرحمة والغفران، والصبر والرضا بقضاء الله تعالى وقدره؛ أما النفس فقد رمت به في الهباء وزجت، وقد أجاد بنسبته فعل السمو للروح وفعل الرمي والزج للنفس، على حسب عادة كل واحدة منهما، فالمرء لا يسمو إلا بما

يشرف به ويعز، أما الرمي فإننا لا نرمي إلا ما لا حاجة لنا به في الغالب، ولا نرميه إلا في المواضع المبتذلة الوضيعة

فالنفس رمت به في الهباء، والهباء الغبار، وقيل: هو غبار شبه الدخان ساطع في الهواء، أي لا يكاد يظهر للعيان، وكأنه لا شيء

فالنفس رمت به في الهباء، أي فيما يشبه الغبار والسراب من تافهات الأمور وسفاسفها. وقوله: وزجت، من زج يزج زجا، وهو الرمي كذلك، وقد كثر استعمال الزج في لغة الضاد، بمعنى إدخال الشيء بين أشياء لا تليق به، فكذلك النفس رمت به وزجت فيما لا يليق به من الهباء، وهو خليفة الله تعالى في أرضه، الذي ما خلقه الباري عز وجل وصوره سوى ليطيعه ويعبده، رمته نفسه وزجت به في المعاصي رغم كل ذلك، في مستنقعات آسنة نتنة، تفوح منها روائح الفسق والفجور الكريهة

ثم يخص الشيخ بكلامه الروح فيقول: وروحي بلا ظل تضيء جوانحي، وكأنه هنا، يباشر ذكر ما علمه من خصائص الروح، ليقرب مفهومها إلى الأذهان حسب ما فتح عليه به، فيصفها بأنها من شدة خفائها ولطافتها لا ظل لها، ورغم ذلك فهي تضيء جوانحه، والجوانح أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر، سميت بذلك لجنوحها على القلب

هذه الإضاءة، ليست كما يتبادر إلى الذهن، إضاءة شمس أو قمر، ولكنها إضاءة نورانية تشع بالجمال والجلال والسكينة

قوله: فلله در في غياهب جعبتي، فلله صيغة تعجب، فهو يتعجب ويمثل الروح بالدر لنفاستها وعلو عنصرها، ويمثل جسده بالجعبة، والجعبة جمع جعاب، وهي كنانة النشاب، وإن شئت، وعاء السهام والنبال؛ فكأن الروح در، جمع درة وهو اللؤلؤ، في غياهب جعبتي، أي في ظلمة جسمي

قوله: تجلت بأمر الله أمرا أموره، أي أن هذه الروح، تجلت وخرجت إلى الوجود، أمرا، حال من فاعل تجلت منصوب، ولم يقل خلقا، فلا يوجد في كتاب الله تعالى ولا في حديث رسوله ﷺ ما يدل على أنها مخلوقة، بل هي نفخة من روح الله تعالى، هذا هو كل ما نعرفه عن مصدرها، ولذلك سماها أمرا، حتى لا يزيد ولا ينقص عما سماها به ربها

قال تعالى: "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". الإسراء85

أمور هذا الأمر، الذي ما هو سوى الروح، وشؤونه تخفت بأمر الله فينا، أي لا نعلمها ولا ندريها لخفائها عنا وفينا، وخفت، من الخفة، والأول من التخفي وهو جناس بديع، قلنا: وخفت، أي الروح لما اتصفت بالخفة واللطافة

قوله: زلال جرى بغير واد بما جرى، يصف الروح بالزلال لشدة صفائها وعذوبتها، والزلال الصافي الخالص من كل شيء، قال ذو الرمة:

كأن جلودها مموهات على أشارها ذهب زلال

هذا الزلال، ويعني به هاهنا ما صفا من الماء السلسبيل، جرى بغير واد، أي جرى ليس بالمعنى الحسي المعروف من جريان الأودية والأنهار، بل جرى دون حاجة إلى مجرى يجري فيه، فعل ذلك بطريقة روحانية خفية، نحس بها ولكن علمها عند الله الذي يعرف هيأتها وكيفيتها، وقد جرى هذا الزلال بما جرى، أي بما لا يعلم ولا يدرك

وسر سرى يشجي ذوات تردت، أي أن هذا الزلال الذي هو الروح، سر من أسرار الله تعالى التي لا يعلمها إلا هو علام الغيوب. هذا السر سرى، والسرى المشي ليلا، ويعني به أنه جرى ليلا حتى يزيد من شدة خفائه. ويشجي ذوات تردت، وأشجى يشجي شجا وشجوا، إذا طرب وهيج المكنونات، يقال شجاه الغناء، إذا طربه وهيجه، وأنشد الليث:

إني أتاني خبر فأشجاني أن الغواة قتلوا ابن عثمان

قلنا: سرى يشجي ذوات، جمع ذات، تردت، نقول ردى وتردى إذا هوى وهلك

فالروح سر سرى في ذوات هوت في هوة المعاصي، لأن النفس أمارة بالسوء، ولا تدفعه إلا إلى ما يهوي به، ويهلكه ويرديه، وفي التتريل الحكيم: "قال تالله إن كدت لتردين". الصافات56

ثم يصف الروح وكأنها ليست سوى ضيف غريب، ويمثل ذاته بالمترل، والروح التي تحل في ذاته بالضيف، ووصفه بالغربة لأنه لا يعرف هذا الضيف ولا يدرك كنهه. وما هو، أعني الشيخ، سوى من يضيف الضيف قسرا، أي كرها رغما عنه دون استئذان أو اختيار منه، يضيفه بجثته

قوله: وقال: أنا الله، الحسين وليس هو، يشير إلى أبي عبد الله الحسين بن منصور الحلاج حين نطق بالألوهية

ويرد ما قاله بقوله: وليس هو، أي أن الحلاج ليس هو الله، ويقول: بل عبد ضعيف وليست، يعني أن الحلاج وغيره ما هم إلا عباد ضعفاء، وقوله: وليست، يعود على الروح، أي ليست هي الأخرى إلها يعبد مع الله أو من دونه، تعالى عن ذلك علوا كبيرا

قوله: فمن يحرم النفس الحلال تحرزا، يشير الشيخ إلى السبب الذي أوقع الحلاج وغيره في متاهة ادعاء الألوهية، وذلك أنهم لم يكفروا، وإنما خرجوا ومالوا عن سنة رسول الله ﷺ في مراعاة الوسطية والاعتدال في هديه ﷺ في أقواله وأفعاله، فحرموا نفوسهم ما أحل الله لها من طيبات، تحرزا أي اتقاء من الوقوع في الآثام، باتباع هوى النفس والسعي وراء ما يرضيها من الشهوات والملذات، هؤلاء الأولياء بمبالغتهم في إجحاف أنفسهم والتضييق عليها، خرجوا عن شريعة رسول الله ﷺ وحادوا عن سنته، واشتغلوا بما تمليه

عليهم الروح، وكأنهم أصبحوا روحانيين، في حين أن الإنسان روح ونفس، ولم يوازوا بين مطالب هذه وتلك، فاختل فيهم الميزان الذي ما خلق الله السموات والأرض وما فيهن إلا على أساسه

"والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان". الرحمن5-7

فظن هؤلاء أنفسهم أرواحا فحسب، واستشعروا صفاء أرواحهم وأحسوا بألوهية مصدرها، لأنها نفخة من ذات الإله، فنطقوا بالألوهية

وقوله: حتى ادعى ما تألت، يعني ادعى ما أحس به من ألوهية في الروح؛ وتألت من الإئتلاء، وهو الحلف، من تألى يتألى تأليا وائتلاء

ولعل الشيخ استعمل هذا اللفظ، يعني به ما عني به في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم في باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، قال: عن جندب أن رسول الله ﷺ حدث: "أن رجلا قال: والله! لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك". أو كما قال.

قال النووي: معنى يتألى: يحلف، والألية: اليمين

ويريد الشيخ بقوله: حتى ادعى ما تألت، أي تجرأ على التألي على الله تعالى والدخول في شؤون الألوهية، مما ليس له حق فيه، كما حكم الرجل في الحديث على غيره بأن الله تعالى لا يغفر له، وتدخل بذلك فيما ليس له، إذ الحكم على الناس من اختصاص الله تعالى

قوله: فسل مريم العذراء: من هو روحنا، لأن مريم عليها السلام أتاها الروح وكلمته وكلمها، ومن كلمت لما استعاذت وعفت؟ أي استعاذت منه لأنها لا تعرفه، كما ورد في التتريل الحكيم: "فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا". مريم16-17

وعفت بإحصان فرجها، وبخوفها من هذا الذي أتاها في فلاة لا تعرف من هو، وهي امرأة وحدها، فخافت على عرضها من أن يهتك ويستباح

قال: وسلني أقل: ما ذاك جبريل فاتعظ، لأن أكثر أهل العلم على أن الذي جاء مريم العذراء وكلمها، جبريل عليه السلام، وفي نظر الشيخ أن ذلك إخطاء لوجه الصواب، فلا يهب الغلمان جبريل واثبت، ودليل الشيخ على أن الذي أتى مريم ليس جبريل عليه السلام، هو أن جبرائيل ملك من الملائكة، ولم يثبت في الكتاب العزيز ولا السنة المشرفة، أن ملكا من الملائكة عبر بلفظ الوهب، كما هو في هذه الآية، وإنما عبر بلفظ التبشير، فالملائك تبشر ولا تهب، إنما الواهب الله تعالى جلت قدرته

بخلاف ما قاله صاحب مريم وهو الروح: "قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا". مريم18

وقال سبحانه في تبشير الملائكة: "قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم". الحجر53

قوله: بل الواهب الباري بنفخة روحه، يعني أن الذي يهب الغلمان هو الله تعالى بنفخة روحه

قال تعالى: "يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما". الشورى46-47

قوله: وأوصافها من وصف من هي أمره، أي أن أوصاف الروح هي من بعض أوصافه سبحانه وتعالى، لأنها صدرت عنه ولم يخلقها، ورغم أنها ليست إلها فليست بمخلوقة، ورغم أنها منه فليست إله

قوله: ومن لم يميز ظن روحه نفسه: يعني بذلك أن كل من لم يفرق بين الأمرين، حسبهما واحدا، أي حسب الروح نفسا والنفس روحا، فأخشى عليه

القول يوما بوحدة، أي أخشى عليه أن يقول ويدين بمذهب الوحدة والاتحاد، فيشرك في توحيده، ويدعي الألوهية

فلا يفرق بين الرب والعبد، أي لا يفرق بين نفسه وربه، وذاك ضلال في اعتقادي وملتي، حسب اعتقادي وملتي أحكم على كل من قال بالوحدة والاتحاد وادعى الألوهية، ونطق باسم الله أنه ضال لا محالة في ذلك

ثم يستأنف الشيخ كلامه ليفرق مرة أخرى بين الروح والنفس، فيقول: وقد كلفت نفسي وروحي بريئة، أي أن النفس هي المنوطة بالأحكام والتكاليف، أما الروح فهي خلية من ذلك بريئة منه؛ إذا ما قضيت النحب نادت برجعة، أي إذا مت رجعت إلى مولاها نقية طاهرة مطمئنة، كما نفخت أول مرة، لا تشوبها شائبة ولا تكدرها عائبة

قوله: ولا تقبض الأرواح عند الردى، يعني به أن ملك الموت لا شأن له بالأرواح ولا يقبضها عند الردى، أي الموت، بل يقبض الأنفس، فذلك اختصاصه، وكثير من الناس يخطئون ويقولون: قبض ملك الموت روح فلان، في حين ليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على ذلك، وإنما الأمر بخلافه، كما في قوله تعالى: "**الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى**". الزمر39

ولا بقاء لها في برزخ ما تبقت، أي أن الأرواح لا يقبضها ملك الموت، ولا تبقى في البرزخ تنتظر يوم البعث، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر، من وقت الموت إلى يوم البعث، وهو في اللغة الحاجز بين الشيئين، كما في التنزيل الحكيم: "**مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان**". الرحمن**17-8**

بل إن من وظائف الروح أنها تقف صفا مع الملائك تشهد بما كان يفعله صاحبها الذي كانت به ثم سلت، وكأنها سيف سل من غمده

قال تعالى: "يوم يقوم الروح والملايكة صفا لا يتكلمون، إلا من اذن له الرحمن وقال صوابا". النبأ38

قوله: ولكن نفوس الناس بالأمر كلفت، أي أن النفوس هي الواقعة تحت الأمر والنهي، وهي مناط التكليف، وليست الأرواح، فلا تحقروها، وهي فيكم تربت، أي لا تحقروا هذه النفوس، ولا تظلموها وتعيبوها، فما هي إلا صنائعكم، وما هي إلا أنتم، وفيكم تربت، أي أنتم الذين علمتموها ارتكاب المعاصي، وأنتم الذين عودتموها على إتيان الفواحش والمنكرات

قال: وقد سويت نفسي على فطرة، أي أن النفس سواها مولاها على فطرة، كما جاء في صحيح البخاري مرفوعا: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث".

وما يزيغ بها غيري دسست فدست، أي ما يميل بها عن الحق غيري، لما دسست، أي ارتكبت الدسائس، من دس يدس دسا فاندس

والدسائس جمع دسيسة، وهي النميمة والعداوة

لما دسست دست هي الأخرى

"ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها". الشمس7-10

قال الجعفي بعد ذلك: خلط كثير من جهابذة علمائنا الأفاضل بين الروح والنفس، من أمثال سيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد زروق، وسيدي الإمام أبو حامد الغزالي، رحمهم الله تعالى

وقد وقعوا في هذا الخلط، ليس لغياب أمور الروح عن العقول والأفهام فحسب، ولكن لأنهم لم يسبروا معاني الروح والنفس في القرآن والسنة، وإلا فالفرق أوضح من نار على علم

فما الروح سوى ضيف غريب، يأمر الله تعالى روحه الأول، وإن شئت يأمر روحه الأكبر كما سماه شيخنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، لما سئل عن مدده الذي يستمد منه، فذكره فيما ذكر من مصادر استمداده العشر، كما هو معروف

قلنا: يأمر الباري عز وجل روحه الأكبر بنفخ الأرواح

وهذا الروح الأول هو الذي أرسله الله تعالى إلى مريم العذراء عليها السلام، لكي ينفخ في رحمها ويهبها الولد، هذا الروح الأول نسبه الباري عز وجل إلى نفسه، فقال سبحانه

"فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا". مريم16

و لم يشر القرآن ولا السنة إلى أن الله تعالى أوجد هذا الروح عن طريق الخلق، وإنما هو روح الله، والله لا ينفخ الأرواح مباشرة في الأرحام، بل ينفخها عن طريق روحه الأول، وإن شئت عن طريق روح الأرواح

وقد جانب وجه الصواب من ظن أن الذي أرسله الله تعالى إلى مريم، هو جبريل عليه السلام، لأن جبريل ملك من الملائكة، وليس من وظائف الملائكة أن تهب الولد، وإنما هي تبشر به، بل الذي يهب الولد الله تعالى

وقول الروح الأول لمريم: "قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا". مريم18

يتضمن في سياقه استعمال لفظ الوهب الذي هو من اختصاص الله تعالى

هذا الروح الأول بإمكانه أن يكلم الناس فيسمعونه ويكلمونه ويسمعهم، وبإمكانه أن يتمثل لهم في صورة بشر، كما كلم مريم وسمعته وكلمته وسمعها وتمثل لها بشرا سويا

وانظر رعاك الله إلى حديث الروح

عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: أكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح الحديث". أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة

فقد جاء فعل: "ينفخ"، في الحديث الشريف مبنيا للمجهول، حتى يدل على أن النافخ ليس الملك، وإنما الروح بل الروح الأول، فتدبر

وقد ادعى قوم الألوهية، ونطقوا بكلام ظاهره الكفر والشرك، والله أعلم بسرائرهم، وما فعلوا ذلك إلا لالتباس الأمر عليهم، حين حسبوا الروح والنفس شيئا واحدا، وحرموا على أنفسهم ما أحل الله لها، وطفقوا يكثرون من الصيام والقيام والعبادات، وأمعنوا في الزهد والنسك والتقشف

حتى خرجوا بذلك عن سنة رسول الله ﷺ، فلم يوازوا بين ما تحتاجه الروح وما تحتاجه النفس، وبذلك اختل لديهم ميزان الشريعة، فظنوا أنفسهم أرواحا، وبما أن الروح تتصف ببعض أوصاف الربوبية، لأنها أثر من الرب، استشعروا هذه الصفات الربانية، فظنوا أنها صفاتهم، فادعوا الألوهية

قلنا في كتاب سوانح الخواطر في كوامن السرائر: إذا كان الله مصدر الروح، وهي منه ليست إياه، وهما واحد لا ينشطر، واثنان في وحدة، يتوحد دونها ولا تتوحد معه، فهي نفخة من روحه ينفخها الروح الأول بأمر مولاه، والروح الأول هو مصدرها، والنفخة ليست طرفا منه، وإنما هي أثره، وهو أثر من مولاه، ولا يخلو الأثر من ريح صاحبه، وحاشا لله أن تكون الروح طرفا منه، وهو سبحانه لا يتجزأ، وإنما هي تحمل سر الألوهية، بما نفخت من روح ذات الإله، وليست إلها، وإنما هي تابعة للإله، بل هي من أمره:

"ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". الإسراء85. انتهى منه

ويقصد الشيخ بقوله: وقال: أنا الله، الحسين وليس هو، يقصد به أبا عبد الله، الحسين بن منصور الحلاج، رحمه الله تعالى، فقد قال في كتابه الطواسين:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ولكن رغم أن الشيخ حكم على كلامه بالضلال، إلا أنه لم يخرجه عن حياض أولياء الله الصالحين، وهذا دأب غيره ممن سبقه من الكبار، أمثال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى. ولا يقبض الله تعالى الروح كما يقبض النفس إذا قضى المرء نحبه، بل ترجع إلى ربها طاهرة مطمئنة كما جاءت أول مرة؛ أما النفس، فقد سواها الله تعالى على فطرة التوحيد، وإنما صاحبها هو الذي طبعها بالميل إلى الخبائث، وبلاها بارتكاب المحرمات، فلا داعي إلى لومها، وإنما الأولى باللوم والعتاب الإنسان نفسه

وقد وفينا الكلام عن الروح وما يتعلق بها في كتابنا السوانح، فلينظره من شاء، يجده في محله

أما الذين قالوا بالوحدة والاتحاد، فماهم سوى ضحايا هذا اللبس الذي أشرنا إليه، ولعلهم فعلوا ذلك بغير قصد، عسى الله تعالى أن يعفو عنهم ويغفر لهم، أليس هو الله الحليم الغفور؟

كما أن الروح لا علاقة لها بالشريعة والتشريع والأحكام والتكليف، وإنما ذلك من شأن النفس، ولا شأن لملك الموت بها

القاصد الله

فيا من قصدت الله من بعد جفوة ذكرت حبيبا فاستثرت صبابتي
فدعني أعاني ما أثرت من الجوى وإلا فلا تحفل لحالي وثورتي
أتسأل عن ليلى وما ثم غيرها وتذكر أطلالا عجزت وشطت؟
تروح وتغدو في جلال وعزة وأحبابها صرعى بثين وعزة
جفتني لأني بحت للناس بالهوى فلما شكوت الجفو باءت بهجرتي
شهدت بما أفضت وإني لصادق فتيمت أقواما بما لي أفضت
ولم يبصروها إنما هيئت لهم ولو أبصروها أقبلوا ثم صدت
فجنوا جميعا بالتجني على الهوى ولم يعقلوا حتى تجلت وبشت

ثم ينتقل الشيخ للكلام على من قصد الله تعالى، يسأل عن طرق الوصول بعد الأفول، ويستفسر عن سبل السلوك إلى مالك الملوك، ويقول: فيا من قصدت الله من بعد جفوة: أي أيها القاصد ربه تريد وصله والتصالح معه بعد هجرك وجفوتك، والجفو من جفا يجفو وتجافى، إذا لم يلزم مكانه، كالسرج يجفو عن الظهر، وكالجنب يجفو عن الفراش، وفي التتريل:"تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون". السجدة16

ذكرت حبيبا فاستثرت صبابتي، أي وأنت تسألني عن الله، فإنك بذكرك اسم العزيز، أثرت، بمعنى هيجت صبابتي واستثرت عشقي، لأنك ذكرت الحبيب وذكرتني به بذكرك إياه، فدعني أعاني ما أثرت من تباريح الجوى، والجوى شدة الشوق، وإلا لا عليك، فلا تحفل ولا تأبه لحالي وثورتي، بل دعني أعاني ذلك وحدي، والثورة الهيجان

تراك تسأل عن ليلى وما ثم غيرها، والمقصود بليلى الله عز وجل، كما عبر به عن الله تعالى كثير من الأفاضل، ومنه قول أبي مدين التلمساني في نونيته:

تقول ناس: قد تملكه الهوى أجل لست في ليلى بأول من جنا؟
خفيت بها عن كل ما علم الورى وأظهر لبنى والمراد سوى لبنى

وقول الشيخ محمد الحراق في تائيته:

أتبحث عن ليلى وفيك تجلت وتحسبها غيرا وغيرك ليست؟

قال الشيخ: أتسأل عن ليلى وما هناك سواها؟ فكيف تسأل عن شيء وهو موجود؟ وتذكر أطلالا عجزت وشطت، والأطلال جمع طلل وطلول، وهو ما شخص من آثار الديار، والمعنى: أنت أيها السائل بذكرك ليلى وسؤالك عنها، ما ذكرت سوى أطلال، أي ما تبقى من دار الحبيب الغائب، والأطلال كناية عن ذكرى الحبيب، وموضع بكاء العاشقين المتيمين، وحتى هذه الأطلال، عجزت عن إدراكها لما شطت وبعدت عنك، فلم تعرف إليها سبيلا، و لم تجد عليها دليلا

قوله: تروح وتغدو في جلال وعزة، والمقصود أن ليلى التي سألت عنها، تروح وتغدو في جلال وهيبة وعزة، وأحباها صرعى بثين وعزة، أي أن محبيها بدل أن يهتموا بها، وينظروا إليها فتغنيهم عن غيرها بحسنها وجمالها وجلالها وعزتها، هم في شغل عنها بما هو أقل منها حسنا وأدنى جلالا، هم صرعى بحب بثين وعزة، وهي من الأسماء التي تغزل بها شعراؤنا القدامى في قصائد مشهورة، وبثين ترخيم في بثينة، قال جميل بثينة:

ألا ليت ريعان الشباب جديد ودهرا تولى يا بثين يعود

قوله: جفتني لأني بحت للناس بالهوى، يعني أن ليلى جفتني وهجرتني عقابا لي على بوحي بأسرار الهوى، ولما شكوت جفوها وهجرها للناس، زادتني جزاء على ذلك، فباءت بهجرتي بالمرة، يريد: رجعت بها

قال: شهدت بما أفضت وإني لصادق، أي أقررت بصدق بما أفضت لي، وأفضى من الإفضاء، وهو الإعلام بمكنونات النفس وأسرارها، وفي التتريل الحكيم: "وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض". النساء21

فتيمت أقواما بما لي أفضت، أي أن هؤلاء الأقوام بمجرد سماعهم ما حكيت لهم من إفضائها لي، أصبحوا متيمين بها، عاشقين لها، راغبين فيها، وتيمت من التيم، وهو ذهاب العقل من الهوى، وفي قصيدة كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد بعدها مكبول

أي معبد مذلل، ونقول: تيمه الحب، إذا استولى عليه

إذا كان هذا حال من عشقوا ليلى وتيمتهم وهم لم يروها، فما بالهم لو رأوها كما رأيتها، وسمعوها كما سمعتها؟ ولذلك قال ليزيد المعنى توضيحا وبيانا: و لم يبصروها إنما هيئت لهم، أي أنهم أصغوا إلى ما أفضيت مما أفضت لي به، فأصبحوا متيمين بها و لم يبصروها، إنما هيئت لهم، أي تصوروها فحسب، ولو أبصروها حقيقة لأقبلوا عليها وسلبهم حسنها وجمالها وجلالها، حتى إذا أقبلوا صدت عنهم وتركتهم في حيرة وانشغال

فجنوا جميعا بالتجني على الهوى، والتجني اتهام الغير بجناية لم يرتكبها، والمراد أنهم بحبهم لليلى، وتطاولهم على هواها، حتى أصيبوا بالجنون، قد تجنوا على هذا الهوى، وأساؤوا إليه وكأنهم تجنوا عليه، والمعنى، لما أقبلوا عليها وصدت عنهم، أصيبوا بجنون العشق بسبب الهجر، فأصبحوا كالمجانين، و لم يعقلوا من جنونهم، حتى تجلت أي ظهرت، وبشت في وجوههم، والبشاشة أن يلقاك المرء بوجه طلق

قال الجعفي بعد ذلك: أتدري يا رفيقي لما سألتني عن الله، ما فعل بي سؤالك؟ سؤالك هيج ما ترسب في كوامني من شجوني، فطارت كالحمام مفزعا في

فضاء هواي وانسيابي، وأزعجت شوقي فاستفاق مذعورا، وعاودني الحنين إلى الديار، وتملكني البكاء والأنين وجرت شؤوني

أتدري عمن سألت أيها الرفيق لما سألتني عن الله؟ سألت عن حبيبي

إليك عني، لست أجيب وقد سارت الأشواق لما أثرتها تلهب ظهري بسياط الوجد، وتحرق كبدي وتكويني بنيران اللهفة للقاء الأحبة

دعني حتى يهدأ عني ما أثرته من زوابع تذروني حيث لا أدري شتاتا شتاتا، وتجمعني في سري على جهري فتاتا فتاتا، وتسلمني إلى حالي أستشعر شؤمي وأبكيه انفلاتا

لا يهمك أيها الرفيق ما ترى مني، ولا تأسف على ما جنيت لما سألتني عن حبيبي

أنا أعذرك يا رفيقي، تراك لم تجرب العشق وتذق مرارات الغرام، ولم تعان تباريح الشوق في الظلام، ولم تكابد آلام الاحتراق وأية آلام؟

عمن تسألني يا رفيقي؟ أتسأل عن حبيب لا يغيب عن أحبابه؟ فإن كنت من أحبابه فما ثم غيره، وإن لم تكن من أحبابه، فمهما بكيت على الأطلال وبللت بشؤونك الدمن لن يسعفك

هاهي ليلى تروح وتغدو على مرأى من الناس، في جمال وجلال، ورقة واعتدال، والذين يدعون حبها لم ينظروا إليها، ولو نظروا إليها نظرة واحدة لأبصروها، لأنهم عشقوا غيرها ممن لم يبلغن شأوها، ولا حظين بحسنها وبهائها، صرعتهم بثينة وعزة، لما أصاب حبهما منهم الشغاف، فلم يعد لهم قيام

تلومني ليلى وتجفوني، وقد أعلمت الناس بحبي، وأطلعتهم على شوقي

ليلى لا تحب أن يعلم الناس أني حبيبها

ولكني ما أعلمتهم وما أطلعتهم سوى لأفرج عن شجوني، فلما شكوت لها ما أجد من لومها وما أعاني من جفوها، هجرتني بالمرة، وكأن ليلى لا تحب أن تسمع شكوى الحبيب

كل ما حدثت الناس عنه مما أفضت لي به، لما سمعه الناس عشقوها، رغم أنهم لم يبصروها، وإنما تخيلوها، ولو أبصروها كما أبصرتها لأقبلوا إليها مهرعين، وهم لا يدرون أنهم لو أقبلوا عليها لصدت عنهم كما هو طبعها، ولما استطاعوا أن يتحملوا صدها، فأصيبوا بالحيرة والجنون

تراهم يحسبون الهوى سجية كل الناس، حتى يهووا ويعشقوا؟ لقد تطاولوا على ما ليس لهم فيه

الهوى يا رفاقي نار بلا دخان، تستشيط بالهم والأحزان، في القلب والوجدان.

لعمري لو صدت عنهم لتقطعت بهم الأسباب وانقطعوا عن الكلام، وكفوا عن الطعام والمنام

و لم يعقلوا سوى إذا أشفقت من حالهم وتجلت بوجهها البشوش.

في طلاب الشيخ العارف

تأهب إذا شئت الوصول لبارئ لصحبة شيخ عارف ليس يفتتي
وأين الشيوخ العارفون تستروا فلا هم بصوف يعرفون ورقعة؟
فما ثم إلا مدعون تجمعت عليهم أناس في الزوايا بكثرة
شيوخ يخالون الولاية إرثهم وظائف تتلى ثم ورد بسبحة
يمدون أقداما وأيديهم لكي يقبلها أمثالهم دون حشمة
يمدون أتباعا بما شاب حالهم فمن يستمد منهم يمد بشبهة
تغنوا بهم في الدير بالجذب جهرة فأعجبهم منهم غناء بجذبة
يلفون ناسا حولهم قد تحلقوا يدلونهم عدوا عليهم بسطوة
وما لهم والمكس قد ألزموا به مريديهم قسرا ومن غير عفة
فما عارف من حاز مالا وجمعه فقير ولم يكفل له قدر مضغة
وما عارف من عرف الناس قدره ولا يبتغي إلا علوا بشهرة
فلا تتبع من هؤلاء مدللا تتره رعاك الله عنهم برفعة
تذلل إلى المولى يعزك عزه ومن لي معز عند ذلي وشقوتي؟
فإن لم تجد شيخا فناد مهيمنا وقل: يا إلهي من سواك لحاجتي؟
إلهي لئن لم تهدني قد أضل في طلاب محال في زمان القطيعة
تقطعت الأسباب فاهد ضلالتي ومن لي سوى ربي حسيي وغنيتي؟
وكن صادقا فيما دعوت ولا تهن يسخر لك المولى دليلا بسرعة

يسترسل الشيخ في خطابه لمن سأله عن الله تعالى وطرق الوصول إليه، بعدما هدأت ثورته التي أشعلها سائله، الذي هيج أشواقه حين ذكره بحبيبه

يتابع كلامه، وكأنه الآن أصبح مستعدا لكي يجيبه عن سؤاله، ويدله عن الطريق الموصل إلى الله تعالى

فيقول: تأهب إذا شئت الوصول لبارئ: أي إذا أردت الوصول إلى البارئ عز وجل، والبارئ من أسمائه تعالى، وهو الذارئ، وقيل: هو الذي خلق الخلق لا عن مثال، من برأ برءا وبروءا، قال سبحانه: "ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها". الحديد21

أي من قبل أن نخلقها

وقوله: تأهب، من الأهبة وهي العدة، بمعنى: استعد وأخذ لذلك الأمر أهبته، أي هبته وعدته

تأهب أيها السائل عن مولاه، تأهب لصحبة شيخ عارف يدلك على الطريق، شيخ واصل صادق ليس يفتتي، من الإفتيات، قال الجوهري: الافتيات افتعال من الفوت، وهو السبق إلى الشيء دون ائتمار من يؤتمر

وقد زوجت عائشة ابنة أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو غائب، من المنذر ابن الزبير، فلما رجع من غيبته، قال: أمثلي يفتات عليه في أمر بناته؟ أي يفعل في شأنهن شيء بغير أمره؛ نقم عليها نكاحها ابنته دونه. انتهى

قلت: ومنه الافتيات على الإمام الراتب عند الفقهاء، ويكون إذا صلى الإمام الراتب بالناس جماعة في المسجد غير المطروق، وجاء بعده أفراد تخلفوا عن الجماعة، وأقاموا الصلاة في مسجده وصلوا جماعة

وكأن شيخنا يقول للسائل: اصحب شيخا ليس يفتتي، أي لا يدعي المشيخة ويتطاول عليها وهو ليس لها بأهل

ثم يتساءل ويقول: وأين الشيوخ العارفون تستروا؟ وهو تساؤل وجواب، فهو يستبعد وجود الشيوخ العارفين، لأنهم تستروا أي تخفوا عن الأنظار واحتجبوا عن الأبصار، فلا هم بصوف يعرفون ورقعة، أي أن من أسباب تخفيهم أنهم لم يعودوا يلبسون ما يعرفون به من صوف ومرقعات، وهي الملابس المرقعة، كما كانت عادتهم من قبل، حتى نستدل عليهم بلباسهم فنعرفهم ونقصدهم، فما ثم

إلا مدعون، من الادعاء والدعوة، وهو أن يزعم المرء لنفسه حقا لا دليل له عليه؛ قال ابن الأعرابي: المدعي المتهم في نسبة، وهو الدعي

ما ثم إلا مدعون تجمع عليهم الناس في الزوايا بكثرة وازدحام

يحسبون الولاية إرثا ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، في حين أن الولاية تكون بموالاة الله تعالى، والقيام بأوامره والوقوف عند نواهيه.

وظائف تتلى ثم ورد بسبحة، أي أنهم يظنون طريق الولاية يكون بطقوس يحافظون عليها ويتعهدونها في زواياهم، منها الاجتماع في أوقات معلومة من أجل الوظائف والأوراد والذكر بالسبح جمع سبحة

يمدون أيديهم وأقدامهم لكي يقبلها أمثالهم من الناس، دون حشمة واستحياء، ويدعون أتباعهم إلى الاستمداد منهم، ومن يستمد منهم فلن يمدوه إلا بخلطهم ونقصهم وشبههم، والشبهة جمع شبه وهو اسم من الاشتباه، أي الالتباس

تغنوا بهم في الدير بالجذب جهرة، أي أن أتباعهم تغنوا بهم، بمعنى نسبوا إليهم من صفات وعصمة لا تكون لهم، ومدحوهم بأشعار، وقدسوهم بما لا يليق لهم، وقد تغنوا بهذه الأشعار في الدير جهرة، وقد سمى الشيخ الزاوية بالدير مجازا، وهو دار الرهبان من النصارى، وكأنه يمثل صنيع هؤلاء المدعين المتمشيخين وأتباعهم بصنيع النصارى، لأنهم أطروهم وقدسوهم، كما فعل النصارى بعيسى ابن مريم عليهما السلام، وفي الحديث: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم".

فأعجب هؤلاء المتمشيخين ما تغنى به أتباعهم، وأخذهم الخيلاء والعجب والزهو، خاصة وأن أتباعهم تغنوا بهم وهم يجذبون في حضرتهم

يلفون ناسا حولهم قد تحلقوا، أي يجمعون عليهم ناسا على شكل لفيف، قال ساعدة بن جؤية:

فالدهر لا يبقى على حدثانه أنس لفيف ذو طرائف حوشب

هؤلاء الناس، تحلقوا حولهم، أي داروا بهم على شكل حلقة
يدلونهم عدوا عليهم بسطوة، أي لا يدلونهم على الله تعالى، بل يدلونهم على أنفسهم من دون الله تعالى، بكبر وكبرياء وسطوة، وسطا يسطو سطوة وسطوا، صال، والسطوة القهر بالبطش، قال الباري عز وجل: "يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا". الحج70
يقول: وما لهم والمكس قد ألزموا به مريديهم، تقديره وما كان لهم والمكس،
ما: اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ
لهم: جار ومجرور متعلقان بخبر ما المحذوف وجوبا، والواو للمعية والمكس مفعول معه منصوب.
والمكس جباية، وهي عبارة عن دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، والمعنى: ما بالهم فرضوا المكوس على مريديهم قسرا، أي كرها، من غير عفة، أي من غير حشمة بل بصفاقة وسلاطة
فليس بعارف من جمع المال وكنزه، وجمعه من مريديه الذين اتخذوه شيخا، فقراء معوزون، ورغم غناه وثرائه لم يكفل لهم قدر مضغة، أي لم يجد عليهم ويذقهم شيئا مما أنعم الله به عليه، إذ الشح ليس من شيم المحسنين
وليس بعارف ذاك الذي عرف، بتشديد الراء، الناس قدره، ولا يبتغي شيئا من تعريفهم قدره، سوى العلو والشهرة والفخار
ثم يوجه الشيخ الكلام إلى سائله ويقول: فلا تتبع من هؤلاء مدللا، أي لا تتبع من هؤلاء المدعين مدللا، وقد وصفهم بأنهم مدللون، لأنهم يعيشون حياة الدلال والترف
والمدلل هو الذي ينال كل ما يريد، ويلبي جميع رغباته؛ وأنشد شمر:
فإن كان الدلال فلا تدلي وإن كان الوداع فبالسلام

تتره أيها السائل عن أمثال هؤلاء المدللين، ولا تتبعهم، تتره عنهم بعزة ورفعة، لا تتذلل لهم، بل تذلل إلى المولى سبحانه، فهو يعزك بعزه، أليس هو العزيز الجبار

ومن لي معز عند ذلي وشقوتي، أي من لي غير ربي العزيز الجبار مقلب الليل على النهار، يرفع عني ذلي ويعزني، ويسعدني بعد شقوتي؟ والشقوة الشقاء والمشقة، وفي التتريل: "قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين". المومنون107

فإن لم تجد شيخا صادقا فناد مهيمنا، والمهيمن الله الواحد الأحد، وقل: يا إلهي، من سواك لحاجتي؟ أي أدعو الله تعالى كي يقضي حاجتي، فلا يقضي الحوائج سواه. فإن لم تهدني يا الله أضل في طلاب محال، أي في طلب ما صار عزيزا طلابه، وهو العثور على شيخ صادق، في زمان القطيعة، أي في زمان الجفاء والتقطع والتفرق. قال الله تعالى: "فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون". المومنون54

والعرب تقول: اتقوا القطيعاء. أي اتقوا أن يتقطع بعضكم من بعض في الحرب. وفي حديث صلة الرحم: "هذا مقام العائذ بك من القطيعة".

تقطعت الأسباب فاهد ضلالتي، وأرشدني إلى الصواب، ومن لي سوى ربي حسبي، أي يكفيني ما أنا فيه، وغنيتي، أي كفايتي، أغتني به وأستغني عما سواه.

وكن صادقا أيها السائل في دعوتك الله تعالى بأن يقضي حاجتك، ولا تهن، أي لا تفتر عن الدعاء، ولا تيأس من الاستجابة، يسخر لك المولى تعالى دليلا بسرعة، أي شيخا عارفا بأحوال الطريق، يدلك على مولاك، والدليل هو الذي يتخذه الركب إذا هم أن يوغل في الصحراء دليلا، يكون عارفا بطرقها وفجاجها ونخلها ومائها، حتى لا يتيهوا ويهلكوا في مهامهها

كما اتخذ رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عبد الله بن أريقيط دليلا عند هجرتهما إلى يثرب

قال الجعفي بعد ذلك: لابد لطالب طريق القوم من شيخ، كما لابد لطالبي جل العلوم من شيخ، ولا غنى لطالبي جل الحرف والصناعات عن شيخ

فكما أن للفقهاء شيوخهم، وللمحدثين شيوخهم، وللمفسرين شيوخهم، فكذلك لابد للمحققين من شيوخ

ومن رأى غير ذلك، وظن أن تحقيقا يدرك، أو علما ينال بغير شيوخ وأساتذة، فقد أخطأ وجه الصواب ووقع في الغلط

فإذا كان لا يتصور علم عالم لم يتتلمذ على يد أستاذه، فكيف يتصور تحقيق طالب تتلمذ لنفسه، ولم يتحقق على يد من يدله ويرشده ويربيه فيما يبتغي تحقيقه

كيف لا ننكر على من قال: شيخي ابن معين وشيخي مالك وشيخي الشافعي، وننكر على من قال: شيخي الواسطي وشيخي الجيلاني وشيخي الشاذلي؟ وكيف لا ننكر على من قال: أنا مالكي وأنا شافعي، وننكر على من قال: أنا جيلاني وأنا شاذلي؟

فكما أن الفقيه المالكي، ندعوه مالكيا لأنه يسير على نهج الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، في اجتهاده اعتمادا على أصول خلفها مالك وراءه، تهم استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية، منها الاستحسان والاستصحاب والمصالح المرسلة وسد الذرائع وعمل أهل المدينة

فإن الفقيه الشافعي، يتبع نهج الإمام إدريس الشافعي، ويستقي مما تركه من نظر واجتهاد في مذهبيه القديم والجديد، ولا يلتفت إلى مالك بن أنس

فما على السالك الجيلاني إذا اقتفى أثر شيخه مولاي عبد القادر الجيلاني، وجاهد نفسه وقهرها، حتى لا تحول بيته وبين الاجتهاد في الطاعات والعبادات

والأذكار، وأخذ بما ردده الجيلاني في فتحه، من قول الحسن البصري: يكفي المؤمن ما يكفى العنيزة، كف من حشف وشربة ماء، المؤمن يتقوت، والمنافق يتمتع؟

وما على السالك الشاذلي إذا سار على نهج الإمام أبي الحسن الشاذلي في سلوكه، وترك شدة المجاهدة والتقشف، ولم يضيق على نفسه ويحرمها ما أحل الله تعالى لها من طيبات، وعبد الله تعالى بالذوق والشوق محبة وإقبالا، لأن المحب لمن يحب مطيع؟

فإن الشاذلي يقول: ليس الرجل من دلك على تعبك، وإنما الرجل من دلك على راحتك. قاله في لطائف المنن

ولهذا اشترط القوم التلقي عن شيخ عارف بالطريق، ولم يتساهلوا في هذا الشرط، وجعلوا المعرفة منوطة به وقائمة عليه

وقد كانت المشيخة في زمانهم هبة من الله تعالى وكرامة يؤتاها من لا يطلبها. وكثير من المشايخ خرجوا للناس مرغمين، لم يخرجوا بأمر أنفسهم، وإنما بأمر الله تعالى، ومنهم من كبر عليه الخروج، فلم يخرج حتى هدد بالسلب

فهؤلاء الأبرار، لصدق إخلاصهم لمولاهم، وشدة تواضعهم وخوفهم من السمعة والاشتهار، وألا يكون عملهم خالصا لوجهه تعالى، من أجل ذلك استحبوا الحجاب على السفور والاستتار على الظهور

أما في زماننا، فقد صارت المشيخة حرفة تطلب، وإرثا يرثه الأبناء عن آبائهم وأجدادهم كالتراث

ليس من السهل العثور على الشيخ الموهوب المكرم، من أجل صحبته، بسبب ما ذكرته، وبسبب ما طرأ على الزمان من تبدل وتغير، فقد عاد العالم قرية صغيرة، كما يقال، فإذا كان الولي في الزمان الأول يخاف اشتهار حاله في قبيلة وقرية وحاضرة، فاليوم هو معرض للاشتهار في العالم أجمع عند الناس أجمعين،

صغيرهم وكبيرهم، عربيهم وأعجميه ومسلمهم وكافرهم؛ فما أجدر أولياء الوقت بالإمعان في التخفي والاختفاء. ومن أساليب اختفائهم ترك زيهم الذي يعرفون به، كالصوف والمرقعات، والاستعاضة عنه بزي غيرهم من عامة الناس.

ولا يغرنك تجمع الناس بكثرة وازدحامهم عل بعض من يدعون المشيخة في الزوايا والرباطات، فلا يقاس الحق بالرجال، وإنما اعرف الحق تعرف أهله، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه، وليس الحق هو كل ما اجتمع عليه، فكم من حق مغمور وكم من باطل مشهور

فلا تتبع هؤلاء الأدعياء قبل أن تعرض أقوالهم وأفعالهم على الكتاب والسنة، فإذا وافقوا فاتبع، وإلا فاهجر وانصرف إلى حال سبيلك

إذا وجدت شيخ الزاوية يطريه الناس ويبجلونه ويقبلون يديه ورجليه، وهو لا يعترض عليهم في ذلك، بل يعجبه ويحمده، فاعلم أنه ليس بشيخ

فهاهم أتباعهم يستمدون منهم، وهم النقص يشوبهم والضعف يعيبهم، فمن يستمد منهم لن يمدوه سوى بالنقيصة

وهاهم أتباعهم ينظمون القصائد الطويلة يتغنون بها في حضرتهم ويجذبون على إيقاعات أنغامها، وهم على الأرائك متكئون كالملوك في عروش بين حاشيتهم، وهاهم، أي المشايخ، يلزمون أتباعهم تقديم الدراهم والهدايا، كالمكوس والجبايات، ولا يتحدثون لهم عن الله، بل يحدثونهم عن خاصة أنفسهم، وعن علو مكانتهم عند الله تعالى، وعن تفضيل الله لهم عن سائر أمة رسول الله ﷺ، ولكن لا يحدثونهم عن المولى عز وجل، هاهم يدلون الناس على أنفسهم ويصدونهم عن مولاهم عدوا وبهتانا

أي شيخ هذا الذي يسعى جاهدا خلف الجاه والشهرة والاشتهار؟ أي شيخ هذا الذي أغناه الله تعالى من فضله، ولا زال يلزم الضعفاء من ذوي الحاجة من أتباعه بأن يجوعوا أنفسهم وينقصوا من قوت عيالهم ويعطونه؟ أي شيخ هذا

الذي لا يعود على أتباعه من الفقراء ببعض ماله، ولا يسألهم عن أحوالهم ويتفقد مطعمهم وملبسهم؟

إياك أيها الطالب، أن تتبع أحدا من هؤلاء المنعمين المدللين، بل ترفع عنهم، لا تعبهم ولا تعير منهم أحدا أو تنل منه بقول أو بفعل، ولكن دعهم وما هم فيه، أوكل أمرهم إلى الله تعالى يحكم فيهم بما شاء. " ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق، ألا له الحكم، وهو أسرع الحاسبين". الأنعام63

ارجع إلى الله، واشكه ما أنت فيه، ادعه بإلحاح المضطر، كي يدلك على من يرشدك للطريق إليه ويسخره لك، فحاشا أن يسلمك ربك للتيه وقد قصدته، لا تيأس من استجابته، ولا تقنط من رحمته، فلا بد أن يجيب سؤلك وينيلك مرادك، إنه هو الحليم الوهاب

ألا ترى إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، كيف شكا حيرته إلى الله لما تقطعت به السبل فقال: "لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين". الأنعام78

تأدب المريد مع شيخه

إذا ما وجدت الشيخ فارع ذمامه وكن خادما لا تعي يوما بخدمة
وسلم له أحواله في حضوره وكن حافظا في الغيب تحظ بوصلة
وإن تعترض تسلب أخي ولا تصل إلى مترل عال وتبقى بحفرة

ثم ينتقل شيخنا للحديث عن آداب المريد مع شيخه ويقول: إذا ما وجدت الشيخ فارع ذمامه، أي اعرف حقه عليك، فإن الإخلال بحق المشايخ موجب لذم الناس

والذمام: العهد والأمانة والحرمة

وكن لشيخك خادما تجري في أموره وتقضي حاجاته، لا تعي يوما بخدمته، وسلم له أحواله في حضوره، أي لا تعترض على ما تراه من أقواله وأفعاله في جميع أحواله، وكن حافظا في الغيب، أي لأحواله، تحظ بوصلة، أي واحفظ سره في غيبته ولا تتكلم فيه بما يكره تفز بوصلة وقربى إلى الله تعالى

قال: وإن تعترض تسلب أخي ولا تصل: أي وإن تعارضه أخي في أموره تسلب، أي يترع الله تعالى ما وقر في صدرك بصحبة شيخك من محبة الله تعالى، وصدق إرادة الوصول إليه وإرضائه. وقوله: تسلب أخي ولا تصل، أي إذا نزع الله تعالى الإيمان من قلبك، حبسك ذلك عن الوصول إليه، وقوله: أخي، بضم الهمز وفتح الخاء وتشديد الياء المفتوحة آخره، تصغير أريد به التلطيف

فإذا سبقت فيك عناية الرب سبحانه، وشملك برحمات ألطافه، وكنت ذا حظ عظيم، والتقيت بالشيخ المحقق والمرشد المربي والدليل المواتي، فاحمد الباري عز وجل، أن جعلك من السعداء الذين لا يشقى بهم جليسهم؛ وأحسن التأدب

مع شيخك، حتى تنال منه الرضا ويكرمك الله بتأدبك مع وليه، بأن يفتح عليك مما فتح به عليه من حكم وألطاف

فاخدمه واجر في حاجاته، ولا تأنف يوما من خدمته، ولا تعي من القيام بأعماله

فما أقل العارفين الذين أدركوا خيرا كبيرا بخدمة مشايخهم، وما أكثر التابعين الذين حرموا خيرا كثيرا بالقصور في خدمة مشايخهم

وسلم لشيخك واحفظ حرمته في حضوره وغيبته، حتى لا يسلمك الله إلى نفسك فترديك، وحتى يحفظ عليك الله ما استنارت به سريرتك، واطمأن به قلبك بفضل صحبة هذا العارف الحق

قال الجعفي بعد ذلك: حتى إذا ما وجدت الشيخ، بل حتى إذا ما وجدني الشيخ، وظننت أني وجدته، وسايرني في ظني، لزمته، بل لزمني وقال: "الزمني ولا تحد"، حتى أتيقن من أنني أنا الذي ألزمه

سألت شيخي ما يريد مني حتى يصح سلوكي، فقال: وما تريد مني حتى تسلك؟

سألت شيخي عما أفعل كي يقبلني، فقال: لو لم أقبلك ما سألت

سألت شيخي عن العقبة التي تحبسني عن الله، فقال: لا من عقبات في الطريق إلى الله، وإنما هي عواقب

قلت: ولكني لازلت أجد هذه العقبة؟

قال: ما تجد إلا نفسك

قلت: فنفسي عقبة؟

قال: نفسك عقبة لنفسك، فاحذر أن تكون عقبة لغيرك

سألت شيخي: ما بالي يراودني فيك شك وارتياب؟

قال: لأنك لا زلت مترددا على الأعتاب، لم تدخل بعد علي الباب، ولو دخلت أمنت وولى عنك الشك والارتياب

قلت: وفيم ترددي في الدخول؟

قال: لا زالت شموسك تحن إلى الأفول

قلت: وما الأفول؟

قال: الغوص في مستنقع الفضول

قلت: وما الفضول؟

قال: ما أمرت بتركه فأتيته، وما نهيت عن تركه فما أتيته

سألت شيخي: أريد أن أخدمك خدمة العبيد للأحرار

قال: الملوك تخدمهم العبيد، والعارفون يخدمهم الأحرار

قلت: فأين أنا في الفريقين؟

قال: الملوك والعارفون أم العبيد والأحرار؟

قلت: العبيد والأحرار

قال: فاجهد أن تكون من الأحرار

قلت: كيف لي بذلك؟

قال: إياك ألا تخدمني إلا عند الطلب، وإياك أن ترى لنفسك علي فضلا مهما خدمت.

قلت: أولست كذلك؟

قال: إذا خدمتني خدمة العبيد، خدمك العبيد؛ وإذا خدمتني خدمة الأحرار خدمك الأحرار، فانظر من يخدمك تعرف من تكون

سألت شيخي: ما أتيتك إلا مشتاقا، وما عدت عنك إلا إباقا، فما سر ذلك؟

قال: من أحبنا أتانا ولو حبوا، ومن قلانا دفعناه، حتى إذا رغب في أن يأتينا لم يقو

سألت شيخي: تراني مسلما لك فيما تقول وتفعل؟

قال: التسليم مقام لا يؤتاه العبد سوى إن صحح القصد

قلت: فكيف يكون ذلك؟

قال: بشكوى النفس إلى باريها

قلت: وكيف أشكوها؟

قال: بأن تفطمها قبل الأوان، وتوكل بها الواحد الديان، حتى لا يكلك إليها في آن من الأوان

سألت شيخي: ما ينفعني الشيخ في الوصول؟

قال: يطوي بك مهامه التردي إلى واحة القبول

قلت: حتى إذا طوى وأدركت الواحة؟

قال: يقرؤك أمارات السياحة

قلت: وما أمارات السياحة؟

قال: من استحقوا ترك الواحة والخروج إلى الساحة

قلت: وما الساحة؟

قال: بوادر الملكوت

قلت: وما بوادر الملكوت؟

قال: آفاق سفلى في عوالم تبلى

قلت: فإن خضتها؟

قال: تتيه بين اللوائح وتتقي بعض الفضائح

قلت: زدني بيانا

قال: يطلق سراحك ويزيد انشراحك

قلت: زدني

قال: تخرج عن الحوادث إلى ما هو حادث

قلت: زدني

قال: يزيد فيك الفضول، وتندم على الدخول

قلت: فإن كان مني ذلك؟

قال: لست هنالك، فلا تسل قبل أوانك

أمارات الشيخ العارف

فكيف تميز الشيخ من متمشيخ وتعرف من منهم تخص بصحبة؟
فذاك الذي تهوى القلوب سماعه ولا تصرف الأنظار عنه بلفتة
فمن يره في الحين أحببه ولا يبغض إلا للشقي المعنت
تلاقت به الأنوار من كل ساطع ودارت عليه الصادرات بحكمة
يسافر بالساعي إليه إلى السما ويرقى به عن سافلات تدنت
وليس الذي يبغي اشتهارا وسمعة وليس الذي يهوى ثناء بلفظة
خمول تخفى في ثياب لغيره كليلة قدر تخفت بعشرة
ومن ينظر الأشياخ يذكر ربه بهم يذكر المولى بأول نظرة
مصابيح في ليلاء أضحوا نجومها بهم يهتدي ركب سرى في سرية

ثم يقول: فكيف تميز الشيخ من متمشيخ؟ أي كيف تعرف الشيخ الحق من غيره من المدعين المتمشيخين الذين سبق الحديث عنهم؟ وكيف تعرف من هو صالح لصحبتك أو لتصحبه؟ ويشرع شيخنا في ذكر بعض أوصاف الشيخ الحق ويقول: فذاك الذي تهوى القلوب سماعه، أي تجد النفس راحة في الإصغاء إلى كلامه، وتطمئن القلوب عند سماعه، ولا تصرف الأنظار عنه بلفتة، أي ولا تكاد الأنظار تتحول عنه لبهاء منظره وحسن سمته، ولو بلفتة، وهي واحدة الالتفات

فمن ير هذا الشيخ أحبه وأحببه في الحين، ولا يبغضه إذا رآه إلا الشقي، من الشقاء والشقوة، المعنت، والمعنت من قبيل الشقي، وقد يراد بالعنت الهلاك، وفي التتريل الحكيم: "لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم". الحجرات7

هذا الشيخ، تلاقت به الأنوار من كل ساطع، أي التقت فيما بينها به، وكأنها على موعد، وكأنه أرض لقائها، تلاقت عليه آتية من كل ساطع مشرق،

ودارت عليه الصادرات بحكمة، والصادرات اسم فاعل من صدر يصدر صدرا وصدورا، إذا خرج وانبثق، وفي التتريل الحكيم: "يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم". الزلزلة6-7

ويقال: طريق وارد صادر، أي يرد فيه الناس ويصدرون، وقد عنى الشيخ بالصادرات التي دارت على الشيخ، ألطافا وعنايات ربانية، منها علوم لدنيات صدرت عن خزائن سر الفيض الرحماني بالحكم والمعاني

يسافر بالساعي إليه إلى السما، أي يسافر سفرا معنويا وليس حسيا، بقاصده والآتي إليه إذا استمع إليه، يسافر بروحه ويملك عليه نفسه، وينفحه بنسائم الخشوع والرضا، ويبلوه بالرقة والشوق إلى مولاه، وكأن السامع وهو معه، يغادر جسمه ويسافر فيما يفتح الشيخ به عليه، من حكم وعلوم وأسرار وفهوم، في عوالم لا تنتهي ولا توصف جمالا وجلالا، وبهجة وكمالا، وكأنه يرتقي به من حضيض الأرض إلى عنان السماء، ومن درك السفليات إلى ذرى العلويات، ومنه إلى الله تعالى، وذلك معنى قوله: ويرقى به عن سافلات تدنت، أي يترفع به عن كل سافل من الأفكار والشؤون الدنيئة، إلى كل عال من الفهوم والخلال الحميدة

وليس الشيخ هو الذي يبغي الاشتهار والسمعة، أو الذي يهوى الثناء، ولو أن يثني عليه أتباعه ويطرونه بلفظة واحدة

خمول تخفى في ثياب لغيره، وخمول مبالغة من خامل، وهو الخفي الساقط الذي لا نباهة له، يقال: هو خامل الذكر والصوت، قال المتنخل الهذلي:

هل تعرف المترل بالأهيل كالوشم في المعصم لم يخمل

ثم يذكر الأشياخ عامة ويقول: ومن ينظر الأشياخ يذكر ربه، أي أن من علامات الشيوخ الواصلين، أنك إذا نظرت إليهم ذكرت ربك، بهم يذكر الله

بأول نظرة، أي هم يذكرونك الله تعالى بمجرد ما تنظر إليهم نظرتك الأولى، لما ترسم على وجوههم من سيمى العارفين وجلال الصالحين

ويزيد المشايخ وصفا ويقول: مصابيح في ليلاء أضحوا نجومها، أي أن هؤلاء المشايخ أنوارهم كالمصابيح تضيء في دلجة ليلة ليلاء، أي شديدة الطول والسواد، وقيل: هي أشد ليالي الشهر ظلمة، كأنهم بإرشادهم ووعظهم ونصحهم وحسن تربيتهم، مصابيح تضيء للضالين ليلتهم الليلاء بدلجة المعاصي ووحشة البعد عن الله تعالى، ومثلهم وكأنهم أنجم يهتدي بهم ركب العصبة السارين في الظلمة، والسرى سير عامة الليل، وفي المثل: عند الصباح يحمد القوم السرى، وأصل السرية، جمع سرايا، الفرقة من الجند

قال الجعفي بعد ذلك: وحتى لا يلتبس عليك الأمر، فلا تميز بين الشيخ والمتمشيخ، فلا تعرف من تتبع منهما ممن تدع اتباعه، آن الأوان لكي أدلك على بعض أماراته، وأنعت لك ما لا بد من صفاته

إنه ذاك الذي يهواه كل من رآه أو استمع إليه وجلس في حضرته، وكيف لا يحبه الناس وقد أحبه رب الناس؟

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض". رواه البخاري

وكل من نظر إليه لا يطيق أن يحول نظره عنه، ففي النظر إليه والتملي في طلعته إيمان ونور وسكينة، ولا يبغض الشيخ إلا من سبق له الشقوة والعناء

وكأن الأنوار الساطعات، والإشارات اللائحات تلاقت عليه، وتجمعت به، فهو موطنها وملتقاها، ودارت عليه صادرات المعارف والألطاف، فهو قطب رحاها ومدار قصدها ومناها، ومعدن جلالها وبهاها

ومن سعى إليه واتبعه وسلم إليه أمره، خلصه من نفسه، وطهره من رجسه، وحرره من حبسه، وسافر به من أرض الذل والمهانة إلى سماء العز والمكانة، حيث يتبوأ منها حيث يشاء، من كل ما هو سام عن الدناءات، بعد أن ارتقى عن السفاسف والتفاهات، ورفل في قشيب حلل من سبقت لهم من الله الحسنى في رياض الرحمات، فلا يتمنى الرجوع، كيف وقد صار واحدا من بني الإنسان، بعد أن لم يكن له عنوان؟

وليس الشيخ بطالب جاه ولا راغب في مال، فمن أماراته التي لا تخطئ، خموله وكرهه للثناء والسمعة، ولذلك تجده متخفيا في ثياب غيره، أي لا يلبس ما سبق ذكره مما يدل الناس عليه، من لباس تقشف، وخميصة وأسمال، بل يلبس ثياب غيره من عامة الناس حتى لا يمتاز عنهم، يتنكر في زي غيره حتى لا يعرفه أحد

قال ابن عطاء الله: ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه وقال: يا سيدي، ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولباسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فاعطوني. انتهى من لطائف المنن

وقد تخفى المشايخ حتى لا يعثر عليهم إلا من هم أهل عند الله تعالى لصحبتهم والإفادة منهم، ومثل شيخنا تخفي الشيخ في الناس بتخفي ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك

ولعل النظر إلى الشيخ يذكر الناظر بربه

قال الألوسي: فقد أخرج ابن المبارك والترمذي في: نوادر الأصول، وأبو الشيخ وابن مردويه وآخرون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل: يا

رسول الله، من أولياء الله؟ قال: "الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى". أي لحسن سمتهم وإخباهم. انتهى[5]

عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا أنبئكم بخياركم؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل". رواه ابن ماجه

فبمجرد رؤية الشيخ تحضر الرائي محبة الله تعالى ويندم على كل معاصيه، ويصبح المعروف لديه معروفا ويمسي المنكر لديه منكر، يرى الأمور على حقيقتها، لا تلتبس عليه، فيتوب ويعزم على التصالح مع مولاه

إن الشيوخ العارفين الهادين المهتدين هم مصابيح الأمة، يضيئون لها في ظلمات الجهل والضلال، وكأهم نجوم في السماء في الليلة الليلاء، يضيئون للسارين الطرق والفجاج، حتى لا يضلوا في الصحارى والمهامه فيهلكون ظمأ وسغبا..

إهم أمان هذه الأمة وأمناؤها

ثم قال الجعفي: قال لي شيخي لما رشدت: ما أتيتني إلا صبيا عابثا، سمعتني أغني فأطربك الشجا

فلما وصلت حكيت لك حكايا الجدات للأحفاد، فلم تستطع عني فراقا

فلما اشتد عودك طفقت أقص عليك أقاصيص الأبطال، حتى تقت إلى البطولة، حتى إذا عدت بطلا اتخذت سيفا وكتيبة، وربما غنيت لتجمع حولك الصبيان وتجعل من بعضهم أبطال وأبطالا

لو ما هويت سماعي ما كنت في أتباعي ولا ساغ لك اتباعي

عندنا تتآخى الأنوار على مواثيق العنايات والألطاف

---

[5] روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني

حولنا تدور الصادرات من خزائن الأمان وهي لا زالت يانعة كزهر الأقحوان، يضوع أريجا في كل الأركان، يزكم الأنوف ويهيج الأشجان

في حضرتنا لما تحضر، نأخذك من نفسك إلى حيث لا تدري، نسافر بك إلى السماوات من الأرضين، ونرجعك إذا عاودك الحنين، ولا نعاودك سوى بإذن رب العالمين

ولسنا ممن يكثر بك جمعه حتى تمن علينا، ولسنا ممن يترأس على أمثالك حتى تدين لنا

ولسنا ممن يستهويه ثناؤك حتى تمدحنا

نحن يفزعنا الاشتهار، ولا نأبه للظهور في هذه الدار، والتفضل على أهلها بهذه المعارف والأسرار

دفنا أنفسنا تحت التراب، كي لا يزورنا غير الأحباب، وناديناهم من وراء السحاب، كي نلفت أنظارهم إلى رب الأرباب، فلا يجعلوا قبورنا مزارا، فليرتقوا في الأسباب

نحن عنوان على الباب، يعرفه الأحباب، من غير شك وارتياب

إذا قرؤوه أتونا، وإذا فهموه أتوه، وإذا أتوه كتبوا ما فهموه، وإذا وصلوا إليه، محوا ما كتبوه

اختبار من يدعي الكشف المبين

ومن يدع الكشف المبين جهارة فهلا يجب عما سألت بجهرة؟
فما بدأ خلق الله بعد انعدامه وكيف الفنا طي السجل لصفحة؟
وهل كان خلق قبل جن بأرضنا وهل كان رسل في قبائل جنة؟
وأخبر رعاك الله عن خلد زمرة فدون خلود خلدها إن تثبت
فمن هم رعاك الله إن كنت صادقا وما وصفهم إن ما أتيت بفرية؟
ملوك كبير ملكهم ما رأيتهم فما كبر ملك المالكين بجنة
وأخبر بأسماء تجلت بآدم؟ فإن كنت تدريها فلست بمفتت
وماذا تلقى من كلام بجنة فتاب عليه الرب من بعد فتنة؟
فإن كنت تدري ما سألت فأخفه وإن كنت لا تدري أتيت بكذبة
فمهما تراوغ لست تحظى بمنزل ويفضحك مكر الله بعد الدعاية

ثم يوجه الشيخ الخطاب إلى من يدعي أن الله تعالى فتح عليه بمنه وكرمه، وكشف له عن العلوم اللدنية، ويقول: ومن يدع الكشف المبين جهارة، أي من ادعى الكشف المبين منكم جهارة، أي جهرة في ملإ من الناس، وقوله: الكشف المبين، إشارة إلى أن الشيخ يقسم الكشف إلى صغير، ولا يسميه كشفا، بل يسميه فتحا ربانيا؛ وإلى كشف كبير، ويسميه كشفا مبينا، وهو قصده من كلامه؛ من يدعي أنه أدرك الكشف المبين، فليجبني عن أسئلتي، حتى يبرهن على ما يقول، وهي سبعة كما سوف نرى:

فالأول: كيف بدأ خلق الله تعالى، أي مخلوقاته، بعد انعدامه أي بعد العدم؟

والثاني: ما معنى قوله تعالى عن يوم الفناء: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين". الأنبياء103

والثالث: هل كان خلق قبل خلق الجن بأرضنا

والرابع: هل كان في قبائل الجن رسل وأنبياء منهم؟

والخامس: هناك زمرة، أي جماعة من المؤمنين، سيخلدون يوم القيامة في الجنة خلدا، وغيرهم يخلد خلودا، فما الفرق بين خلد هؤلاء وخلود أولئك؟ وهو قوله: فدون خلود خلدها إن تثبت، ودون بمعنى فوق. أخبرني عن الخلد والخلود إن تثبت، أي إن تثبتت فيما انكشف لك من مغيبات، ونقول: تثبت في الأمر واستثبت، إذا تأنى فيه و لم يعجل

فمن هم رعاك الله، إن كنت صادقا؟ أي فمن هم أصحاب الخلد إن صدقت في دعوتك وادعائك؟ وما وصفهم إن ما أتيت بفرية؟ أي إن ما كذبت فيما ادعيته، لأن الفرية الكذب، نقول: فرى فريا وافتراء أي كذب واختلق

ثم يقول، وكأنه يجيب عما سأل عنه قاصدا أهل الخلد: ملوك كبير ملكهم ما رأيتهم، أي أن أصحاب الخلد في الجنة سيكونون ملوكا، ملكهم كبير تشهد بكبره إذا رأيتهم، يرفلون في عز ونعمة من الله تعالى

ويشير بذلك إلى قوله تعالى: "وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق، وحلوا أساور من فضة، وسقاهم ربهم شرابا طهورا". الإنسان20-21

فما كبر ملك المالكين بجنة؟ أي كيف حازوا هذا الملك الكبير في الجنة؟

والسادس: ما هي الأسماء التي تجلت بآدم، أي علمه الله تعالى إياها. في قوله تعالى: "وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملايكة فقال أنبيوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين". البقرة30

والسابع: ما هي الكلمات التي بثت في روع آدم، في قوله تعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم". البقرة36

لما طعم من الشجرة المحرمة، فتاب عليه من خلقه من بعد فتنة، وهو رب العالمين، والمراد بقوله: من براه من بعد فتنة، أي من بعد ما خلقه وابتلاه

فإن كنت تدريها، أي هذه الأسماء، شهدت لك بالكشف المبين، و لم تعد مدعيا ومفتتيا، بل أنت الواصل المكشوف عليه

فإن كنت تدري أجوبة أسئلتي فأخفها عن الناس، وإن كنت لا تدري فأنت كاذب أفاق في دعوتك وادعائك، فالزم حدك، واعرف قدرك وتب إلى باريك، حتى لا يفضحك في الدنيا ويمحقك في الآخرة

قوله: فمهما تراوغ لست تحظى بمنزل، أي فمهما كذبت على الناس واحتلت عليهم وراوغتم، والرواغ الثعلب، يقال: هو أروغ من ثعلب

مهما تراوغ وتكذب على الناس، وتدعي ما ليس لك، ومهما صدقوك وانطلى عليهم احتيالك ومكرك، فلن تحظ بأي منزل عندهم، أي بمكانة في قلوبهم، ولا بمنزلة عند الله تعالى ودرجة علية، ولا بد أن يفضحك الله تعالى بعد ادعائك ودعايتك، والدعاية الدعوة إلى مذهب أو رأي بالكتابة والخطابة ونحوها

قال الجعفي بعد ذلك: كثير من المتمشيخين يدعون أن الله تعالى كشف عنهم الحجاب، وأسر إليهم بما لا يعلمه غيرهم من أمور ابتداء الخلق إلى يوم البعث والحساب

وقد ارتأيت وضع سباعية من الأسئلة، يتعرف بمعرفة أجوبتها أو جهلها، من أكرمه الله بالكشف، ممن ظن أن ما طرأ عليه كشفا، وهو ليس من الكشف في شيء

وقبله، نفرق بين كشف وكشف، كما هو مذهبنا، فثمة كشف أصغر وهو الأغلب، يرفع فيه الستار عن كثير من الأبرار، فيرون ويسمعون من أمور لا عهد لهم بها، ولا يدوم طويلا، وقد لا يعاودهم بالمرة، ونحن نسميه كشفا أصغر، وإن شئت، هو فتح رباني

وهناك الكشف المبين الذي يدوم أكثر من الأول، وقد يعاود صاحبه مرات ومرات، وقد يبقى مكشوفا ليلا ونهارا لا يفتر عنه ألبتة

والفرق بين الأول والثاني، هو أن من أكرمه الله تعالى بالكشف المبين، يرق قلبه وتزداد رحمته بالعالمين أجمعين، ويترامى بساط علمه حتى يصبح بحرا بلا سواحل، وتتهذب أخلاقه، وتصفو مرآة قلبه، ويفر منه الشيطان، وتمحق وساوسه وتنخذل نفسه ويهون هواه، لأنه وهو مكشوف، أشرقت عليه أنوار الهيبة والبهاء، فمحقت كل ما ترسب في نفسه من أكدرا، ومحت كل ما تربع على قلبه من صور وآثار. ومن ادعى الكشف المبين، فليجب عما وضعناه من أسئلة سباعية:

فأما سؤالنا الأول: فكيف كان ابتداء الله تعالى خلق الحوادث، بعد أن لم يكن غيره تعالى؟ فهو القديم الذي لم يسبقه عدم، وكل الحوادث مسبوقة بالعدم، وهو الباقي الذي لا يلحقه عدم وكل الحوادث يلحقها

قال الله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا". الكهف50

وفيه إمكان إشهاد الله تعالى غيرهم خلق السماوات والأرض

والثاني: وماذا يقصد الله تعالى بقوله في يوم الفناء: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين". الأنبياء103

والثالث: هل كان في الأرض خلق قبل الجن؟ والشيخ يرى أن الجن أسبق في الخلق عن الإنس، وليسوا أسبق إلى الأرض عنهم كما ذهب إليه الكثيرون، لأن الله تعالى، لما خلق آدم وسواه وجد إبليس لعنه الله تعالى قائما قبله، وإبليس من الجن، كما في قوله تعالى: "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه". الكهف49

والرابع: وهل بعث الله في قبائل هؤلاء الجن رسلا وأنبياء، كما بعث في قبائل البشر؟

والخامس: يكون يوم القيامة خلد وخلود، فالأول، نعني الخلد، يكون لطائفة مخصوصة من أحباء الله تعالى؛ والثاني، أي الخلود، يكون لعامة المؤمنين

فما هو الخلد، وما هو الخلود؟ وما يميز هذا عن ذاك؟

والسادس: وما المقصود بالأسماء في قوله تعالى: "وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملايكة فقال أنبيوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين". البقرة30

والسابع: وما هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه فتاب عليه، في قوله تعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم". البقرة36

فإن كنت تدري أيها الكاشف أجوبة ما سألت، فلا تخبر به أحدا، لأنه مما لا يخبر به، فقد يكون اطلاع عامة الناس عليه فتنة لهم في الدين، وإن كنت لا تدري، فلا تفتر على الناس، ولا تكذب على الله تعالى، حتى لا تخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين

فإنك إن كنت تبتغي بكذبك وادعائك المترلة عندهم، فلا شك أن الله يفضحك وينجلي حالك، ويعرف سحتك فيهجرك الناس وينبذونك وتهوي في مكان سحيق

القطب والهيئة

ودعني أخض في أمر قطب وهيئة إذا كنت لا تدري أمورا تأتت
فقطب الرحا ثم الإمامان بعده وسبعة أبدال وأوتاد خيمة
ومن يدعه غوثا تخالف قوله فلا غوث أولى من سراج النبوة
وما من نبيء كان قطبا فحسبه نبوءته أعلى المراتب حلت
وما كان قطب في زمان رسالة سماوية إلا رجال الولاية
فمنهم جريج ثم خضر وغيره وما كان قطب والحبيب بطيبة
ومن زاد أفرادا على ما ذكرته وأسماء سماها فمن غير حجة
فلا النجبا فيهم ولا النقبا سوى رجال تسموا فيهم أهل توبة
وما القطب إلا محور وسط دائرة تدور عليه الدائرات بدارة
يوازن بين الشرع والحق في الورى ويعدل بين اللجتين بخبرة
فلا تحسبوهم في كهوف مخيفة كما مثلوهم عاكفين بخلوة
ولو لم يكونوا بيننا ما توسطوا ومال اعتدال في العباد لكفة
فقد أخرجوا للناس قصد مهمة إذا شئت فانظر تلفهم في مهمة
ولا يدعون الفضل عمن سواهم فربي عليم بالخلائق فاسكت
فمالكم أكثرتم في نعوهم وما نعتهم إلا كنعت الأئمة؟

يقول: ودعني أخض في أمر قطب وهيئة، والمراد، فدعني أخض، بمعنى أباشر الكلام، والخوض من الكلام ما فيه الكذب والباطل. وفي التنزيل: "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره". الأنعام68

وأصل الخوض، من خاض الماء يخوضه خوضا وخياضا، إذا مشى فيه، وكأن الشيخ يقصد أنه سيباشر الكلام في موضوع ليس من السهل التحدث فيه، لأن

أمره خفي عن أولي النهى من العلماء والمحققين، وإنما سيخوض فيه كما خاضوا، ويقول مما بدا له فيه، وليس له ولا لهم دليل قائم من كتاب أو سنة، وإنما هو خوض في الكلام لا أقل ولا أكثر

وهذا الأمر الخفي المبهم، له تعلق بالقطب والهيئة، ويعني ما اصطلح عليه من القطب وهيئته، أي جماعته

إذا كنت لا تدري أمورا تأتت، أي إذا جهلت ما يتعلق بهذه الهيئة، من أمور تأتت، أي جاءت، ليس عن طريق العلم والتعلم، وإنما تأتت من روعنا، وفهمناها من بواطننا دون الحاجة إلى النظر في سفر وصحيفة

فقطب الرحا، تعبير مجازي يعني به رئيس هذه الهيئة وقطبها الذي تدور عليه، أي الحديدة التي تدور عليها الرحا

ثم الإمامان بعده، أي إماما القطب

وسبعة أبدال، قال في لسان العرب: والأبدال قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض، أربعون في الشام، وثلاثون في سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر، فلذلك سموا أبدالا. انتهى

وأوتاد خيمة، وهم أربعة رجال، سموا بالأوتاد استعارة تصريحية، صرح فيها بالمشبه به، وهو الأوتاد، لأنهم يشدون الهيئة كما تشد الأوتاد الخيمة كي تبقى قائمة

قوله: ومن يدعه غوثا نخالف قوله، أي أن من يدعو القطب غوثا نخالفه في ذلك، لأن الغوث هو الذي يستغاث به، وليس هناك من هو أولى وأحق بهذه التسمية من شفيع الأمة وكاشف الغمة ومجلي الظلمة، سيدنا رسول الله ﷺ، وأسماه سراج النبوة، والسراج المصباح الزاهر الذي يسرج بليل، والجمع سرج، قال سبحانه: "يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا". الأحزاب45-46

ثم يقول بأنه لا يليق تسمية الرسل والأنبياء بالأقطاب، فيكفيهم صلوات الله عليهم وسلامه، تسمية الرسالة والنبوة، عن تسمية القطبية، إذ الأولى أعلى وأشرف

ولم يتقدم قطب وهيأة في الأمم السالفة، وإنما كان هناك رجال صالحون، كجريج العابد، وعبد الله الخضر عليه السلام، وغيرهما

ولم يكن وجود للقطب والحبيب ﷺ حي يرزق بطيبة، وهي المدينة المنورة حرسها الله تعالى

ويعني بذلك أن الهيئة لم تبدأ إلا بعد وفاة النبي ﷺ، ومن زاد في أفراد الهيئة غير ما ذكره، أسماء أخرى غير القطب والإمامين والأبدال والأوتاد، فليس له حجة على ذلك

ومن المحققين من زاد عليهم النجباء والنقباء. والنجيب الفاضل الكريم السخي، والنقيب عريف القوم وشاهدهم وضمينهم؛ ولا يزيدهما الشيخ ضمن أفراد الهيئة، وإنما يجوز إطلاق النجيب والنقيب على كل ولي من الأولياء. ولكن هناك رجال التوبة، ولو أنهم لا يمتون إلى الهيئة بصلة، وليسوا ضمن رجالها

ثم يعود الشيخ ليخصص الكلام بالقطب ويقول: وما القطب إلا محور وسط دائرة، أي أن القطب هو محور دائرة أولياء الهيئة، شبهه بالمحور، وهو الحديدة التي بين الخطاف والبكرة، وهي أيضا الخشبة التي تجمع المحالة

ويقال للرجل إذا اضطرب أمره: قلقت محاوره، وأنشد ثعلب:

يا مي ما لي قلقت محاوري وصار أشباه الفغا ضرائري

يمثل الشيخ القطب بمحور ومركز وسط الدائرة، تدور عليه الدائرات بدارة، أي تحوم حوله وتدور دائرات على شكل دورة، بدارة، والدارة ما أحاط بالشيء. والدارة: دارة القمر التي حوله، وهي الهالة. وكل موضع يدار به شيء يحجزه، فاسمه دارة. وأنشد:

ترى الإوزين في أكناف دارها فوضى، وبين يديها التبن منثور

وتتمثل وظيفة القطب في الموازنة بين الحق والشرع، يقصد بين الشريعة والحقيقة في الناس، لا إفراط ولا تفريط، هو لسان الميزان، يعدل بين اللجتين أي البحرين، الظاهر والباطن، وهو مجاز لغوي، ولجة البحر حيث لا يدرك قعره

يعدل ويوازي بين الحقيقة والشريعة، ويعدل بين الظاهر والباطن بخبرة، أي على بصيرة وعلم وبرهان مبين

ثم يقول: فلا تحسبوهم في كهوف مخيفة، أي لا تظنوا أفراد هيئة الأولياء كما مثلهم لكم غيرنا، عاكفين على الذكر والعبادة، منقطعين متجردين عن الدنيا وأهلها، كيف يكون ذلك وقد أخرجهم الله تعالى للناس من أجل مهمة؟ وهي حفظ وسطية الدين ورعاية اعتداله، والمهمة جمع مهمات ومهام، وهي القضية التي تقتضي عناية وجهدا خاصا، فلا يمكن أن يقوموا بما تتطلبه مهمتهم وهم في الكهوف بمنأى عن الناس، فلا تبحث عنهم هناك، وإنما ابحث عنهم بين الناس حيث يقومون بمهمتهم

فلو كانوا متروين عن الدنيا وأهلها، زاهدين ناسكين، لخرجوا بذلك عن الاعتدال في الدين ولم يتوسطوا، فمن أين لهم أن يحفظوا وسطية الدين لدى الناس وهم لم يتوسطوا؟

وإذا لمال اعتدال الناس بميلهم، ورجحت كفة التشدد والمغالاة على كفة التسيب واللامبالاة

ومن خصال هؤلاء، وإن شئت من علاماتهم، إذ أن الشيخ بمعرض الدلالة عليهم، أنهم لا يرون لأنفسهم فضلا على الناس، فلا يعلم الأفضل من المفضول غير علام الغيوب، فاسكت واحفظ لسانك ولا تحكم على أحد بشيء حتى لا تقع فيما لا تحمد عقباه

ثم يلوم الشيخ كثيرا ممن بالغوا في أوصاف أهل الهيئة، وينكر عليهم مبالغاتهم، حين وصفوهم بصفات خيالية ونعتوهم بنعوت خارقة، ويقول: وما نعتهم إلا كنعت الأئمة، أي هم رجال كأئمة الفقه وعلمائه، يخدمونه ويجتهدون في أحكامه، كما يخدم أهل الهيئة السلوك ويجتهدون في مقاماته وأحواله.

قال الجعفي بعد ذلك: ما فتئ المشايخ في الزوايا، وما فتئ مريدوهم يتداولون إلى يومنا هذا، أمور هيئة الأولياء، هذه الهيئة التي يرأسها القطب، وتتكون من الإمامين والأبدال السبعة، والأوتاد الأربعة، ناهيك عما زخرت به كتب الأوائل من أحاديث وأخبار، حول هيئة الأولياء. فمن واصف لأفرادها، عاد لمهمة كل واحد منهم، وكأنه منهم وإليهم، ومن ذاكر ما قاله غيره؛ حتى أصبح من المستحيل غض الطرف عن ذلك وتجاوزه

ومراعاة من شيخنا لتبوء الكلام في الهيئة مجالا ليس بالضيق في كتب القوم ومحادثاتهم، ارتأى أن يخص في تائيته موضعا لكي يبدي رأيه في الأمر، ويبين وجهة نظره فيما قيل وفيما يقال في القطب وأصحابه

فممن تحدث في الأمر حتى أطنب، سيدي محيي الدين بن عربي الحاتمي رحمه الله تعالى، فما رأيت أجرأ منه رحمه الله تعالى، على الكلام في مغيبات عز إدراكها عن الأذهان والفهوم

ففي كتابه الفتوحات المكية، تحدث عن القطب وصفته ومهمته، وعن باقي العناصر وكأنه معهم؛ ويعتبر ما قاله مرجعا لكل من تحدث وكتب أو جادل وحاجج في الموضوع

ويليه في المرجعية، سيدي عبد العزيز الدباغ رحمه الله تعالى، فقد ذكر في الإبريز، الغوث والأقطاب واجتماع أهل الديوان عند غار حراء، وحضور رسول الله ﷺ، وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن، وغيره من أمور لم يخبر بها القرآن ولا السنة.

والذي يلفت النظر، هو كيف اتخذ الناس هذه الأقوال التي لا تقوم على حجة وبرهان، كيف اتخذوها وأخذوا بها على أنها من الدين، وهي ليست من الدين في شيء؟

وإذا سألت قائليها: أين قرأتموها؟ حتى تحدثوا بها على أنها حق لا يراجع؟ قالوا: لم نقرأها، فمثلنا في غنى عن القراءة، بل قراءتنا النظر في اللوح المحفوظ، وعلمنا لدني نتلقاه من الله مباشرة بالذوق في الوجدان

ولعمري، لو فتحنا هذا الباب، لقال وتقول كل من شاء، ما شاء، حقا كان أو باطلا، والتبست أخبار الشرع وآثاره، بأحاجي القائلين وحكايات المتقولين، وذهبت المحجة سدى، واندثر الدين وانقضى

فخذوا دينكم رعاكم الله عن صاحب الدين، خذوا دينكم من كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وخذوا دينكم، رعاكم الله، عن رسول أرسله صاحب الدين لكم، محمد الصادق الأمين ﷺ

"ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين". الحاقة44-47

ومن زاد عليكم في الدين ما لم يقله صاحب الدين، ولا جاء به رسول رب الدين، فردوه عليه، فإن اعترض، فتحاكموا وإياه إلى القرآن والسنة، فإن وافق فاقبلوه، وإن خالف فانبذوه، حتى تبقوا متدينين، وحتى يبقى الدين دينا

وها نحن نخلص إلى أمر الهيئة، كما عرفناها، وكما استقر بنا البحث والإمعان، والتقصي والبرهان، على بعض ما يتعلق بها مما يقبله العقل وتستسيغه الفطرة السليمة

تتكون هيئة الأولياء من القطب وإماميه وسبعة أبدال وأربعة أوتاد

ولا نسمي القطب غوثا كما سماه كثير غيرنا، ولكن نخص بتسمية الغوث رسول الله ﷺ

ولا نجاري من سمى رسول الله ﷺ وبعض الأنبياء، قطبا وأقطابا، فهي تسمية لم يسمهم الباري عز وجل بها، فيكفيهم أنهم رسل وأنبياء، لكي نسميهم أقطابا، أليس درجة النبوة أرقى الدرجات وأفضل المكرمات؟

ولا نجاري من قال أنه في عهد رسول الله ﷺ، أو فيما سلف من الأمم السالفة كانت أقطاب وهيئات، بل كل ما كان في السالف رجال صالحون، كجريج العابد وعبد الله الخضر عليه السلام، ولم يبدأ عهد الهيئة إلا بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

فإذا كان ﷺ، يمسك بزمام الظاهر والباطن، ويجمع بين الدنيا والدين، فمن ذا الذي يتصرف في الأمر، وهو ﷺ حي يرزق؟

وكل من زاد أسماء أخرى كالنجباء والنقباء على أسماء أفراد الهيئة، فلا دليل له عليه، وإنما جاز إطلاق مثل هذه التسميات على الأولياء عامة

ولكننا نقر بوجود رجال التوبة، وقيل أن عدهم تسعة وتسعون رجلا، والله أعلم بغيبه

وتتلخص وظيفة القطب، في أنه محور، كل شيء يدور عليه، وكأنه قطب الرحا، ولذلك سمي به، وهو يحفظ التوازن بين الظاهر والباطن، وبين الحقيقة والشريعة، وإن شئت بين الدنيا والدين، فلا مغالاة ولا إفراط، ولا تسيب ولا تفريط

وقد آن الأوان أيها الإخوان، وقد تبدل الزمان واستوت العقول والأذهان، أن نتخلص مما ورثناه، لا عن رسولنا الكريم ﷺ، بل عن رجال من الرجال، وإن كانوا رجالا، فهم رجال ونحن رجال، وإن كان لديهم مقال، فلنا مقال، فإذا خالف مقالنا مقالهم، فليحتجوا علينا بما قال ذو العزة والجلال، أو بما قاله الرسول المفضال ﷺ، في الحال

"قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون". الأنعام149

وإذا لم تكن لديهم حجة الأصفياء، من المحجة البيضاء، فما لهم قد أحدثوا ضجة بذكر هيئة الفقراء، فكما قالوا نقول، وكما صالوا نصول، في القول والاكتتاب، مالهم علينا من سبيل، وقد خانهم الدليل، وتقطعت بهم الأسباب

لقد آن الأوان أن نتخلص مما أفتاه علينا هؤلاء، من أمور الهيئة، حتى تصورنا أصحابها، وكأنهم ليسوا بشرا، يعيشون في الكهوف والمغارات الموحشة، ولا يأكلون ولا يشربون، عاكفين على الذكر والقيام، لا يفترون عن الركوع والسجود والصيام، عزفوا عن الدنيا، وهجروا الناس وانزووا عنهم في الأطراف، فلم يظهروا في البلاد ولو مرة، وإنما ذكرهم بعض الزهاد أن لقيهم على حين غرة، يسيحون بين الشعاب والوهاد، وهم هائمون في جلال الحضرة، يتصرفون في الطير والأنعام والجماد، بإذن رب القدرة، حتى إذا عرفهم أحد العباد، لا ذوا بالهجرة

فلعمري إذا كانت مهمة القطب والهيئة حفظ التوسط في الدين، فإن وصفهم الذي وصفوه، ما هو سوى تشدد في الدين، فكيف لهم أن يحفظوا الوسطية في الأمة وهم لم يتوسطوا، وكيف لهم أن يصححوا الدين ويصلحوه مما أحدث في طريق السلوك، وهم لم يتتلمذوا على يد شيخ معتمد، ولم يجلسوا في حلقات العلم والتحصيل مع الناس؟

إن عناصر الهيئة مصلحون، لا أقل ولا أكثر، ومن قال أنهم أعلى مترلة عند الله تعالى فقد كذب، لأنه ادعى أنه اطلع على الغيب

وقد لاحظنا بعض مجددي الدين من الفقهاء، كانت لهم تسميات وكان لهم هيئة، وإن اختلفت تسميات أفرادها عن تسميات أفراد هيئة الولاية

فهذا أبو حامد الغزالي حجة الإسلام، وهذا العز بن عبد السلام سلطان العلماء، وهذا عبد الحليم بن تيمية الحراني شيخ الإسلام، وهذا وهذا

فإن عددناهم أقطابا وبحثنا حولهم بين معاشريهم، فغالبا ما نعثر على أعداد توازي عدد الإمامين والأوتاد والأبدال

فما أفراد الهيئة حول القطب، إلا كأفراد أصحاب العالم الفقيه، الذين يكونون عونا له على ما هو فيه

وفي الختم أقوال أراها تضاربت ومن عد عيسى خاتما في النهاية
وقد أخطئوا لما رأوا في ختامها كمالا كختم الرسل خير البرية
فما ختمها بالدهر من كان آخرا ولكن بمن أبقت عليه وتمت
وعد الحكيم الختم آخر من قضى وزاعم ختم مات من بعد أمة
على قلب خير الخلق إن رمت خاتما يرد جموح الأولياء بهشة
يهون ما شقت ويبني انهيارها حنيفية بيضاء من غير شية
فتشرق في قوم كأول مرة وتيسر في التكليف من بعد عسرة
وما زاد فيها إنما أحبط الذي أتيناه فيها من حوادث رثة
حماها حفيظ من بداية بثها وجدد ما يبلى بختم فجدت
ومن شرط يوم البعث ختم إذا أتى فلا تنتظر واهرع لشعف وشعبة
سيختمها قطب الزمان بوقته بقوم تناسوا في ضلال وغفلة

يقول: وفي الختم أقوال أراها تضاربت، هنا يعرض الشيخ لموضوع يتعلق بخاتم الأولياء أو ما يسمى بختم الولاية

ويقول أن فيه، أي الختم، أقوالا تضاربت، اختلفت وتعارضت وتناقضت، تقول: تضارب القوم، إذا ضرب بعضهم بعضا

فهناك من عد عيسى عليه السلام، خاتم الأولياء، لأن الله تعالى سيترله بين يدي الساعة، بل هو من أماراتها وأشراطها الكبرى، كما هو معروف

ويقول: وقد أخطأ من رأى أن التقدم والأفضلية في ختم الولاية بأن يكون الخاتم هو آخر الأولياء موتا، كما تقدم وفضل رسول الله ﷺ غيره من الأنبياء والمرسلين، وحاز السبق لأنه ختمهم جميعا عليهم الصلاة والسلام

ولكن شيخنا يرى أن الختم لا يكون بالآخرية في الموت، وإنما الختم هو الذي أبقت عليه الشريعة وتمت، يعني ذاك الذي صححها ونقاها مما شابها، بقيت عليه حتى تقوم الساعة، ومن جاء بعده إنما اعتمد ما صححه ونقاه، فبذلك يكون طريقه ونهجه هو الخاتمة، وبذلك يكون خاتما، ولو أنه لم يكن آخر الأولياء موتا

وقوله: وعد الحكيم الختم آخر من قضى، يعني أن شيخ الأولياء أبا عبد الله، المعروف بالحكيم الترمذي، عد الخاتم آخر الأولياء قضاء وموتا، وقوله: وزاعم ختم مات من بعد أمة، أي كم من ولي ادعى وزعم أنه هو الخاتم، وأنه لا ولي بعده، وأنه آخر الأولياء موتا، ولكنه لما مات وقضى، بعد أمة أي فترة من الزمان، كما في التنزيل: "وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة". يوسف45

أي بعد فترة

قلنا: هذا الذي ادعى أنه الخاتم، ماله بعد فترة من موته وقضائه، جاء أولياء غيره وبعدهم غيرهم إلى يومنا هذا؟

ثم يسترسل في وصف القطب، ويقول: إذا شئت أن تعرفه، فاعلم بأن قلبه على قلب خير الخلق ﷺ، أي على هديه وسنته، يرد جموح الأولياء بهشة، أي يصوب جموحهم وميلهم عن الحق، وتقول: فرس جموح أي حرون مندفع مستعص على راكبه

يرد ميل الأولياء عن الجادة بهشة، أي برفق، وكأنه راع يرعى الأولياء ويرعاهم "قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي". طه17

يهون ما شقت ويبني انهيارها، أي أن الختم من مهامه أنه يهون ما تشدد فيه الناس في الدين، ويبني ما انهار مما فرطوا فيه وتساهلوا في أحكامه

حنيفية بيضاء من غير شية، يعني حتى تعود الشريعة الإسلامية حنيفية بيضاء، من غير شية، والحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، وهو الإسلام، "ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا". الحج76

وقوله: من غير شية، أي نقية بيضاء لا أمارة فيها وهي الشية. وفي التتريل: "مسلمة لا شية فيها". البقرة70

وفي الحديث الشريف: "تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك".

فتشرق، أي الديانة، في قوم وتنتشر كأول مرة، وتيسر في التكليف من بعد عسرة، أي وتتيسر بعد أن شددها قوم وعسروها على الناس

ثم يقول أن الختم في تجديد الدين، لا يزيد فيه شيئا، ولا يبتدع ما ليس منه، وإنما يحبط ويبطل ما أتاه الناس فيه من حوادث رثة، أي بالية مبتذلة

وقوله: حماها حفيظ منذ بداية بثها، أي أن الله تعالى حمى الديانة وصانها، منذ أن أخرجها للناس، حتى إذا طال الأمد على الناس، وأبلوها ونسوها، بعث لهم من يجددها لهم لتتصحح وتجد

ثم يقول: ومن شرط يوم البعث ختم إذا أتى، أي أن خروج الختم يعتبر علامة من علامات الساعة، فهو لاشك يكون في زمان الفتن الذي أخبر به رسول الله ﷺ، فإذا حل زمانه، فلا تنتظر واهرع، أي أسرع لشعب وشعفة، والشعب ما انفرج بين جبلين، والشعفة، جمع شعف وشعاف وشعوف، وهي رؤوس الجبال، وقد قصد بذلك: اقصد الشعاب والشعوف، هربا بدينك من الفتن

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم، غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن". رواه البخاري

قال الجعفي بعد ذلك: تضاربت الأقوال في خاتم الولاية، كما تضاربت الأقوال في هيئة الأولياء

فياليت شعري، ما شأننا والخاتم، وقد شرفنا بخاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام؟ وما شأننا وهيئة الأولياء وقد شرفنا بصحابة رسول الله ﷺ ؟

يا ليت شعري، ما بالنا نبحث في أشياء لم يخبرنا بها شرعنا الحنيف ونقول بألسنتنا زورا وافتراء؟

"ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا". الإسراء36

والذي جعل بعض العارفين يولون اهتماما لخاتم الأولياء، اعتقادهم أن ختمة الولاية تكون بآخر الأولياء موتا، فإذا مات فلا ولي بعده، في حين أنه لا ميزة ولا تقديم في آخرية الموت

ولكني أرى أن ختم الولاية لا يكون بالزمان وآخرية الموت، ولكن خاتمها هو آخر من جدد طريق السلوك وصفاه مما لحقه من أكدار تخرج به عن هدي رسول الله ﷺ السالك الأول الذي على سلوكه المعول

قلنا: خاتم الأولياء هو الذي وضع منهجا قويما يجدد فيه الدين وييسره، ويعيده إلى أصله، وبقي منهجه هذا يسير عليه الأولياء وينهلون منه عذبا سلسبيلا إلى أن يأتي الله بأمره، فهذه هي الختمة، وذاك هو الخاتم

وقد ألف شيخ الأولياء أبو عبد الله الحكيم الترمذي كتابا أسماه: ختم الأولياء، بين فيه أن ختم الأولياء هو آخرهم موتا، وقال آخرون: بل هو عيسى عليه السلام الذي سيترل آخر الزمان، وسيسمى وليا ولو أنه رسول الله تعالى، لأنه سيترل في أمة محمد ﷺ، ولا نبي بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإنما عيسى ولي في أمته

وإذا كان عيسى رسولا في قومه، فقد نسخ الهادي البشير، ما سبق من شرائع وديانات سماوية

بل إن هناك أولياء، منهم من ادعى أنه هو نفسه خاتم الأولياء، لكن بعد موته عرف الزمان أولياء غيره، ومنهم من هو أشد منه ولاء وأكثر قربى

إن ختم الولاية الذي يوازي بين الحقيقة والشريعة، يجب أن يكون على هدي رسول الله ﷺ، يوجه الأولياء إلى الاعتدال في السلوك، يصدهم عن الباطل ويحسهم إلى الحق، برفق وحكمة

وهو لا يزيد في الدين شيئا، بل ييسر ما عسره الناس، ويثبت ما تساهل فيه الناس. القطب مصلح ومجدد الدين

وانظر، رحمك الله تعالى، إلى عظم رحمة الرحمن الرحيم بالعالمين، وكيف بعث فيهم رسول الله ﷺ بقرآنه الكريم، يوضح لهم سبل الفلاح، ولما طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما ذكروا به، وفتر إيمانهم ويقينهم، لم ينسهم ولم يعذبهم، بل بعث ولا زال يبعث فيهم على رأس كل مائة سنة من يجدد لهم دينهم

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ولا أعلمه إلا عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". رواه الحاكم في المستدرك

ولعل ميقات خاتم الولاية آخر الأزمان، وهو زمان الفتن كقطع الليل المظلم، كما أخبر به النبي ﷺ، فإذا حل وحللت فيه، فاعلم أن الخاتم أمارة من أمارات الساعة، فاهرع بدينك إلى حيث لا تفتتن، فإن أرض الله واسعة

وفي الأخير يقول الشيخ: سيختمها قطب الزمان بوقته، وبذلك يفرق، بين القطب مجردة، وبين قطب الزمان مضافة، وهو قطب الأقطاب إذا شئت، وأكملهم وأعرفهم بأحوال الناس وبما يصلحهم ويصلح لهم

بقوم تناسوا في ضلال وغفلة، أي أن قطب الزمان يختم الولاية في زمان هو زمان الفتن، هو آخر الأزمان وشرها، زمان تناسى فيه الناس أكثر ممن سبقوهم، تناسوا دينهم، وتناسوا الغاية من خلقهم، يموج بعضهم في بعض، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وتكالبوا على المحرمات وتنافسوا في الموبقات، وتباهوا بمجاهرة الله تعالى بالمعاصي والآثام

عهد الصبا

تنصل رعاك الله مما ألفته وعد للصبا تلحق برشد الفتوة

تقرب إلى مولاك يغنك قربه ويكفيك شح النفس من غير محنة

فما أنت في الدنيا خلقت مخلدا ولكن لأمر ما خلقت وغاية

فأوكل أمور النفس لله كلها فمهما تجاهد لست تحظى بنصرة

فلا الصوم يثنيها ولا الجوع رادع إذا ما طغت يوما ومالت لشهوة

يقول: تنصل رعاك الله مما ألفته، أي اخرج مما ألفته، وأصل النصل جمع نصال، حديدة السهم والرمح، وهو حديدة السيف ما لم يكن لها مقبض، فإذا كان لها مقبض فهو سيف، يقال: أنصل السهم ونصله: أي جعل فيه النصل. والمقصود هنا بتنصل، أي اخرج، يقال: نصل الحافر، أي خرج من موضعه، اخرج مما ألفته من عوائد وطبائع لا تليق بكرامتك وعلو شأنك، بما شرفك الله تعالى من تقديم وخلافة، وكأنك سيف ينسل من غمده

يقول الشيخ أبو يزيد البسطامي: خرجت من بايزيديتي، كما تخرج الحية من جلدها. انتهى

وعد للصبا تلحق برشد الفتوة، كناية عن الفطرة والصفاء، أي عد لصباك، وعد لفطرتك، عد لبراءتك وسلامة قلبك كما هو حال الصبيان، عد صبيا

فإنك إن عدت سليم القلب كما هو حال الصبية، أدركت رشد الفتوة ولحقت بركب الفتية الراشدين، يعني إذا تنصلت من عوائدك وعدت لفطرتك التي فطرك الله عليها، وعرفت علة وجودك، فقد رشدت واكتمل عقلك واستنار فهمك

تقرب إلى المولى يغنك التقرب إلى مولاك عن التزلف لغيره، ويكفيك نفسك من غير أن تجاهدها فتجهدك، وتغالبها فتغلبك

"ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". الحشر9
فما أنت في الدنيا خلقت مخلدا، ولكن الله خلقك لهدف وعلة سامية
"وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون". الذاريات56
فأوكل أمور نفسك كلها إلى الله تعالى، فمهما جاهدتها، فلن تنتصر عليها
ومن دعاء النبي ﷺ: "اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين".
فإن النفس لا يثنيها الصوم والجوع عن خبثها وميلها إلى الخبائث، إذا طغت ومالت للشهوات

قال الجعفي بعد ذلك: ما أحوجك إليه سوى لتدعوه فيستجيب، فما بالك خذلك الناس، وما فتئت تستجديهم فلا يجودون وتستعطفهم فيقسون؟ ولم تعي من استجدائهم ولم يعيوا من شحهم، ولم تعي من استعطافهم، ولم يعيوا من قسوتهم، وما خطر ببالك من إذا سئل أعطى، ومن إذا دعي أجاب، من لا يرد من جاءه وهو يسعى
لم يخطر ببالك ربك الحليم الغني الوهاب
عبدي، هذه أبوابي لا أوصدها في وجه عبادي، فما بالك تطرق أبواب غيري؟ أبوابا غلقت في وجهك، ولا تفتر عن الطرق، ولا يفتر أهل الدار عن تركك طارقا
عبدي، هذه أعتابي لا يبقى عليها زائر، كل زواري يلجون علي ولا يستأذنون، فما بالك أقمت على أعتاب قوم لا يقبلون الزائرين؟
عبدي، ألست أنا ربك حتى تسأل غيري؟ ألست أنا الغني حتى تطمع في غيري؟ ألست أنا حبيبك حتى تعشق غيري؟ ألست أنا حاميك حتى تستغيث بغيري؟ ألست أنا وليك حتى تجاور غيري؟ ألست أنا نجيك حتى تفضي لغيري؟ ألست أنا وكيلك حتى تتكل على غيري؟

عبدي، ألست من يعصيني حتى لا أعذبك؟ ألست من ينساني حتى لا أؤنبك؟ ألست من يعرض عني حتى أقبلك؟ ألست من لا يستحي مني حتى أراعيك؟ ألست من يبارزني حتى لا أهزمك؟ ألست من يغفل عني حتى أذكرك؟ ألست عبدي حتى لا أحبك وأرحمك وأكرمك؟

صاحبي، أخرج إلي ولا تبق رهين الطوالع والغوارب، ترقب شموسها وأقمارها، تلاعب نهاراتها وتعاني لياليها وهي لا تنقضي

اخرج من رتابة الشروق والغروب، ولا تبق في أوطانك كالغريب، متى أشرقت يتوق إلى الأصيل، ومتى غربت حن للضحى

عندنا تتكسر الأضواء على ما دجا من نفوس أمثالك، فينتشي هنيهة، ثم يغرق في دجاه؛ ولو نظر إلى مصدر ما تكسر لتفطن واعتبر، ولكن رضي بأنات وحشته وآهات دجاه

عندنا يلتم شمل الأحرار، بعد طول حبسهم في هذه الدار، ونعيش الكرامة صيدا، كل يوم يكون لنا عيدا

عندكم جحافل الأماني تغزو قوافل التهاني، تحسها إلى شؤمها حسا، بالمواويل والأغاني

عندكم تندرج الندامة في سلك القرون، وتجثم الملامة على صدر ما كان وما قد يكون أو لا يكون، من تافهات الشؤون

ليس لي مما تشاطرني فيه غير بعض السراب، حسبته زلالا، وثلة من الأصحاب، عهدي بهم رجالا، وتلة بين الهضاب، علوتها اعتلالا

وليس لي غير قصة أرويها للصم والبكم في وحشة واغتراب، وأبي وأمي تحت التراب، وشوقي وهمي للأحباب

وليس لي من هذه الشاهقات في ناظريك، غير شهقة دوت في صدري أسفا على ما سبق به الكتاب

غير ربقة أدمت عنقي، وقيد في معصمي، يؤلمني، وخاتم في أصبعي يذكرني بحكمي، أيان كنت أميرا، وغير كأس من شراب

فارفق بحالي، إن لي من هواك زفرة ونحيب، أنت الموالي وأنت الحبيب، مللت انتحالي شخوص الغيوب، وريش الغداف في جنح الليالي وشكوى الغريب، بمنفى الحلال، وكم من ذنوب جناها اختلالي، ولا من رقيب.

بطنت فأظهرت لي ما عرفت في ظهوري من ألغاز وأساطير، خلتها حكايا في صحائف سودها خيالات القرون

وأبديت لي لما بدأت، نهايات ختمتها من قبل أن تبدأ، لما اختتمت، لكي أنهيها في تناهي أحبتي وانتهاء السنين

وأطلعتني لما انكتمت على أسرار خلافتي وخلافي واختلافي، فتخلفت عن أمري ونهيي، خلافا لما ظننت في جهلي بأحكام الظنون

وهم كالشهود

أأشهدت ما أشهدت مما حسبته لعمري سراب ليس ماء بقيعة

فما أنت إلا نائم في خبائه يظن الرؤى حقا ونومه يقظتي

فلا حق غير الحق فاقنع بباطل رسوم وأوهام تموه لعبتي

ودين وأحكام وكفر وردة وسوق قد اكتظت ومن بعد فضت

فسبحان من أخفى حقيقة خلقه بما قد تبدى للورى عين خلقة

قوارير تغري بالجمال أناسيا ممردة من حسن سبك وصنعة

فلا تحسب العيش الذي في قصورها سوى سكرة عادت عليك بتهمة

تخال الذي تسعى إليه ببهوها فتلقى به من مومسات تزيت

تعال أريك الكون أول مرة تراه كما أرساه أول وهلة

تعال نجاري عارجات إلى الفضا تطير بلا ريش إلى حيث حطت

وأنت بديع من طيور غريبة ترفرف لكن لا تهم بقفزة

ولو تدر أن الطير يعلو محلقا شعرت بحبس ما مشيت بخطوة

أنا هائم في كنه سر بلا هدى تطوحني ريح تصابت وهبت

أنا ريشة يلهو بها كف عابث تطير وتهوي في الفضاء بروعة

أنا مثل حلم في الكرى مر عابرا بفكر معنى فاستراح للحظة

وديني حب لا أدين بغيره فما من حلال أو وجوب وحرمة

كفرت بنفسي أن غدوت غريمها ولم أحتكم إلا لأعداء غرتي

فإن شئت أن ترقى فحاذر مخاوفا تشد تلابيب الصقور بهدبة

وجاور عميدا في الهوى ليس يرعوي يموت ويحيى كي يعيش لموتة

أغادر أوهاما تقض مضاجعي وأسكن أطلالا بروعي وعرة

يقول: أأشهدت ما أشهدت مما حسبته، يسأل ويقول: أأشهدت ما أشهدت، ويقدم همز الاستفهام على فعل أشهد مبنيا للمجهول، برفع أوله، يعني هل أريت فعاينت ما أشهدت مبنيا هو الآخر للمجهول، أي ما أريت فعاينت؛ وشهد الشيء بمعنى عاينه بل حضره، فهو شاهد، والشيء مشهود، وقد عبر الشيخ وبنى الفعل للمجهول، يريد أن يقول بذلك أن الله تعالى هو الذي أشهده ما شهد، وقوله: مما حسبته، بفتح المثناة الفوقية، أي حسبته أنت وظننته شهودا وهو ليس بشهود، إنما هو سراب، والسراب الآل، وقيل: السراب الذي يكون نصف النهار لائطا، أي لاصقا بالأرض وكأنه ماء حار

فما حسبت أنت أنك أشهدته من وهم، هو سراب وليس ماء بقيعة، والقيعة جمع قاع، والقاع ما انبسط من الأرض، وفيه يكون السراب نصف النهار.

وهذا التمثيل مأخوذ من قوله تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب". النور38

فما أنت إلا نائم في خبائه، والخباء واحد الأخبية، وهو من الأبنية ما كان من وبر أو صوف، ولا يكون من شعر، قال طرفة بن العبد:

وتقصير يوم الوجن والدجن مخدر ببهكنة تحت الخباء الممدد

يقول الشيخ: يظن الرؤى حقا ونومه يقظتي، أي وأنت نائم في خبائك تظن ما تراه من رؤى في منامك حقا، وهي ليست كذلك؛ أما أنا، وأنا مسيقظ، فأعلم أن ما أراه في يقظتي واستيقاظي ليس حقيقة، وإنما هو كرؤية من الرؤى التي تراها في منامك، لا أقل ولا أكثر، فكأنني وأنا مستيقظ نائم مثلك، وكأن نومك يقظتي. وفي الحديث: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا".

فلا حق غير الحق فاقنع بباطل، يعني كل ما تراه في هذا الكون، ما هو بحق، وإنما هو مجرد وهم، وما ثمة سوى حق واحد لا حق سواه، وهو الله الواحد

الأحد الحق المبين، فاقنع بهذا الوهم الباطل الذي تراه وتعيشه على أنه حق، فمالك عنه من مناص. قال لبيد بن ربيعة العامري:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

رسوم وأوهام تموه لعبتي، أي ما هذا الواقع إلا رسوم، أي آثار وأوهام، تموه، أي تلبس وتنكر لعبتي، كأن الواقع ما هو إلا لعبة متلبسة ومتنكرة في رسوم وأوهام، كي تظهر وكأنها حقيقة. قال الباري جل شأنه: "**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون**". الأنعام33

ودين وأحكام وكفر وردة، وسوق اكتظت أي غصت وامتلأت بالناس، ثم فضت، أي انفضت وخلت بعد اكتظاظها بتفرق ما فيها من الناس

وفي الحديث: "الدنيا سوق قام ثم انفض، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر".

فسبحان من أخفى حقيقة خلقه، بما تبدى وظهر للناس وكأنه عين الخلقة، أي كأنه شخوص وأطياف حقيقية

قوارير تغري بالجمال أناسيا، يعني أن ما زخرت به هذه الدنيا من مناظر، ما هو إلا قوارير، أي زجاج رائق شفاف يغري بجماله ورونقه وشفافيته أناسيا، والأناسي نسبة للإنسي وهم الناس. وفي التنزيل الحكيم: "**ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا**". الفرقان49

ممردة، أي القوارير، من التمريد، وهو التمليس والتسوية، من حسن سبك وصنعة، أي هذه القوارير مسواة مملسة من حسن سبك وإتقان صنع، من سبك الذهب والفضة، وهو تذويبه وإفراغه في القوالب. وهو مأخوذ من قوله تعالى: "**قال إنه صرح ممرد من قوارير**". النمل45

فلا تحسب العيش الذي في قصور هذه الدنيا، التي تتراءى لك على أنها حق وليست كذلك، لا تحسب العيش الذي في قصورها، سوى سكرة، لما صحوت

منها وجدت نفسك وقد عدت بتهمة، والمراد أنك عشت في الدنيا غافلا، وكأنك سكران، قد لبس عليك الأمر والتبس، ولم تراع ما خلقت لأجله، فلما مت عدت بالأوزار والآثام، وهي المراد بالتهمة

تخال الذي تسعى إليه ببهوها، أي تظن أن ما ترومه من أمانيك هو في بهو هذه القصور، والبهو ما اتسع من الدار، فلا تجد في هذا البهو سوى مومسات، أي فاجرات جهارا، هذه المومسات تزيت بأثواب وحلل الشرف والفضيلة، وهي لبست كذلك، وليس ذاك زيها

تعال أريك الكون أول مرة، يعني تعال معي أريك الكون وأطلعك عليه وهو على حقيقته، وكأنك تراه أول مرة، فإنك لم تره من قبل، رغم ظنك أنك رأيته مرارا

سأريك هذا الكون على حقيقته كما أرساه وثبته مولاه أول وهلة

تعال نجاري عارجات إلى الفضا، أي تعال نصعد ونرتقي بمحاذاة عارجات، أي صاعدات مرتقيات إلى الفضاء، هذه العارجات التي تطير بغير ريش وأجنحة، سنجاريها ونطير بصحبتها إلى حيث ستحط وتنزل

ثم يقول: وأنت بديع من طيور غريبة، أي يا صاحبي، أنت بديع خلقت على غير مثال، وأنا أعجب لأمرك، أنت طير من طيور غريبة، ترفرف بأجنحتها وهي على الأرض، ولكنها لا تهم يوما بالقفز لكي تطير، ولو أنها قادرة على الطيران

ولو كانت تدري، أي الطيور، أن الطير مثلها يعلو ويحلق في السماء، لشعرت وهي تمشي وكأنها حبيسة في الأرض

أنا هائم في كنه سر بلا هدى، أي أنا هائم وسائح على وجهي، في كنه سر بلا هدى، وكنه كل شيء قدره ونهايته وغايته، وقوله: بلا هدى، معناه أنني

أهيم في كنه سر، ولا أعرف هذا الكنه ولا أعرف أين أهيم وفيم أهيم.
وأنشدوا:

وإن كلام المرء في غير كنهه لكالنبل تهوي ليس فيها نصال

وقوله: تطوحني ريح تصابت وهبت، أي وأنا هائم لا ألوي على شيء، تطوحني ريح تصابت، أي تشبهت بريح الصبا، وهبت هبوبها، والصبا ريح معروفة تقابل الدبور

أنا ريشة يلهو بها كف عابث، وكأنني وأنا أهيم بغير هدى ولا تدبير، كأنني ريشة يلهو بها كف عابث، إضافة وليس وصفا، أي يعبث بها دون قصد ولا غاية، هذه الريشة من شدة خفتها تطير مرة إلى الأعلى وتهوي مرة إلى الأسفل، ولا تلوي على شيء بجمال ورشاقة وروعة

أنا مثل حلم في الكرى، أي في النوم، مر عابرا، أي مر بسرعة ولم يلبث مليا، هذا الحلم بفكر رجل معنى، من العناء، يريد رجلا أرهقه العياء وأجهده، فلما رأى هذا الحلم العابر فرح واستبشر وارتاح من عنائه لحظة واحدة

وديني حب لا أدين بغيره، أي لا أعتنق غيره، فما من حلال أو وجوب وحرمة، وهي من أقسام الحكم الشرعي الخمس عند الفقهاء، يقصد أن دينه حب الله تعالى، هذا الدين لا أحكام فيه، بل هو يسر وانسياب

كفرت بنفسي أن غدوت غريمها، أي لم أعد أؤمن بنفسي ولم أعد أثق بها حين غدوت غريمها، أي خصمها

ولم أحتكم إلا لأعداء غرتي، أي لم أعد أحتكم إليها وأستشيرها في أموري، بل أحتكم وأستشير أعداء غرتي، أي أعداء نفسي. والغرة الغافلة غير المجربة، يريد أنه لم يعد يحتكم إليها ويرجع إليها في أموره، لأنها غافلة غرة، إذا أخذ بحكمها وإشارتها أوقعته في المهالك. ويقال: كان ذلك في غرتي، أي في حداثة سني وغفلتي

فإن شئت أن ترقى، أي إلى السماء، فحاذر، بمعنى احذر، مخاوفا، وهي كل ما يخوف

ويقول ما معناه: إذا شئت أن ترقى بنفسك إلى الفضائل والمكرمات، فاحذر مخاوفا، هذه المخاوف، تشد تلابيب الصقور بهدبة، أي تحجز الصقور بشدها عن الطيران

والتلابيب جمع تلبيب، يقال: أخذ بتلبيبه، إذا جمع عليه ثوبه الذي هو لابسه عند صدره، وقبض عليه يجره، يريد أن هذه المخاوف تشد تلابيب الصقور حتى لا تطير بهدبة، واحدة هدب، وهو خمل الثوب، يعني أنها تشد بهذه الصقور رغم قوتها بخملة رفيعة، وتحجزها عن الطيران

والصقر جمع أصقر وصقور، وهو كل شيء يصيد من البزاة والشواهين

وأنشد ابن الأعرابي:

كأن عينيه إذا توقدا عينا قطامي من الصقر بدا

يقول الشيخ: وجاور عميدا، يقصد عميدا من الهوى، والعميد من الهوى هو المريض منه، ليس يرعوي، أي ليس يخاف ولا يهمه شيء، يموت ويحيى، ليعيش في حياته من أجل أن يموت

أغادر أوهاما تقض مضاجعي، أي أترك أوهاما تمنعني النوم والنعاس لما ينشغل بها فكري. ويقال: أتاه خبر قض مضجعه، بمعنى شغله وأزعجه

قال: وأسكن، تطابقا مع أغادر، أطلالا بروعي، أي بقلبي، وهو موضع الروع والفزع، هذه الأطلال التي بقلبي وعرة، أي موحشة، والوعر، الموضع الموحش المخيف

قال الجعفي بعد ذلك: لا تحدثني عن شهودك، فمتى كان لك شهود وأنت موجود، ولا شهود في الوجود؟

ما شهدته وهم وسراب في ذاكرتك

فماذا لو شهدت ما شهدت، وأنت لم تشهد ما شهدت؟

أنت مجرد مسترسل في نومه ونعاسه، يرى أضغاث أحلام، يحسبها حقا، وما نحن يتأويل الأحلام بعالمين

أما أنا، فكأن استيقاظي نوم، فلما لم أعد مستيقظا شهدت ما لم تشهده في نومك، وإنما تهيأ لك وأغراك

فيقظتي منامك ونومك يقظتي

تحدثني عن الحقائق، وما هنالك سوى حق واحد لا حق سواه

فاربع على نفسك، فما ثم إلا أباطيل وأوهام، تتراءى للناس وتغري السامعين

ما ثم إلا لعبة وصبيان يستهويهم اللعب. "إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان". النجم23

سوق عمرت وتكالب الناس فيها على السلع، فلما آذنت الشمس بالمغيب تفرقوا وخلت منهم السوق، أصبحت قفارا كأن لم تغن بالأمس، لا يدري معمروها لم تكالبوا وفيم تفرقوا

فما أعظم الخالق الوهاب، كيف أخفى حقيقة الخلق بما يظهر للناس عين الخلق؟

فقد زينها الباري عز وجل وزخرفها ونمقها، حلوة خضرة تغري أولي الألباب من شدة زينتها وبهائها، حسناء يسبي حسنها أولي العزم من الرجال

إياك إياك أن تستهويك قصورها فترفل في النعيم وتنسى ما خلقت لأجله، حتى تأتي الساعة وقد فرطت في الأجدى وأمعنت في الأدنى، لما همت عن الحق وحرصت على الباطل

لا تجعلها جنتك، لا تتخذها أرضا للبقاء، فقد تمثل القبح فيها بالحسن وتزيي الفسق بحلل التقوى والجلال

تعال أطلعك على حقيقة الكون، فليس الكون كما تراه، ستراه معي كما هو دون تمويه

عندها ستيأس منه وتتوق إلى خالق الأكوان، تعال نخرج عن هذا الهرج والبهرج ونجاري عارجات إلى الفضاء، بلا ريش وبلا أجنحة، ولا نترل إلا حيث نزلت، في ربوع من المحال

كيف تلزم الأرض ولا تطير معي؟ لا تكاد عنها تحيد، أنت طائر ما رأيت مثله، في طيور غريبة لا تغادر الأرض، لا تعرف أنها تطير، ويوم تعرف أنها قادرة على الطيران، ستشعر أنها كانت من قبل على الأرض مقيدة حبيسة

لا تسألني عن شؤوني، فلم يعد لي اختيار ولا تدبير، وإنما تطوحني الأقدار كريشة خفيفة تطوحها الرياح، تعلو تارة وتهوي تارة أخرى، بلا حول ولا قوة.

أنا مثل حلم سعيد، رآني رجل متعب مكروب، لم يحظ في عمره بلحظة بهجة وسرور، رآني في منامه هنيهة فأفرحته فسر وابتهج، ثم غادرته كي لا أعود

لا تسألني عن ديني، فديني المحبة، لا أدين بسواه، لا أعرف ما تعارفتم عليه من ألفاظ واصطلاحات، جعلت منكم أناسا يسجدون في تجاويف الحروف

ما عدت أؤمن بنفسي، خاصمت نفسي وعاديتها، فحسبي ما ورطتني فيه من مهالك

وإذا شئت أن ترتقي معي إلى الأعلى، فانزع عنك خوفك وتوجسك، فما مخاوفك وتوجساتك، إلا خيط رفيع يشد رجالا كالصقور إلى الأرض حتى لا تطير

ابق قريبا مني، فإني من شدة هواي لم أعد أخاف شيئا، الحياة والموت عندي سيان

أغادر دنياكم التي ظننتموها حقا وما هي كذلك، وأسكن ما ظننتموه هدما وأطلالا موحشة في روعي

لأني في هذه الأطلال، لا أكون إلا أنا

شهدت وقد غبت الإله بحضرتي برمت بذكري في بوادر غيبتي
أتذكر ربا ليس يخفى عن الورى تواريت عن مولاك من خلف سترة؟
جأرت تنادي حاضرا يسمع الندا ولو كان همسا بين صبين فاخفت
فإن كنت أعمى فاذكر الله جهرة وسرح لسانا قد عقلت بغيبة
لسانك إن يذكر فؤادك سامع وأذنك إن تسمع فؤادك ينصت
فإن كان زورا يصبح القلب قاسيا وإن كان حقا يحتمله برقة
تحاش ذنوبا أورثتك مهانة فما مذنب يحظى بعز بمهنة
وحافظ على مرآة قلبك صحوة لتعكس أنوارا كصفحة بركة
مرايا القلوب الخاشعات قد اشرقت بما قد غشاها من بهاء وأغشت
ومن يك مربدا فليس بمشرق سوى في ليال كالحات بحلكة
تمد صحونا محدثات لواهب شرابا نقي اللون من صنع نحلة
تطهر وطهر من إنائك شائبا تجده مليئا من عطايا المشيئة
وأسرج بليل من فيوضات نوره ولا تقتصر ليلا على نور شمعة

يقول: شهدت وقد غبت الإله بحضرتي، أي شهدت لما غبت عن نفسي وحضرت مع الله تعالى، شهدته سبحانه

برمت بذكري، أي مللت وضجرت من ذكري في بوادر غيبتي، أي في بدايات غيبتي عن نفسي، لم أعد قادرا على ذكر الله تعالى بلساني، لأنني عدت أشهد حضوره، فكيف أذكر حاضرا لا يغيب؟

كيف تذكر ربا ظاهرا ليس يخفى عن عباده؟ فإذا حسبته خفيا عنك، فهو لا يخفى، وإنما ذاك لأنك أنت الذي تواريت عنه واختبأت واستترت خلف سترة، أي بما يحجبك ويسترك عنه

جأرت تنادي حاضرا يسمع الندا، من جأر يجأر جأرا وجؤارا، وهو رفع الصوت مع التضرع والاستغاثة. قال سبحانه: "**حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون**". المومنون65

والمراد: جأرت ورفعت صوتك تنادي ربك وتستغيث به وهو قريب منك، لا تحتاج إلى رفع صوتك لكي يسمعك

ألا تعرف أنه يسمع الكلام ولو كان همسا ونجوى خافتة بين الصبين، أي العشيقين اللذين يتناجيان بأصوات خافتة خوفا من أن يسمعهما الرقيب، ولو كان كلامهما ونجواهما همسا خفيفا، فاخفت ولا ترفع صوتك ما دام ربك سميعا قريبا

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على واد، هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: "يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده". رواه البخاري

فإن كنت أعمى فاذكر الله جهرة، ويقصد بالعمى عمى البصيرة، ويريد: إن كنت بعيدا عن الله تعالى، لا تشهد حضوره، فلا عليك أن تذكره جهرة لكي تسرح لسانك بتعويده على الذكر الكثير، فاجعله إذن بذلك رطبا بذكر الله تعالى، فطالما قيدته وربطته بغفلتك وغيبتك عن الله تعالى

متى ذكر لسانك الله تعالى، فقلبك يصغي إليه، ومتى سمعت أذنك ذكر الله أنصت إليه فؤادك؛ فإن كان ما تقول وتسمع زورا، والزور الكذب والباطل، أصبح قلبك قاسيا، وإن كان ما تقول وتسمع حقا، احتمله قلبك وأشربه برقة وخشوع، وهي مقابلة بين المعنيين

تحاش ذنوبا أورثتك مهانة، أي اجتنب ذنوبا وآثاما ترتكبها وتأتيها، عادت عليك بالذل والمهانة، فلا يحظى بعزة في أي مهنة رجل مذنب خطاء، ويظفر بها بذنوبه وأخطائه

قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

قال الشيخ: وحافظ على مرآة قلبك صحوة، أي ارع قلبك وراقبه، حتى تبقى مرآته صحوة صافية، فهذه المرآة الصحوة الصافية ستعكس الأنوار الرحمانية، وكأنها وجه بركة صافية من الماء، حين تعكس ضوء القمر في إحدى ليالي اكتماله.

مرايا، جمع مرآة، القلوب الخاشعات قد اشرقت، لما عكست ما انتابها وغشاها من بهاء، حتى أغشت بما عكست من أنوار وغطت كل نور غير نورها

ومن يك مربدا فليس بمشرق، يعني ومن كان قلبه أسود مربدا، فمن المحال أن يشرق، والربد لون بين السواد والغبرة. وفي حديث حذيفة حين ذكر الفتن: "أي قلب أشربها صار مربدا". وفي رواية: "مربادا". من أربد يربد، وتربد اربدادا.

من كان مربدا من مرايا القلوب، فلن يشرق سوى في ليال كالحات، أي شديدات الظلمة والوحشة، بحلكة، أي بسواد وظلمة، ليزيد سواد الليالي سوادا، ووحشتها إيحاشا

تمد صحونا محدثات لواهب، أي تمد صحونا جمع صحن، وهو آنية الطعام، لواهب وهو الذي يهب ويعطي، إلا أن هذه الصحون محدثات اسم فاعل مكسور الدال، من الحدث وهو ما يوجب الغسل الأكبر من الجنابة، والمراد: تمد صحونا مدنسات متسخات، للذي يهب ويعطي شرابا نقي اللون، مقابلة

تطابق مع محدثات، من صنع نحلة، وهو شراب العسل. قال سبحانه: "يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس". النحل69

تطهر من الذنوب والآثام، وتطهر من جنبات غفلاتك، واغتسل من حدث جناياتك؛ وطهر إناءك المتسخ الدنس، الذي تمده للذي يهب العسل النقي الصافي، وهو لا يرضى أن يهرق العسل في إنائك المتسخ، فإنك إن طهرت إناءك فسيجود عليك به، وترجع بهذا الإناء مليئا من عطايا المشيئة، وهي مواهب وكرامات صاحب المشيئة الكريم المتعال

وأسرج بليل من فيوضات نوره، من السراج وهو المصباح، والمراد: أي اتخذ نورا من فيوضاته تعالى، وهو نور الأنوار، الفائضة والمستفيضة، ولا تقنع في ليلك بالاقتصار على الاستضاءة بضوء شمعة خافت ضئيل لا يكاد يبين

قال الجعفي بعد ذلك: ماذا وقد أشهدتني في حضرتك؟ وشهدت على روعة سر خلقتك؟

تخفي عن الناس سنا طلعتك وكل ما في الكون من صنعتك

وتقول لي بلسان الأنس والسلام: تخلص من سبحتك

ذكرنا من قبل ولم ندكر، وتلونا ولم نزدجر، وتهجدنا ولم نعتبر، وصمنا ولم نقتصر

ولما شاء الحق أن يريح منا السكنات من فضول الإشراف، ويعيد شاردات الفترات على جوامع الائتلاف، ويكفي تجشم السكرات إيلام الإسراف، هتف بنا باسم الجلالة بأجراس الألطاف، فشبنا وهرمنا في لحظات

كلفنا بالذات وأنسينا الأوصاف، وطفنا نداري ما أخذناه من الروح عن فضول نفس تفشي أسرارنا للعذول، ونتهيأ لتقويض ما شيدنا من صروح، ونعتلي سفوح الجبال، لا نبالي بما يغدو ويروح على مرأى ومسمع

لم تعد تربكنا الآفات والأهوال، في أي حال من الأحوال؛ فلا تقل: يا صاحبي، ما خطب الشموس لا تشرق على ربوعي؟ وما بال القطر يطفئ شموعي؟ وقد دخلت جنتك أيها المهووس بالشمس والظل والماء، في عز الهزيع، تمشي وتدوس على الشقائق في أوج الربيع

هاك باقة من الشموس، زين بها أربك، ووارفات الظلال تلقها عني كوابيس كوابيس، انشرها بساطات على ما ترامى مما غربك، وبير أشقها في صخور الوطيس، اسكنها الشرب المعين من غير قداح ولا كؤوس، اسق منها ظامئات هم أربكك

وهاك كل ما عندي، مما ليس لي، وإياك إذا وهبتك ما تريد، أن ترد علي مواهبي وعطائي

بناء ولايتي

تشعشعت المرآة نورا فأخمدت أوار لهيب في نفوس تشهت
فلا نور إلا نوره في سرادقي ولا ضوء إلا ضوؤه تحت جنحتي
تلألأ وجه قد ألفت وجومه بما قد تراءى من ضياء وألفة
ونفسي تداعت من بناء ولايتي وروحي تباهي بالبناء أحبتي
وإبليس قد ولى وغادر جنده فلولا تخلت عن غرور وفرت
تذكرني شهبا تصد استراقها فمن يقترب يرجم دحورا بجمرة
تعززت بالمولى فصلت مهابة وما عدت أخشى من خصومي بصولتي
أشتت جيشا قد تدجج في الوغى أساجله من غير سيف ولأمة
فمن كان للمولى يكون له ومن يكن للهوى يمسي هويا بهوة
لجأت لربي موقنا باستجابة فمن لي مجيب ما جأرت بخلوتي؟
فلا تغرني بالعبد أرجو نواله فكل فقير للغني بلقمة
ألا لا تكلني للعبيد وأغنني بفضلك عنهم ما شكوت بعلتي
أتلجؤني للناس أرجو عطاءهم وأبوابهم في وجه عبدك سدت؟
رفعت إلى زيد وعمرو خصاصتي فردوا سؤالي واستهانوا بغصتي
خزائن ربي ليس تنفذ بالعطا وما عند غير الله يفنى بقلة
أتتركني بين الورى متكففا وتنسى حبيبا يا غني بعيلة؟
وقد قسمت أرزاقهم قبل خلقهم فلا خوف من رزق يضيع بقسمة
بسطت الأيادي لست أخشى ملامة أنا عبد سيد باسط منه بسطتي
فيا أيها الفاني تريد لي العطا فزد مم لم يقسمه ربي بحصتي
فمن يعبد الباري رجاء نعيمه ومن يعبد الباري اتقاء للفحة
فلو لم تكن نار ولا جنة ولا وعيد ولا وعد لضن بركعة
فحسبي أحباب رجوا وجه ربهم ولم يسألوني أجرة عن محبتي
فأولئك الباقون ما مات غيرهم وأولئك الناجون في يوم حسرة

يقول: تشعشعت المرآة، ويقصد مرآة قلبه الخاشع الصافية المشرقة، أشرقت بأنوار الله تعالى، كما أشار إليه آنفا

ومعنى تشعشعت، انتشر ضوؤها في كل الأرجاء، فأخمدت وأطفأت أوار لهيب في نفوس تشهت، أي أطفأت أوار لهيب، بضم أول أوار، وهو لفح النار ووهجها، في نفوس تشهت، والتشهي اقتراح شهوة بعد شهوة، وإن شئت هو توالي رغبات النفس وتتابع نزواتها، والمراد شدة اشتهائها وحدته

فلا نور إلا نور الله تعالى في سرادقي، والسرادق ما أحاط بالبناء، جمع سرادقات، ولا ضوء إلا ضوء الله تعالى تحت جنحتي، والجنحة ظلام الليل واختلاطه

تلألأ وجه قد ألفت وجومه، أي شع وجهي بالأنوار كحجر اللؤلؤ صفاء وبهاء، هذا الوجه الذي لم يكن صافيا ومشرقا من قبل، بل كان الوجوم له سجية، والواجم الذي يكتم الغيظ والغيظ ظاهر على وجهه، هذا الوجه، ألفت وجومه من شدة طول وجومه حتى اعتدت عليه، وقد تلألأ اليوم بما تراءى له وغمره من ضياء وألفة

ونفسي تداعت من بناء ولايتي، استعارة مكنية، لأنه مثل نفسه وكأنها حائط تداعى، أي خرب وأذن بانهيار، أمام رسوخ وقوة بناء ولايته لله تعالى، وروحه تباهي وتفاخر، ببناء ولايته الثابت، أحبته وأحبابه

وإبليس قد ولى وغادر جنده، أي أن إبليس لعنه الله تعالى، قد فر خوفا مما أنا فيه من ولاية ربي العظيم، فانزعج مهابة وانسحب تاركا جنده، هؤلاء الجند من الشياطين انهزموا وأضحوا فلولا وتخلوا عن كبرهم وغرورهم، أن لم يجد لهم شيئا

تذكرني شهبا تصد استراقها، أي أن هذه الشياطين الفارة الناكصة على أعقابها، يذكرني منظرها وهي كذلك، بمنظر الشياطين التي تلوذ بالفرار وقد

رجمها الباري عز وجل بالشهب الثواقب، لما حاولت استراق السمع من الملإ الأعلى. قال سبحانه: "وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين". الحجر17-18

فمن يقترب لاستراق السمع يرجم دحورا، أي دفعا وإبعادا رغما عنه، تحسه الشهب التي إن أصابته هلك بإذن الله تعالى

يقول شرف الدين البوصيري في بردته:

وبعد ما عاينوا في الأفق من شهب منقضة وفق ما في الأرض من صنم

حتى غدا عن طريق الوحي منهزم من الشياطين يقفو إثر منهزم

كأنهم هربا أبطال أبرهة أو عسكر بالحصى من راحتيه رمي.

تعززت بالمولى سبحانه، فصلت مهابة، أي وكأنني في غمار الحرب، سطوت ووثبت على عدوي

وما عدت أخشى من خصومي بهذه الصولة والجولة، التي جعلتني لا أخاف ولا أهزم

أشتت جيشا قد تدجج في الوغى، أي أهزم جيشا حتى يتفرق ويتشتت أجزاء غير منظمة هنا وهناك، هذا الجيش قد تدجج في الوغى، والوغى من أسماء الحرب، وتدجج بمعنى لبس سلاحا تاما ولم يغفل منه شيئا، من بيضة ودرع وغيره

أساجله، أي أناجزه وأجاريه في القتال، من غير سيف ولأمة، واللأمة الدرع، أساجل هذا الجيش وأقاتله بغير سيف ولا درع، وأنا متجرد من سلاحي

وفي حديث وهب: "خرج داود مدججا في السلاح". أي عليه سلاح تام

قال عنترة:

إن تغدفي دوني القناع فإنني طب بأخذ الفارس المستلئم

واستلأم الرجل، إذا لبس ماعنده من عدة

وفي حديث جابر يرفعه: "ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل".

فمن كان للمولى بأن والاه وأطاعه، يكون الله له، بأن ينصره ويرضى عنه ويرضيه، ومن يكن للهوى، بأن يتخذ إلهه هواه، أمسى هويا، أي ساقطا، بهوة، أي واقعا في حفرة

"ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق". الحج29

لجأت إلى ربي ولذت به، موقنا بأنه سيقبلني ويستجيب لي، فمن لي غير الله تعالى مجيبا، إذا ما جأرت، أي صرخت مستغيثا بخلوتي؟

فلا تغرني بالعبد أرجو نواله، أي لا تمنني بالطمع فيما في أيدي العبيد، يعطونني النوال، وهو الفضل والعطاء

فكل العبيد فقراء إلى الله تعالى الغني، ولو بلقمة واحدة

"يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد". فاطر15

يقول: ألا لا تكلني للعبيد وأغنني، يخاطب هنا الله تعالى بقوله: ألا لا تكلني، أي لا تتركني متوكلا ومعولا على العبيد يرزقونني ويطعمونني.

وكيف تلجؤني إلى الناس أرجو عطاءهم، وهم متى سألتهم سدوا أبوابهم في وجهي، ودفعوني وامتنعوا عن رزقي وإطعامي؟

رفعت إلى زيد وعمرو خصاصتي، أي شكوت إليهما، والمراد شكوت إلى الناس عامة، خصاصتي، أي حاجتي وكربتي، فردوا سؤالي واستهانوا بغصتي أي لم يعيروها أي اهتمام، والغصة، تقول: غصصت بالماء أغص غصا، إذا شرقت به، ووقف في حلقك فلم تكد تسيغه

ومثل الحاجة بالغصة، لشدة وطئها على المرء، وكأنها غصة واقفة في الحلق، توقف مصالح المرء وشؤونه وشؤون عياله

فكيف تسلمني للناس، وكيف أطمع فيما عندهم، وخزائنك يا رب لا تنفد ولا تنقص، مهما أعطيت من آلاء ونعم وأفضال؟ وما عندهم يفنى وينقضي ما أنفقوا منه النزر القليل

"ما عندكم ينفد، وما عند الله باق". النحل96

أتتركني يا إلهي أتكفف الناس، والتكفف السؤال بمد الكف، وفي الحديث: "لأن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس".

وتنسى حبيبا يا غني بعيلة، أي وتنسى حبيبك ياغني بفقر وحاجة، والعيلة من عال عيلا وعيلة، بمعنى افتقر. وفي التتريل: "وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله". التوبة28

وقد قسمت أرزاق الورى قبل أن يخلقوا، فكيف يضيع رزق قسمه الباري عز وجل

بسطت الأيادي لست أخشى ملامة، عن الجود والكرم، ويقصد أنه بسط أياديه بالجود والإحسان، لا يخاف لوما ولا عتابا من أحد

أنا عبد سيد باسط منه بسطتي، يعني وإن كنت بسطت يدي بالجود والنوال، لا أخشى ولا أراعي لوما، فذاك لأنني عبد سيد من أسمائه الباسط، وكأني اتصفت بصفته في بسطه، فبسطت يداي كما بسط. وفي التتريل: "بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء". المائدة66

والباسط هو الذي يبسط الرزق لعباده ويوسع عليهم بجوده وكرمه

فيا أيها الإنسان الفاني الذي تريد أن تعطيني، إنك لا تستطيع أن تعطيني شيئا، كيف تعطيني ما لا تملك؟ فهل تقدر على أن تزيدني شيئا لم يقسمه ربي في حصتي ونصيبي؟

ثم ينتقل إلى موضوع آخر ويقول: أن من الناس من يعبد الله تعالى رجاء وطمعا في نعيمه، ومن الناس من يعبده تعالى اتقاء، أي مخافة لفحة ناره، نقول لفحته

النار تلفحه لفحا، إذا أصابت وجهه، ففي التتريل الحكيم: "تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون". المومنون105

ولفح النار حرها ووهجها

فلو ما خلق الله الجنة والنار، ولو ما كان وعد ولا وعيد، أي وعد بالجنة، ووعيد بالنار. قال ابن سيده: وفي الجنة الوعد والعدة، وفي الشر الإيعاد والوعيد

يقول: فلو لم يخلق الله تعالى الجنة والنار، ولو لم يكن هناك وعد للمطيعين بالجنان، ووعيد للمخالفين بالنيران

لو ما كان ذلك، فإن الذين يعبدونه طمعا في جنته، وإن الذين لا يعصونه خوفا من ناره، إنهم، أولئك وهؤلاء، الطامعين والخائفين، سيضنون، بمعنى يبخلون، ولا يعبده أحد من الفريقين، ولو بركعة واحدة

يقول: فحسبي أحباب رجوا وجه ربهم، وكأن الشيخ يحكي عن الله تعالى ويقول: يكفيني من عبادي أحباب ما عبدوني سوى رجاء وجهي، وحبا لذاتي، ولم يسألوني أجرة عن هذه المحبة

فأولئك الباقون ما مات غيرهم، أي أولئك الذين يبقون لبقاء ذكرهم، أولئك الذين ما خلقت السماوات والأرض إلا من أجلهم، وأولئك الناجون يوم الحسرة، وهو يوم القيامة

"وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الامر وهم في غفلة وهم لا يومنون". مريم38

والحسرة شدة الندم، أعاذنا الله منها بمنه وكرمه

قال الجعفي بعد ذلك: عجبت لحالي ولا زلت من أمري في عجب، أهكذا يكون من صفا قلبه من الأكدار فلم تعد صورة تستهويه وتتربع على قلبه، ولم يعد هم فيه مقيما؟ ما عدت أحس وما عدت أرى سوى أنوار تلألأت بين يدي

وعن يميني وعن شمالي، أنوار تغشاني وتغشى جميع الظلمات التي كانت تتراءى لي أنوارا، فإذا هي على حقيقتها، ظلمات بعضها فوق بعض

أصبح وجهي طلقا بشوشا، كصفحة ماء تحت أديم السماء الصافي، يحكي ما في قلبي من أنس وألفة وسلام

ها قد رضيت بعد سخطي، وها قد أمنت بعد روعي، وها قد تحررت بعد رقي، وها قد رشدت وترزنت بعد غفلتي واستهتاري... ها قد عدت إنسانا.

حتى نفسي تداعت كالبناء القديم، لم يعد لها وجود في وجداني، وشأن بفكري وأفكاري، محقتها مهابة ولايتي، وأذلها عز هدايتي، فعرفت قدرها ولزمت حدها.

أما الشياطين التي كادت تكون علي لبدا، فقد انهزم زعيمها لعنه الله تعالى واندحر، فر هاربا لا يلوي على شيء، وهو يقول: "إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب". الأنفال49

فر اللعين تاركا جنده من الشياطين ترميهم الشهب من كل جانب دحورا

لما تعززت بالمولى شتتت جيوش الظلام، جيوش تدججت في سلاح الإذلال والقهر، كم أذلتني وقهرتني، كم أفزعتني وأرعبتني، ساجلتها بغير حسام، وبغير سلاح، بل بقدرة الله السميع العليم

"فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى". الأنفال17

من ينصر الله تعالى ينصره الله، ومن يخذل الله تعالى انخذل

كيف ألجأ لغير مولاي وهو السيد الذي خزائنه لا تنفد؟ كيف ألجأ لغير سيدي وهو يشتاق لسؤلي أكثر مما أشتاق لاستجابته، لا يمل مهما ألححت، ومن سألت من العبيد يردني ويخذلني؟

أألجأ إلى الناس وهم الفقراء إلى الله جميعا، والله هو الغني؟ كيف أخاف على رزقي وقد قسمه الله لي منذ الأزل؟

سيرزقني ويرزقني، وأنفق باسطا كفي يمينا وشمالا، سرا وجهارا، ليلا ونهارا،

سأنفق إنفاق من لا يخشى الفقر

سأنفق إنفاق عبد في مال سيده الكريم

سأنفق إنفاق عبد ربه الله

ما تعطيني أيها العبد الفاني؟ وما تملك؟ أنت وما تملكه لله تعالى

لما خرجت من رحم أمك، ألم تخرج عريانا، لا تملك حتى ما تستر به عورتك؟

ترى خرج معك درهم أو دينار؟

ألا تستحي أن تقول: هذا لي، وهذا إنما أوتيته على علم عندي؟

أتستطيع أن تزيد لقمة في طعامي لم يقسمها الله لي؟

أتستطيع أن تزيد يوما في عمري لم يكتبه الله لي؟

ماذا تستطيع أيها الفاني؟ إنك لن تستطيع أن تخلق ولو ذبابة

اشكروا الله على فضله، وحدثوا بنعمه وتغنوا بآلائه وأفضاله، إياكم أن تعبدوه طمعا في جنته أيها التجار، وإياكم أن تعبدوه خوفا من ناره أيها العبيد

اعبدوه حبا لوجهه الكريم. أليس المحب لمن يحب مطيع

هكذا فلتعبدوه أيها الأحرار

ألا يعبد الله تعالى إلا خوفا وطمعا؟ ألا يستحق هذا الإله العظيم أن يعبد شكرا

"اعملوا آل داود، شكرا، وقليل من عبادي الشكور". سبأ13

يا ترى لو لم تكن جنة ولا نار، ألا يعبد الله على وجه الأرض من أحد؟

عندما أطوي الدنى وأحمل الأكوان

ظننت بأني هائم في مفازة ولا هم لي غير الوصول لفرجة
فألفيتني أطوي الدنى في عباءتي وأحمل أكوانا تخفت ببردتي
تسير بسيري إن أنا سرت ماشيا أطير فتعلوا طائرات برفقتي
وحولي درار دائرات بواقف مشيت فتاهت كي تحاول وقفتي
أمني يموج البحر ما كنت غاضبا وعند الرضا يهدا الهدير لهدأتي؟
أنا روح هذي اللائحات وسرها متى لحت غابت ماحقات بلوحتي
أظل شموسا قد أظلت دلائلا تدل ذوي الألباب ممن أظلت
وتهديهم إن ما تحير أمرهم وتخبرهم باسمي وتكتم كنيتي

يقول: ظننت بأني هائم في مفازة، والمعنى: حسبت بأني أسير بغير هدى متحيرا هائما في مفازة، وأصل المفازة الأرض المقفرة التي لا ماء فيها

يريد: حسبت أني هائم في عالم موحش غريب على غير هدى، لا أعرف طريقا ولا مخرجا

وليس لي هم غير الوصول لفرجة، أي فجوة ومخرج. قال تعالى: "وما لها من فروج". ق6

لا هم لي غير الوصول لفرجة أخرج منها من هذه المفازة

فألفيتني أطوي الدنى في عباءتي، أي فإذا بي أجد نفسي أطوي الدنى، والدنى جمع دنيا، في عباءتي، والعباءة كساء يلبس فوق الثياب

فإذا بي أجد نفسي أحمل أكوانا تخفت وتسترت ببردتي، والبردة كساء مخطط يلتحف به

تسير بسيري، أي أن هذه الأكوان تسير وفق سيري، وتتابعني في سيري متى سرت ماشيا، ومتى طرت طارت برفقتي

وحولي درار، جمع دري، والكوكب الدري: الثاقب والمضيء. يقول: حولي كواكب تدور بي وأنا واقف، حتى إذا خطوت تاهت هذه الكواكب وخرجت عن أفلاكها، وهي تحاول وقفتي، أي تحاول أن تدور علي وتجعلني مركز فلكها، بعد أن مشيت فلم أعد لها مركزا

والاحتيال والمحاولة مطالبتك الشيء بالحيل، وكل من رام أمرا بالحيل فقد حاول. قال لبيد:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضي أم ضلال؟

أمني يموج البحر ما كنت غاضبا؟ أي متى غضبت ثار البحر وهاج، ومتى رضيت هدأ لهدوئي ورضاي. والهدأة والهدوء السكون عن الحركات

يقول: أنا روح هذي اللائحات وسرها، أي أنا روح وحياة هذه اللائحات، أي الظاهرات، وأنا سرها، متى لحت وظهرت غابت هذه اللائحات بعد ظهورها ماحقات، أي ممحوقات من باب إنابة اسم الفاعل عن اسم المفعول كما سبق ذكره، بمعنى ذهبت وامحت بسبب لوحتي وظهوري

أظل شموسا، أي أكون ظلا لهذه الشموس التي هي الأخرى أظلت دلائلا، من الدليل، جمع أدلاء وأدلة ودلائل، وهو المرشد

وفي سيرة ابن هشام: بعث أبو بكر يدعو عبد الله بن أريقيط، وكان دليلا ثقة خبيرا بمجاهل الطريق.

وقد يراد بها البشارات. يقال: دلائل الصبح، بمعنى أوائله وتباشيره

هؤلاء الدلائل الدالون على الطريق، يدلون ذوي الألباب، أي ذوي العقول والأفهام، ممن أظلت تلك الشموس

وتهديهم، أي الشموس، ما تحير أمرهم، أي إذا ظلوا وحار أمرهم، وتخبرهم باسمي، وتكتم كنيتي، أي لا تخبرهم بكنيتي، وكنية فلان: أبو فلان

قال الجعفي بعد ذلك: لن أنسى سنوات التيه وعهود الحيرة والاحتيار، أيان كنت سجين الظنون، أسير المجون، لم أنس أني نسيت من أكون

هائم على وجهي أتقلب في المهامه والظلمات، أبحث عن مخرج، ولا من مخرج ولا من دليل

فإذا بي من غير مقدمات، أجدني مخبأ الدنى والأكوان، ومترل الأماني والأحلام، الكل يحاكيني في كل شيء، يفعل ما أفعل، إذا سرت سار بحذائي، وإذا طرت طار برفقتي

فإذا بي واقف تدور حولي الدراري والنجوم، وأنا وسط دائرتها وقلب أفلاكها.

وحتى أتيقن من أنها تدور بي مشيت، فإذا بها تتخلخل في سيرها وتتشابك مرة وتتنافر مرة أخرى، وهي تطوف بي، تتوقع وقوفي حتى تتخذني لها مركزا، فلا أتوقف، ولا تهدأ عن التشابك والتنافر

وحتى البحر لما غضبت هاج وماج، ولما رضيت هدأت أمواجه الهادرة، وسكتت عن الهدير، وكفت عن الهيجان

أنا روح ما لاح من عنايات الألطاف، وأنا كنه سابحات الأطياف، فمالي إذا لحت غابت واختفت

وكأن ظهوري محاها من الوجود، وحرمها من الظهور

وهذه الشموس التي تلفح الناس بحرها، فلا يهنئون، حتى يستظلوا منه بوارفات الظلال

هذه الشموس في حاجة إلى من يظلها، أنا من يظلها، وقد أظلت أناسا هم أعرف الناس بالظلال، يدلون عنها ذوي الألباب، حتى لا تلفحهم

وتهديهم، أي الشموس، إذا حاروا، ومتى سألوا عني أخبرتهم عن بعض أحوالي، وكتمت عنهم صفات ونعوتا، لأن الشموس أمينة على أسراري، لا تتنكر لي

فتفضحني، ولا تنسى ما لي عليها من فضل، ألست أظلها، ولا يقوى على أن يظلها أحد ممن تظل؟

بين الروح والنفس

متى ما عرفت النفس خفت غوايتي وإن أعرف المولى أمنت بروعتي
فنفسك أرض والسماء نديمها وروحك تسمو والنفوس تسامت
ولله شأن قد أحطت بسره يملكني عرشا بدون رعية
ولله ما أطلعت مما أذاعني بأسماع قوم خلتهم تحت إمرتي

يقول: متى ما عرفت النفس خفت غوايتي، أي إذا تعرفت جيدا على نفسي، وعرفت شدة خبثها، خفت وجزعت من غوايتي، والغواية الانهماك في الغي.
قال سبحانه: "ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا". القصص63
والمراد: متى عرفت شدة ولع نفسي بالمفاسد والمحرمات خفت أن تغويني بالوقوع فيها وإتيانها؛ ومتى عرفت المولى عز وجل، وعرفت حلمه وسعة رحمته اطمأننت وأمنت بروعتي، لأنه سبحانه عفو غفور، يغفر للمذنبين ويصفح عن الخطائين

فنفسك أرض والسماء أديمها: مثل النفس بالأرض، ومثل الروح بأنها سماء لهذه الأرض، وكأن الروح نديمة النفس ورفيقتها المقربة
وروحك تسمو بسبب سمو خصالها وميلها إلى المكرمات، والنفوس تسامت، أي تفاعلت، وتصنعت السمو وهي دنيئة، لأن السمو ليس من طبعها وخصالها.
ولله شأن قد أحطت بسره، أي ما أعظم هذا الأمر الذي قد علمت سره وأحطت بكنهه، هذا الشأن يجعلني ملكا على عرش بلا رعية ودون شعب أحكم عليه
وما أعظم ما أطلعني عليه الباري عز وجل من سر أذاعني، من ذاع الخبر يذيع ذيعا وذيعانا وذيوعا، أي فشا وانتشر

يريد الشيخ أن يقول أن ما أطلعه الله تعالى عليه، أذاعه، أي شهره، وكأنه خبر من الأخبار، ويقال: أذاعه وأذاع به، بمعنى أفشاه، وكأنه سر من الأسرار

أذاعني ما اطلعت عليه في أسماع قوم خلتهم وحسبتهم تحت إمرتي، أي تحت حكمي وسلطاني

قال الجعفي بعد ذلك: لما عرفت نفسي وما هي قادرة عليه من أمر بالسوء وإيقاع في المهالك، خفت من أن أغوي وأضل

ولكني لما عرفت الله قادرا على نفسي، قادرا على أن لا يكلني إليها طرفة عين، وعلى أن يحفظني من نفسي، اطمأننت وأمنت ورضيت

فالنفس والروح يا أخي، رفيقان لا يفترقان، وكأن النفس أرض والروح سماء، نديمان على كؤوس التصاريف والأقدار، النفس أرضية بما تدعوك لما سفل من أمور التراب، والروح سماوية بما تحثك على السمو بنفسك عن الرذائل إلى المكرمات

ولما أمنت من نفسي ورجوت ربي، أطلعني على سر، لما أحطت به جلست على عرش، لا إلى حاشية ولا على رعية، ولكن لنفسي وعلى نفسي

وأطلعني ربي على حكم وأحكام، وألطاف وأفهام، حتى صرت خبرا ذاع وانتشر في قوم عظام يضرب لهم ألف حساب، لما ذعت فيهم اندهشوا مني، فعرفت آنذاك أنهم رغم عظمهم، ما هم سوى بعض رعيتي

سيد ولد آدم

وأعلى الورى رسل لما قد تخصصوا   وخصوا بتشريع وثقل الأمانة

فلولاهم ما كان فيها محدث   وما كان صديق وأولوا الكرامة

فحاذر كلاما في مقاماتهم ولا   تخض في أمور عاليات بريبة

وجانب عماء لا تجرب عماءه   لكي لا تجازى بالعمى في البصيرة

فقد تاه قوم أن تحروا أموره   وضلوا ضلالا في طلاب العماية

فلولا رسول الله أعني محمدا   لما كان للأكوان معنى وهدت

عبير إذا ما الزهر فاح بروضه   وسر إذا ما الحسن باح بهمسة

وباب لمن شاء الولوج مفتح   إلى حضرة العلام من بعد السدرة

ترقى رسول الله من قبل آدم   وفي آدم قد خص قبل بسجدة

وما الأنبيا إلا بشائر بعثه   فما من كتاب لم يبشر ببعثة

هو الشمس لما أشرقت في سمائها   تلاشت نجوم لم تزل من مجرة

محا ما تبقى من شرائع قبله   وأثبت شرعا ليس يبلى بفترة

نماذج هانت تحت أنموذج السنا   تفرد عنها في السناء وجنت

سراج مبين بث في ظلمة الدجى   أضاء من الكونين وهو ببكة

وأفنى شرورا ماحقات بحقه   وأبلى بلاء في ميادين جمة

وزاد تصاريف الولاية قوة   بما اعتدلت في كل شيء وحقت

وما من نبي لم تشبه شوائب   خصائص إنسان وشرع الإرادة

تشدد موسى مثلما كان وحيه   ولان يسوع في سماح وطيبة

فمن طبع موسى طبع دينه ثم من   طبيعة عيسى ما تطبع بالتي

ولكن رسول الله قد جرد ذاته   بما أرسل الأملاك يوما وشقت

أليس قرين المصطفى صار مسلما   وكل قرين غيره في تعنت؟

وقد خص عنهم بالوسيلة عنده   ويشفع يوم العرض وترا بشفعة

وإن قلت: ما بال العزيز جماله فقد قطعت منه الأيادي وقدت؟
أقول: جمال يسلب الغانيات لا جلال تجلى في رجال ونسوة
حبيبي رسول الله هل لي شفاعة إذا ما تلاقى الجمع في يوم فرقة؟
فإني وإن فرطت مازلت راجيا وزادي اشتياق وانتساب لعترة
أتنسى محبا قد جفته عشيرة وخانته أزمان وهان بعشرة؟
تأجج روع راعه منك رائع تجلى بحلمي فاستفقت بنشوة
وهاجت شجون خلتها في بواطني وأسقمني وجد وجدت بمهجتي
فنفسي فداء للذي كان معتقا وروحي هواء إن تهاوت هويتي
في مجمع البحرين جمع ترددت عليه شؤون الخلق ثم استقرت
يقابل بين الشيء ثم نقيضه ويقضي بحق في أمور بحنكة
ومن لا يرى بدر التمام فحبه لما في السما من سابحات تبدت
فكن راحما تنظر رحيما بأمة وكن صابرا يظهر عليك بطلعة
ولا تتحنث دون شوق وتدعي ولا تتمثل كالدعي وتخبت

قوله: وأعلى الورى رسل لما قد تخصصوا، يعني به أن أعلى العالمين مترلة عند الله تعالى الرسل والأنبياء، لأن الله تعالى خصهم بالرسالة وتخصصوا بالتبليغ للخلق، وتحملوا جسامة مسؤولية التشريع للأمة، وثقل أمانة الصدع بالدعوة وإرشاد الناس والصبر على تكذيبهم وأذاهم
فلولا الأنبياء والرسل عليهم السلام، ما كان محدثون من عباد الله تعالى، وما كان صديقون أمناء، وما تيسر للأولياء أن يظهروا بالكرامات بين الناس
قوله: فحاذر كلاما في مقاماهم، من المحاذرة وهي الخوف الشديد المؤدي إلى شدة الاحتراز. وفي التتريل: "وإنا لجميع حذرون". الشعراء56
وحاذر تقوم مقامها حذار. وأنشد اللحياني:

حذار حذار من فوارس دارم   أبا خالد من قبل أن تتندما

والمراد: إياك أن تخوض في مقامات الأنبياء والرسل بلا علم ولا برهان، فإن أمورهم أعلى من الخوض فيها، فاحذر من ذلك واحترز من الوقوع فيه

وجانب، من الاجتناب والمجانبة، الخوض في العماء، وهو ما اصطلح الصوفية على إطلاقه على شؤون مغيبة خارج هذا الكون وما فيه، يختص بها علام الغيوب سبحانه وتعالى، فإن خضت في العماء قد تعمى بصيرتك وتضل ضلالا بعيدا

وقوله: فقد تاه قوم أن تحروا أموره، أي فكم من الناس تاهوا وضلوا عن عقيدتهم بسبب ركوبهم المراكب الصعبة، لما تحروا أمور العماء. والتحري قصد الأمر وتوخيه، بتداول قضاياه والخوض فيه

ثم ينتقل الشيخ للكلام على سيد الخلق وإمام الأمة رسول الله ﷺ، بعد أن قدم الكلام على فضل الأنبياء والرسل عامة عليهم صلوات الله وسلامه، ليبين فضله ﷺ عليهم جميعا

فيقول: فلولا رسول الله ﷺ ما كان للأكوان معنى ولهدت جميعا، أي عفت وانهدمت متضعضعة

ثم يمثل رسول الله ﷺ وكأنه عبير يفوح من الزهر بالروضة. وأصل العبير أخلاط من الطيب تجمع من الزعفران، وقيل: هو الزعفران عند أهل الجاهلية. قال أبو ذؤيب:

وسرب تطلى بالعبير كأنه   دماء ظباء بالنحور ذبيح

والمراد في تائية الشيخ بالعبير، الرائحة الطيبة التي تفوح من الزهر، من فاح يفوح فيحا وفيحانا إذا انتشرت رائحته في الهواء، والروضة الأرض ذات الخضرة، أو البستان الحسن. قال ﷺ: "بين قبري أو بيتي، ومنبري روضة من رياض الجنة".

والمراد أن رسول الله ﷺ، كأنه رائحة الزهر الطيبة تفوح في الروضة الغناء

وسر إذا ما الحسن باح بهمسة، أي أنه ﷺ، سر من أسرار الحسن باح بها الحسن بكلام خافت وهو الهمس

وهو ﷺ باب مفتوح لمن أراد الدخول إلى حضرة مولاه بعد سدرة المنتهى، وهي معروفة. وأصل السدرة شجرة النبق، جمعها سدرات وسدر وسدور

فقد ترقى رسول الله ﷺ، أي رقى وارتقى وصعد إلى درجة عالية لا يزاحمه فيها غيره، من قبل أن يخلق آدم عليه السلام، وهي إشارة إلى قول النبي ﷺ: "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين".

وإذا كانت الملائكة قد سجدت لآدم من قبل، فما كان سجودها فيه إلا لمحمد ﷺ، وكأن كون رسول الله ﷺ من ذرية آدم، شرف هذا الأخير باستحقاق السجود

وما الأنبيا إلا بشائر بعثه، والبشائر جمع بشارة وهي الخبر المفرح، وبشائر الصبح أوائله

والمراد أن الأنبياء والرسل ما جاؤوا إلا لكي يبشروا بمقدمه وبعثته ﷺ، فكل الكتب السماوية قد أخبرت وبشرت ببعثته، وكأنه ﷺ شمس والأنبياء والرسل نجوم، لما أشرقت في سمائها تلاشت النجوم و لم يعد لها ظهور من شدة ضوء الشمس، رغم أن هذه النجوم لا زالت قائمة لم تزل من المجرة، ويقصد بالمجرة عرض السماء

فقد محا ونسخ ﷺ، جميع الشرائع التي سبقته، وأثبت شريعة الإسلام التي لا تفنى ولا تنقضي، رغم الفترة، وهي مرور الزمان

وأصل الفترة الانكسار والضعف، وفتر الشيء يفتر فتورا وفتارا، إذا سكن بعد حده ولان بعد شده

والفترة تكون إذا طال العهد على الرسالات ونسي من أرسلت إليهم، وأصابهم الغفلة وقست قلوبهم

قوله: نماذج هانت تحت أنموذج السنا، والنموذج كلمة فارسية معناها مثال الشيء

والأنموذج أراد به الشيخ نموذج النماذج وخيرها

وكأن الرسل والأنبياء نماذج للإنسانية وأمثلة يحتذى بها في الاستقامة والجلال، ورسول الله ﷺ مثال هذه النماذج نفسها وخيرها

فقد تفرد عنها في السناء والضياء والبهاء، حتى جنت أي اختفت واستترت، من جنه الليل يجنه جنا وجنونا، بمعنى ستره وأخفاه. قال الهذلي:

وماء وردت على جفنه وقد جنه السدف الأدهم

ثم يصف رسول الله ﷺ بأنه سراج منير بث في ظلمة الدجى، والسراج المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل، جمعه سرج، أي أن رسول الله ﷺ كأنه سراج منير انتشر ضوؤه في ظلمة الليل، وأضاء من الكونين، الظاهر والباطن، وهو ببكة اسم لمكة في الجاهلية.

وعن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به، تعني رسول الله ﷺ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمدا على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. انتهى

وأفنى، أي رسول الله ﷺ، شرورا، جمع شر، ماحقات بمعنى ذاهبات

والمراد أن رسول الله ﷺ لما بعث أزاح شرور الجاهلية، فذهبت وامحت، وأبلى بلاء في ميادين جمة، أي دعا وجاهد في أمور جمة، أي كثيرة. قال الهذلي:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما؟

وزاد، أي رسول الله ﷺ، تصاريف الولاية قوة، والمعنى: أنه عليه الصلاة والسلام، ببعثته قويت تصاريف أولياء الله الصالحين، والتصاريف جمع تصريف، وهو مقام يدركه الولي الصادق، وهو عندنا نهاية المقامات، واستجابة للدعوات، إذا دعوا لم يرد الله لهم دعاء، وإلا فالتصرف والتصريف لا يكون إلا لمدبر الأكوان وخالق الإنسان عز وجل

وقوله: بما اعتدلت في كل شيء وحقت، يريد به أن تصاريف الولاية زادت قوتها، لأن كل ولي يكون على دين نبيه، ولا كمال إلا لدين الإسلام، فلما كان الأولياء على دين رسول الله ﷺ، وهو الدين الحق الكامل المعتدل، كانت ولايتهم أقوى من ولاية غيرهم في باقي الأمم السالفة

وقوله: وما من نبي لم تشبه شوائب، والشوائب جمع شائبة وهي الأقذار والأدناس، ويقصد الشيخ النقائص، أي أن جميع الأنبياء والمرسلين اتصفوا بالنقص، ويريد به أن خصائص الإنسانية لديهم قد طغت على شرعهم

فإن من طبع موسى عليه السلام الغضب والشدة، فكذلك اتصفت ديانته بالشدة والتشدد في الأحكام

وأما عيسى عليه السلام، فقد اتصف بالسماح والطيبة، والسماح والسماحة الجود، والطيبة والحلم وحسن الخلق، فلذلك اتسم دين النصرانية هو الآخر بالليونة وشدة الحلم

فمن طبع موسى طبع دينه، ومن طبيعة عيسى تطبعت المسيحية

وقوله في عيسى عليه السلام: ما تطبع بالتي، يقصد بالتي، مريم البتول أمه عليهما السلام، فالشيخ يرى أن عيسى لم يرث شدة الطبع، لأنه ولد من غير أب، فورث عن أمه الليونة والتسامح

ولكن رسول الله ﷺ جرد ذاته، أي تجرد عن طبائعه الإنسانية.

وقوله: بما أرسل الأملاك يوما وشقت، بما: الباء: حرف جر للسببية، وما: زائدة

أرسل الأملاك: الجملة في محل مجرور بالباء متعلق بفعل محذوف تقديره جرد.

أي بسبب إرسال الله تعالى الملك الذي شق صدره، في حادثة شق الصدر، ونزع نصيب الشيطان منه من قلبه

وذلك مما ميزه الله تعالى به عن سائر الأنبياء والرسل

ومن تميزه عنهم أن قرينه لما دعاه للإسلام أسلم بخلافهم جميعا

ومنه أن الله تعالى خصه بمترلة الوسيلة في الجنة التي لا يؤتاها غيره، وخصه بالشفاعة يوم القيامة

وقوله: ويشفع يوم العرض وترا بشفعة، يشير إلى ما ورد فيما رواه الإمام البخاري في صحيحه مرفوعا، أن رسول الله ﷺ، يشفع يوم القيامة وترا بشفعة، أي شفاعة واحدة يتبعها شفع، أي شفاعتان، والمجموع ثلاث

ثم يقارن الشيخ بين جمال النبي ﷺ وجمال العزيز، وهو يوسف بن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر، ويقول: وإن قلت: ما بال العزيز جماله، فما: اسم استفهام وتعجب مبني في محل رفع مبتدأ

بال: خبر مرفوع وهو مضاف

العزيز: مضاف إليه مجرور

جماله: خبر ما بال، والجار وجماله تستدعي تتمة مقدرة، أي جماله فاق كل جمال

والمعنى: فإن قلت بأن يوسف هو أجمل الأنبياء والرسل على الإطلاق، لأن النساء قطعن أيديهن لما نظرن إليه، وذلك غاية البهت والاندهاش، وهو المراد بقوله: فقد قطعت منه الأيادي وقدت. وقد الشيء يقده قدا إذا قطعه

وفي التتريل: "وقدت قميصه من دبر". يوسف25

فأجاب الشيخ بأن جمال يوسف ناقص، لأنه يسلب الغانيات، جمع غانية، وهي الشابة المتزوجة، وتجمع على غوان، لأنها غنيت بالزواج

أما جمال الحبيب ﷺ، فهو محاط بالجلال، بل هو جلال تجلى نوره بالخشوع والسكينة في قلب كل من رآه ونظر إليه من الرجال والنساء

ثم يخرج الشيخ عن سياقه الخبري في ذكر فضائل رسول الله ﷺ، ويتوجه إليه بالخطاب يسأله أن يشفع له إذا تلاقى الجمع يوم فرقة، وهو يوم القيامة، حيث يحشر الناس جميعا، ووصفه بأنه يوم فرقة، لتنكر الإخوان لإخوانهم، وتبرئ الأخلاء من خلاهم

ويقول: وإني وإن كنت فرطت في الطاعة والعبادة، لم أيأس من شفاعتك، ولا زلت أرجوها، فليس لي زاد غير شدة حبي لك واشتياقي إليك، وانتسابي لعترتك، وعترة الرجل أقرباؤه من ولد وغيره

قوله: أتنسى محبا قد جفته عشيرة؟ أي كيف تنساني يا رسول الله وأنا أحبك وأشتاق إليك؟ وقد هجرتني عشيرتي جمع عشائر، والمراد بها الأهل والقبيلة

كيف تنساني والأزمان قد خانتني و لم تنصفني، وذقت فيها الأمرين، وهنت بين أهلي وعشرتي؟ أي و لم أحصل على من يصادقني ويصاحبني من إخوان الوفاء والصدق؟

تأجج روع راعه منك رائع، أي التهب روعي وباطني لما راعه أي أفزعه، منك رائع، وكل شيء يروعك منه جمال وكثرة فهو رائع. وفي حديث الدعاء: "اللهم آمن روعاتي".

قوله: تجلى بحلمي فاستفقت بنشوة، أي أن هذا الرائع الذي راعني بجماله تجلى وظهر بحلمي، فلما استفقت رجع علي بنشوة أحسست بها في كياني

وتقول: نشي الرجل من الشراب نشوا ونشوة، وتنشى وانتشى، كله بمعنى سكر، فهو نشوان. قال ابن الأعرابي:

إني نشيت فما أسطيع من فلت حتى أشقق أثوابي وأبرادي

قوله: وهاجت شجون خلتها في بواطني، والشجون جمع شجن، وهو الهم والحزن، والشجن هوى النفس، ويراد به هنا هموم وأحزان الحب والمودة والشوق؛ أي من شدة حبي لك يا رسول الله، هاجت شجوني وثارت، حتى ظهرت علي وانفضح أمرها، في حين خلتها مستورة في جوانحي لا تظهر

وأسقمني وجد وجدت بمهجتي، وأسقمني وجد بمعنى اعتللت من الوجد، وهو شدة الشوق، هذا الوجد وجدته في مهجتي. وفي التتريل: "قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف". يوسف94

والمهجة جمع مهج، وهي دم القلب

والمعنى: اعتللت من شدة الشوق الذي أحسست به واستشعرته في مهجتي وشغاف قلبي

فنفسي فداء وفدية أفدي بها من أعتقني من ظلمات الجهل إلى نور الهداية والإيمان، وروحي أهديها له هواء إذا أنكرت ذاتي وخرجت عن هويتي، والهوية مصدر هو، أي عن أنانيتي وإنسانيتي

وبعدما فرغ الشيخ من مخاطبة رسول الله ﷺ، قال: ففي مجمع البحرين جمع ترددت، يريد بمجمع البحرين ملتقى بحر الشريعة ببحر الحقيقة، ففيه التقى موسى مع عبد الله الخضر عليهما السلام

موسى الذي يمثل الشريعة، وعبد الله الخضر رمز الحقيقة

وكأن الشيخ يريد أن يقول: أن رسول الله ﷺ جمع بين الشريعة والحقيقة، والتقى فيه البحران فهو مجمعهما، وهو جمع تتردد عليه وترجع إليه كل أمور الناس وإليه تعود شؤوهم، وتجد لديه مطلوبها وتستقر أمورها بعد شتاها

يقابل بين الشيء ثم نقيضه، أي يوازي بين الحق والباطل، ويدبر النقائض، ويحكم في جميع الأمور بعدل ومعرفة وحنكة، والحنكة السن والتجربة والبصر بالأمور.

ثم يقول: ومن لا يرى بدر التمام، يقصد به رسول الله ﷺ، فقد مثله ببدر التمام، وهو البدر التم المكتمل، ويكون في الليالي البيض من الشهر في السماء الصافية

ويرمي بذلك إلى أن من لم ير رسول الله ﷺ، الذي هو ظاهر كالبدر التم، فما ذلك إلا لحبه وانشغاله بسابحات، وهي الكواكب والأجرام، تجري في أفلاكها؛ لما تبدت له وظهرت، انشغل بها عما هو أشد منها ضياء وأقوى نورا، وهو بدر التمام

ومن أراد أن يرى رسول الله ﷺ، فليتصف بما اتصف به عليه الصلاة والسلام من رحمة بجميع العالمين، وليتصف بصبره، فإنه إن فعل ذلك وتمثل به، ظهر عليه بطلعته البهية، واكتحلت عيناه بمرآه

وقوله: ولا تتحنث دون شوق وتدعي، أي لا تظهر التحنث والخشوع، وتدعي محبة رسول الله ﷺ وأنت لست كذلك

ولا تتمثل أي تتشبه، كالدعي وهو الذي يدعي ما ليس له، وتخبت، تتصنع الإخبات وهو الطمأنينة. وفي التتريل: "وبشر المخبتين". الحج32

والمعنى: لا تتظاهر بأنك تحب رسول الله ﷺ، وبأنك من العابدين المطمئنين الذين ينهجون سنته ويسيرون على هديه طمعا في رؤيته، فلن ينفعك ذلك، لأن الله تعالى عالم بالسرائر مطلع على الضمائر. قال سبحانه: "واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه". البقرة233

قال الجعفي بعد ذلك: ذهب الجمهور إلى أن رسل الله تعالى وأنبياءه هم أعلى درجة عند الله تعالى من جميع خلقه، وذلك بما خصهم سبحانه بالرسالة، وأوكل إليهم أمر التبليغ، وكلفهم بهداية الناس وإرشادهم إلى الطريق السوي

وقد فرق العلماء بين الرسول والنبي، فقال بعضهم: الرسول هو الذي أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي هو الذي أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وقالوا: كل رسول نبي وليس كل نبي رسول؛ إلا أننا لا نسايرهم على ذلك، فلا يعقل أن يوحي الله تعالى إلى نبي بشرع ولا يؤمر بتبليغه، أو يكون له الاختيار إن شاء بلغ وإن شاء كتم

بل إن الرسول عندنا هو من أرسل إلى قومه وجاءهم بملة تنسخ ما قبلها من الملل، كموسى عليه السلام، أرسل إلى بني إسرائيل وجاء بالتوراة، وعيسى عليه السلام جاءهم بالإنجيل ينسخ به كثيرا مما في التوراة

"ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجيتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون". آل عمران49

أما النبي، فهو الذي يرسل إلى قبيلته خاصة، مثل هود وصالح وشعيب عليهم السلام. ويبقى قولهم: كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، صحيحا

وقد نال الأنبياء والرسل منزلة عند الله تعالى، لا يدركها غيرهم، لأن الله اختارهم عن باقي خلقه واصطفاهم، وفي ذلك من التخصيص والأفضلية ما لا يخفى فينكر

"الله يصطفي من الملايكة رسلا ومن الناس، إن الله سميع بصير".الحج73

كما أنهم عليهم السلام، ارتقوا هذه المنزلة بما تحملوا من مسؤولية الرسالة، وبما أوذوا من قومهم وصبروا على التبليغ

لا يزاحمهم صديق ولا ولي، كما ادعاه بعض أهل الحقيقة، وإلا فظاهر النصوص حجة على ما قلناه وذهبنا إليه

فإن قيل: فما الفرق بين الرسول والولي؟

قلنا: نميز بينهما من وجوه:

الأول: لولا الرسول لما كان الولي، إذ كل ولي على دين رسوله وعلى سننه، فرسالة ذاك أصل ولاية هذا، فكيف يفضل الفرع الأصل؟ وكيف يفوق المبلغ بفتح اللام المبلغ بكسرها؟

الثاني: يخص الله تعالى الرسول بالرسالة قبل ولادته، ويتعهده ويرعاه منذ أن تحمل به أمه أو قبل ذلك بكثير، ويصونه من الأذى ويحفظه من الفسق والضلال، ويعصمه من المعاصي والذنوب منذ ولادته، بخلاف الولي الذي قد ينشأ ضالا، أو قد يكون عاصيا حتى يهديه الله تعالى ويوتيه الولاية فضلا وكرامة من عنده

الثالث: وظيفة الرسول تنوء بثقلها الجبال الشم، فهو مأمور بالخروج على الناس، ألا ترى أن كثيرا من الأنبياء والرسل عليهم السلام أوذوا في سبيل الله وقتلوا تقتيلا؟

"وكأين من نبيء قتل، معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين". آل عمران146

ولا يكون لهم، عليهم الصلاة والسلام، اختيار في التخلي عن الدعوة والهروب من ميدان التبليغ كيفما كان قومهم، وكيفما كان ما يتلقونه من أذى منهم؛ ألا ترى إلى يونس عليه السلام لما غادر قومه، كيف ابتلاه ربه بلاء عظيما؟

فلولا الرسل والأنبياء ما كان ولي ولا محدث، وما كان صديق ولا حدثت الكرامات وتصرف الأولياء في أمور لا يقدر عليها البشر، عطاء ومنة من اللطيف الخبير

مقام النبوة

إنه مقام النبوة الذي لا يضاهيه مقام، لا يدرك بتجرد ونسك، وعبادة فيرام، بل هو أمر من أمور الحكيم العلام، لا يجرؤ عالم على خوض غماره، ولا ولي على كشف خماره، وهو تاج التشريف وأمانة التكليف، خص به الله تعالى رجالا ليسوا كالرجال، ضنت بأمثالهم أرحام ربات الحجال، بما هيأهم الباري عز وجل في أصلاب آبائهم وأجدادهم، وحفظهم في حلهم وترحالهم، وعصمهم من شياطين الإنس والجن جميعهم، وبوأهم مترلا عليا، وأعزهم في الدنيا والآخرة، فاتسموا بنقاء السريرة، وصفاء الطوية، واتصفوا بالصبر والجود في البرية

فإياك إياك أن تتقول على أحبابه بما لم يقله، فصن لسانك رعاك الله تعالى، واحفظ جنانك، حتى لا تكون عدوا لهم فيمسي الله تعالى لك عدوا، ومن كان له الله عدوا، فمن ينصره على الله؟

الكلام على العماء

وأشد من الخوض في مقامات الأنبياء والرسل، الخوض فيما يسمى بالعماء، وقد عجبت لقوم خاضوا فيه عميانا، ووصفوه بما لا يعلمون له حجة وبرهانا، وادعوا أنهم أحاطوا به زورا وبهتانا؛ فإن ما اصطلح العارفون على تسميته بالعماء، يهم أمورا من أمور الله تعالى، لا يعلمها إلا هو، ولم يأت بها شرع ولا تتريل، ولم يحدث بها نبي ولا رسول، فكيف يتولاها عباد لا حول لهم ولا قوة؟ وليت شعري ما دفعهم للخوض فيها، وهم لم يؤمروا بذلك، في آية مترلة، أو حديث صحيح؟

وإن شئت، فالعماء يختص بأمور الباري، مما لا علاقة له بالكون ولا بالبرية، بل كان ولا يزال قبل خلق الزمان والمكان، فمن أين لنا أن نظهر على أموره؟ وهو خارج عن الأكوان بعيد عن الأفهام؟

فاعرف قدرك أيها الأخ الصادق، ولا تقف ما ليس لك به علم فتشقى، واطلب السلامة في دينك ونفسك، حتى لا يؤول عليك فضولك بالخسران

وكثير هم من تجرؤوا على العماء، فعميت أبصارهم، واختلت عقائدهم، وتاهوا في الجهل والضلال، في طلاب المحال

فضل رسول الله ﷺ على سائر الأنبياء والرسل

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه، أن سيدنا رسول الله ﷺ، هو خير الخلق عند الله تعالى على الإطلاق، وأعزهم لديه منذ خلق آدم عليه السلام إلى أن يأتي الله بأمره، ولا خلاف بين الأولين والآخرين في أفضليته، أليس هو القائل ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر" .

فهو ﷺ أساس قيام هذا الكون بما فيه من سماوات وما أضللن، وأرضين وما أقللن، ولولاه لانتفت الأكوان وتلاشى بنو الإنسان

وبه يعرف جمال المولى، وبه يدرك رضاه، وهو باب مفتوح على مصراعيه لمن أراد الوقوف على أعتاب باريه؛ ومن طرق باب غيره ضل وتاه، وقد أرسله الله تعالى لهذه الأمة نعمة سابغة ورحمة بالغة، يخرجها من الظلمات إلى النور بإذنه، ويحبب لها التواب الغفور، يدعوها للهداية في الدنيا، ويشفع في مذنبيها في الآخرة

وهو خاتم الأنبياء والرسل، فما الأنبياء والرسل سوى تباشير لبعثته، وما رسالاتهم إلا مقدمات رسالته، فهو الخاتم الكامل، ودينه الدين المعتدل الشامل، إليه المنتهى في التبليغ، وعليه المعول في التعرف على الله تعالى

أنموذج النماذج، ونقطة الدائرة، وقطب الرحا وغاية النهايات

وقد غشي الكون ما غشيه منذ بعثته، فإذا الكون غير الكون، وإذا السماوات غير السماوات، فقد ضاع عبيره رحمة ورأفة على جميع العالمين، فزاد خير العالم وانمحق شره. قال الإمام البوصيري في بردته:

يوم تفرس فيه الفرس أنهم قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ورد واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلل حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة والحق يظهر من معنى ومن كلم

بل إن الولاية في أمة رسول الله ﷺ، فاقت الولاية في جميع الأمم السالفة، فاتسع كشف الأولياء وقويت كراماتهم وزادت تصاريفهم

واعتدل الدين شريعة وحقيقة، وحق الأمر، ورفعت الأقلام وجفت الصحف، محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك

ومما يميز رسول الله ﷺ عن غيره من الأنبياء والرسل، أنهم جميعا غلب عليهم طبع الإنسانية، لحكمة يريدها الباري عز وجل، فلم يتجردوا عن طبائعهم، مما أثر على دينهم وشرعهم

فهذا موسى عليه السلام، تشدد بعصبية طبعه، فجاء دينه متشددا

وهذا عيسى عليه السلام، لان في طبعه، وتطبع بطبع أمه، فكان شديد الرأفة والحلم، فكانت النصرانية كذلك

ولكن رسول الله ﷺ، لم يؤثر عليه طبع من الطباع، فكان لا يتصرف إلا بإرادة الباري عز وجل، فجاء دينه الإسلام كاملا مكتملا، واضحا غير مشوب. وقد تعهده المولى عز وجل منذ صباه، فنقى فؤاده مما يشوبه بخلاف جميع الأنبياء والرسل

فقد روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك الحديث.

كما أسلم قرينه ﷺ لما دعاه إلى الإسلام، مما لم يكن لأي أحد من العالمين

وخصه الله تعالى بمنزلة الوسيلة يوم القيامة، وخصه بالشفاعة

روى الإمام البخاري في صحيحه، عن أنس أن النبي ﷺ قال: "يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا نوحا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحا، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطاياه التي أصابها، ولكن ائتوا موسى، عبدا آتاه الله التوراة وكلمه تكليما. فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا عيسى، عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه. فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدا ﷺ، عبدا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيأتوني فأنطلق، فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود الحديث".

وقد بعث رسول الله ﷺ كاملا خلقا وخلقا، فإن كانت أخلاقه وخصاله شاهدة على خصوصيته، فإن صورته شاهدة على أنه بلغ أقصى مبالغ الحسن والجمال والبهاء والكمال

وقد يقول القائل: أليس يوسف عليه السلام أجمل الأنبياء والرسل على الإطلاق، حتى بلغ جماله مبلغا بهتت منه النسوة وقطعن أيديهن؟

قبل أن نرد على ذلك، نشير إلى أننا نخالف من أول الآية بأن النسوة قطعن أيديهن تقطيعا، إذ لا يعقل ذلك، بل الأقرب إلى الصواب، أنها كانت عادة عند المصريين، إذا قلت شيئا وقال غيرك خلافه فلم تصدقه وأفحمك بحجته وبرهانه، أخذت سكينا وجرحت يدك، وهذا ما فعلته النسوة، وإلا فكيف تتصور نساء قطعن أيديهن بالمرة، حتى فار الدم من عروقهن، ولا زلن يتحدثن ويقلن: "حاش لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم". يوسف31 وترد عليهم امرأة العزيز قائلة: "فذلكن الذي لمتنني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين". يوسف32

لعمري هذا ما لا يقبله عاقل، فتدبر رحمك الله، تجده صحيحا

وإنا لنظن أن جمال يوسف عليه السلام كان ناقصا، فإن قلت: فما نقصه؟ فنقول لك: أليس جماله يثير شهوة النساء، ويجعلهن يرغبن في إتيان الفاحشة؟ فكيف لا يكون ناقصا؟

أما جمال النبي ﷺ، فهو محفوظ بالجلال، فمن نظر إليه ﷺ، من النساء والرجال، استقر جلال الله تعالى في قلبه، وذكر مولاه ورجع إليه وتاب

حبيبي وقرة عيني يا رسول الله، ترى تشفع لي عند مولاي؟ يوم يتنكر الابن لأبيه والأخ لأخيه، يوم أنفرد بأخطائي وذنوبي، وتنتابني الحسرة والندامة، وأعض أصابعي على ما فرطت في جنب الله تعالى؟

من يتولاني إذا خفت موازيني، وقيل: سوقوه إلى حيث يدري؟

من يرحمني إذا افتضح جفائي واتضح ظلمي؟ ومن يسترني إذا بدا عيبي واشتهر خللي ونقصاني؟ من يثبتني إذا زاغ بصري، وأصبح فؤادي فارغا يوم الفزع الأكبر؟ من يسعفني إذا انغلقت في وجهي الأبواب وتقطعت السبل وتفرق الأحباب؟ من يقبلني إذا أنف العالمون من سواد صحيفتي؟ من يرعاني إذا نبذني الأولون والآخرون، وألقيت في الذل والمهانة؟

ترى تشفع لي فإني أرجو شفاعتك؟ فإني وإن كنت مفرطا في ديني، متثاقلا عما طلب مني، لم يثبطني تفريطي ولم يفل من عزمي اثقالي، بل لا زلت أرجو شفاعتك، فليس لي زاد سوى شوقي لرؤيتك، وانتسابي لعترتك الشريفة

أتنساني عند الله، وقد نسيني أهلي وخلاني في الدنيا، وخانتني الأزمان، ولم أجد من يشد من أزري ويبكي لحالي، ويؤنسني في وحشتي؟

فلا تجمع علي الأمرين، فإني وإن كنت عانيت في الدنيا، لأرجو أن أسعد وأرتاح في الآخرة

لهيب الشوق لما تأججت ناره في أحشائي، بما راعني وهز كياني في رؤاي وأحلامي، استيقظت فلم يستيقظ في بواطني، بقي نشوة وسلاما في حركاتي وسكناتي، لا يكاد يغادر ليلا ولا نهارا

اعتللت بوجدي وشدة شوقي للقائك والتملي في طلعتك البهية، يا حبيبي يا رسول الله

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بما أضأت بنور الهداية جوانحي المعتمة، يوم فت إنسيتي، وتنكرت لإنسانيتي التي لا تدعوني سوى إلى المخاطر، ولا تعرض علي غير لوحات حالكة سوداء قبيحة المناظر، تزيدني وحشة وانهزاما

في مجمع البحرين بحر الشريعة والحقيقة رسول الله، جمع توحدت عليه المفترقات، واصطلحت عليه المختلفات، وتعارفت المتناكرات

يقابل بين النقائض، ويوازي بين العرائض، ويؤول المشتبهات، ويقضي بما هو حق، بما أوتي من حكم وحكمة، وفهم وحنكة

فادع الله أخي الكريم، أن يكرمك برؤيته في الدنيا قبل الآخرة، فإن من رآه في الدنيا لم يحتجب عنه يوم القيامة

ولو أخلصت حبك للنبي ﷺ، وصدقت في شوقك إليه، ما غاب عنك طرفة عين

إذا لم تره، فاعلم أنك تدعي حبه وليس لك منه ولو ذرة، فاعلم أنك مشغول بغيره عنه، وإلا ما غاب عنك ولو لحظة

فاعمل بسنته وتخلق بأخلاقه، وكن رحيما بالناس، صابرا راضيا شاكرا على ما صرفك الله تعالى فيه وصرفه عليك، فإن كان قليلا صبرت، وإن كان كثيرا شكرت، فسيباغتك بظهوره ويفاجؤك بطلوعه، كشمس الضحى مشرقا منيرا بهجة وسرورا، تملأ الأركان بنور الطمأنينة والسلوان

لا يكفيك ادعاء محبته، والكلام عنه، وأنت أبعد الناس منه، لا يكفيك تخشعك وتحنثك، ولا يجزؤك ذكرك وقيامك وصيامك، إذا كنت مخالفا لسنته، لا زلت لم تقدمه على نفسك ومالك وولدك، لن تراه مادام في قلبك من ذلك بقية

وداعين أملاكا يريدون عونهم وأسماء سموها بجهر وخفية
تعازيم تتلى والدخان سحابة طلاسيم خطت في رقاهم بدقة
فلا تستعن بالخلق مهما يكن ولا تسطر سوى هدي النبي برقية
يظنون حقا باطلا من جهالة عفا الله عنهم ما أتوه بنية
دعوت قريبا لا يرد دعائيا فما لي وفان لا يبالي بدعوتي؟
حديث ابن عباس كفاني سؤالهم إذا ما سألت اسأل رواه بسنة
فلا تدع غير الله والكل حادث ولا تسألن الناس مقدار بلغة

يقول الشيخ: وداعين أملاكا يريدون عونهم، ويقصد بذلك بعض المشتغلين من المسلمين بالعلوم الروحانية التي تقوم على تلاوة العزائم وترقيم الطلاسم والجداول وإطلاق البخورات

هذه العلوم التي ترسخت في القدم، واشتغل بها الناس حتى في الأمم السالفة، ومنها أنواع من السحر يشتبه أمرها عليهم، وكثير من يظنها شرعية وهي لا أساس لها من شريعة الإسلام

وقوله: داعين منصوب على الحال بالياء لأنه جمع سالم، يريد: وقوم داعين، أي يدعون ويسألون أملاكا عونهم، وأسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان، يفعلون ذلك جهرا وخفية، أي سرا وعلانية

ويلجؤون في ذلك إلى قراءة التعازيم، والتعازيم جمع عزيمة، وتجمع على عزائم، وأصل العزيمة فرائض الله تعالى التي أوجبها على عباده. وفي الحديث: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه".

والمراد بالعزائم هنا ما يدعو به هؤلاء من كلام مسجوع ما يظنونه أملاكا بأسماء عربية وأعجمية، وهذا الأمر سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى

يتلون تعازيمهم وهم يدخنون ويستجمرون ببخور كثيف، وكأنه من شدة كثافته سحابة تغمرهم وتحجبهم، وهم يتلون ما يتلون، ويخطون طلاسمهم في الرقى بدقة متناهية وإتقان بالغ، والطلسم جمع طلسمات وطلاسم، وهو خطوط وأعداد يزعم أصحابها أنهم يربطون بها روحانية الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب المحبوب، أو لدفع الأذى

ويقصد بالطلسم في اللغة الشيء الغامض المبهم، وأطلق على هذه الخطوط والأعداد لأنها غامضة لا يفهم مغزاها

والرقية جمع رقى ورقيات، وهي ما يرقى به المريض من كلام وكتابة، وقد يسمى حرزا. وفي الحديث: "لا رقية إلا من عين أو حمة".

ثم يقول الشيخ: فلا تستعن بالخلق، أي المخلوقات، مهما كان الحال، ومهما اضطررت واشتد عليك الأمر، ولا تسطر، لا تكتب سوى هدي الرسول ﷺ وسنته. وللشافعي:

وما من كاتب إلا سيفنى ويبقي الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

وكثير من هؤلاء، يظنون أن ما يكتبون مما ليس له أصل في الدين، يظنونه حقا من شدة جهلهم، وهو باطل قد يخرج كاتبه عن الملة

ثم يسأل لهم الغفران، لأن كثيرا منهم فعلوه عن جهل، بنية حسنة، ولم يبلغوا درجة من العلم يميزون بها بين الحق والباطل

ويعظهم الشيخ بنفسه وقوة يقينه في الله تعالى، الذي لا يدعو سواه، فهو يدعو إله قريبا لا يرد الدعاء، ويقول: فمالي وفان لا يبالي بدعوتي؟ أي فكيف لي أن أدعو غير الله من المخلوقات الفانية، التي ترد علي دعوتي ولا تنفعني في شيء؟

ثم يستشهد لكلامه بحديث ابن عباس الذي رواه عن رسول الله ﷺ، وقال له فيه: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله".

فهذا الحديث يكفيه لكي ييأس من دعاء غير الله تعالى، ويكفيه لكي لا يسأل غيره تعالى

فلا تدع أخي المسلم أحدا غير الله تعالى، فكل الذين تدعوهم، ما هم سوى حوادث ومخلوقات فانية لا حول لهم ولا قوة

فلا تسألهم شيئا، لا قليلا ولا كثيرا، ولو كان مقدار لقمة من الطعام

قال الجعفي بعد ذلك: توارث الناس منذ القديم علوما روحانية ينسبونها إلى الحكمة، يتلقاها الولد عن والده والمريد عن شيخه، ثبت وجودها قبل بعثة النبي ﷺ بقرون، وما تطرقت للحديث عنها، سوى لأن بعضها يدخل في مفهوم السحر الحرام، ويدعو إلى الشرك بالله الواحد الأحد لا إله غيره

لاسيما، وأن الكثير من المؤمنين يتلون عزائمها ويمارسون طقوسها، وهم يظنون أنها من شرع الله تعالى، ومن ضمن أسراره الربانية التي لا يؤتاها إلا ذو حظ عظيم

وهذه العلوم الروحانية ترتبط عندهم بعلم الفلك والنجوم، والطبائع الأربعة، ويعتقدون أن هناك سبعة أملاك علوية تحكم على الملوك السفلية السبعة هي الأخرى، التي تسير طوع أمرهم ولا تخرج عن طاعتهم، ولكل واحد منها علاقة بدري من الدراري السبعة وبيوم من الأيام السبعة، يدعى في يومه أو ليلته من أجل قضاء الحوائج والمهمات

كما يعتقدون أن الملوك العلوية لها رئيس يقوم عليها، ومتى تأخرت في قضاء ما يطلب منها أقسموا عليها به وزجروها باسمه

كما يعتقدون أن في توافق مجموع أعداد خانات الجداول تأثيرا طبيعيا، يؤثر سلبا وإيجابا بالخير والشر، ويعمرون هذه الجداول بأعداد الآيات القرآنية أو بأعداد أسماء الله الحسنى، حسب الجمل الصغير أو الكبير، أو يوزعون حروفها على الخانات مكسرة ليس كما أنزلها الباري عز وجل

ويخطون طلاسم لا أصل لها في الدين، يعتقدون فيها النفع والضر

فمنها الخاتم السليماني المشهور عندهم، ويتكون من سبعة أشكال، ومنهم من يدعي أن هذه الأشكال كانت منقوشة على خاتم سيدنا سليمان عليه السلام.

كما لديهم مايعرف بخاتم رسول الله ﷺ، ويدعون أنه خاتم النبوة الذي كان بين كتفيه ﷺ

ناهيك عن أقسام وعزائم يتوسلون بها إلى الجن والشمس والقمر، وقد يستجدون أسماء سريانية لايعرف لها معنى

كما يستجمرون ببخورات نباتية وعضوية مواتية لساعة العمل ويومه وبرجه ومترلته، من أجل استحضار الأملاك حسب زعمهم، لقضاء حاجياتهم في الحين والساعة، وما إلى ذلك من الطقوس والممارسات التي لم يترل بها الله من سلطان.

وأنا أوجه إليهم القول في هذه الصفحات وأقول: إن الله تعالى وحده هو مدبر الأكوان، وهو الذي يتصرف في ملكه وملكوته بما شاء، متى شاء، فلا حاجة لدعوة غيره من أسماء تظنونها ملائكة وروحانية، أسماء ليس لكم عليها برهان.

فانظر إلى قول الله تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مومنون، فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون". سبأ40-42

وإذا كتبتم في رقاكم، فاكتبوا آيات الله تعالى كما أنزلت من لدن خبير عليم، ألا ترون معي أن تحويل حروف الآيات إلى أعداد متداخلة وحروف مكسرة لا يجدي شيئا؟ أتظنون أن القرآن لا ينفع شيئا سوى إذا تصرفتم في وضعه بالتحريف والتكسير؟ آنتم أعلم أم الله؟ توبوا إلى بارئكم وانتهوا خيرا لكم

أوليس الله تعالى يقول في محكم كتابه: "ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى، بل لله الامر جميعا". الرعد32

ومن مختل في الكهوف أياما وشهورا، يصوم ويردد الأقسام والعزائم، ويدخن تدخينا، يرجو التصرف في دعوة أو عزيمة أو قسم مطاع، فماذا لو اختلى من أجل الله تعالى وعكف على ذكره؟ يريد بذاك التقرب إلى مولاه ونيل رضاه، أليس يكرمه سبحانه ويغفر ذنوبه ويحفظه من الحوادث والآفات، ويستجيب دعاءه؟

إنه الشرك بعينه، إنها عبادة غير الله تعالى، لا تدعوا مع الله غيره، فربكم قريب منكم يجيب دعاءكم فاسألوه، فإنه لا يمل من السؤال

"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يرشدون". البقرة185

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله؛ واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح

ولا تبك عن ماض وترجو قوادما فما ثم إلا حاضر إن تفوت
فإن قلت دهري من ثلاث دحرته وفي حسرة تحيى ويأس ولهفة
ولا تنتظر موتا وقد مت آنفا ولا ترتقب من بعثة قد تقضت
فلا وقت إلا واحد في ثلاثة ولا حكم إلا حكمه في قضيتي
فقد فت في الألواح من قبل موعد ولحت بآجال وغبت بقدرة
وما موضع في الكون إلا أقامه بوهم بديل عن بديل وهيأة
عرفت بأني خالد في منامة خلت من منون كي أموت برقدة
فما هذياني ما هذيت بكبوتي بمفن كلاما قلته عند نبوتي
يجوز علي الدهر من عهد آدم وأبعث حيا في الحساب بغفوتي
سجل طوى عنا كتابا إذا انتهى من البسط قدرا من سطور رديئة
تبدل أرض غير أرض بأرضنا ويحشر قوم في حصون منيعة

ثم يتناول الشيخ موضوع الوقت بالكلام ويقول: فلا تبك عن ماض وترجو قوادما، يريد: فلا تحزن وتتحسر على فاتك في الماضي، وترجو بلهفة أشياء تتمناها في المستقبل، وهي ما أسماه بالقوادم، لأن أصل القوادم ريشات في مقدم جناح الطير، عكسها الخوافي، ويريد بها الشيخ الأيام القادمات جمع قادم أي الآتيات؛ فإن الوقت وقت واحد. وقوله: فما ثم إلا حاضر إن تفوت، أي فما هناك إلا زمان واحد، وهو الحاضر، وقوله: إن تفوت، أي إن قلت هناك زمان فائت، والمراد: إن آمنت بالماضي من الزمان

واستنادا إلى هذا المبدأ الذي ذهب إليه الشيخ، وهو وحدة الزمان، واعتباره كله حاضرا، وكفر بالماضي والمستقبل، يقول: فإن قلت دهري من ثلاث

دحرته، أي إن قلت أن زمانك يتكون من ثلاث: ماض وحاضر ومستقبل، فقد دحرته، بمعنى أبعدت فهمه عنك ودفعته

وفي حسرة تحيى ويأس ولهفة، أي إن قلت أن الزمان ثلاثة فستحيى في حسرة على ما فاتك ويأس من نيله، وتتلهف على أشياء تتمنى الحصول عليها في المستقبل.

ومجمل القول، ستكون رهين الوقت عبد الأزمنة، تؤثر فيك بمحدثاتها ومجرياتها.

فلا تنتظر الموت ولا تخفه، لأنك بإيمانك بأن الزمان حاضر وبأن المستقبل لا يأتي بالموت ولا بغيره، فمعناه أنك ميت حي في آن واحد، فقد مت آنفا، أي سابقا، فماذا تنتظر وماذا تخاف؟

ولا ترتقب يوم البعث يأتي في المستقبل، إذ ليس هنالك مستقبل، أليس البعث قد أتى وتقضى؟

فلا وقت إلا واحد، ولا تقل ثلاثة، وكأنه يقصد بأن من آمن بالأزمنة الثلاث، فقد ثلث الوقت، وكفر بوحدته، وكأنه أشرك بالله الواحد الأحد وثلثه، كما ثلثه النصارى. قال سبحانه:"لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من اله الا إله واحد".المائدة75

ولا حكم إلا حكمه في قضيتي، أي لا يكون إلا ما قضاه الله تعالى وقدره فيما يسري علي في هذه الدار، وما يخصني من قضايا وأحداث

فقد فت في الألواح من قبل موعد، ويقصد بالألواح ما سطره الله تعالى في اللوح المحفوظ عنده، فكل ما قضاه وقدره من أمور البرية، مثبت فيه من قبل أن يكون ويأتي موعد إيجاده وتدبيره

"ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير لكي لا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور". الحديد21-22

وقوله: ولحت بآجال وغبت بقدرة، أي ظهرت إلى الوجود في الوقت المسطر لظهورك في اللوح المحفوظ، ومت بقدرة الله السميع العليم، وفق قضائه وقدره

ثم ينتقل الشيخ للكلام على المكان، بعد أن أنهى الكلام عن الزمان، لأن الوجود زمان ومكان، ويقول ما معناه: بما أن جميع الأمكنة والمواضع في هذا الكون أقامها الله تعالى على شكل وهم وصورة

ويقول بأنه عرف وتوصل بإيمانه بما سبق ذكره مما يتعلق بالزمان والمكان. استنادا إلى ذلك، عرف أنه خالد لا يموت، في حلم ومنام، وليس حقيقة؛ وحتى الموت، فسيأتي هو الآخر حلما لا أقل ولا أكثر

يقول: فما هذياني ما هذيت بكبوتي: والهذيان، من هذى يهذي، كلام لا يفهم ولا يتقبله العقل، ينطق به المريض والمجنون والسكران. قال علي كرم الله وجهه في حد الشارب: الرجل إذا شرب الخمر سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فاجلدوه حد المفتري. انتهى

والكبوة من كبا يكبو، بمعنى عثر من العثرة والتعثر

يقال: لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، ولكل صارم نبوة

والمراد: كل ما كنت أقوله من تثليث للوقت، هو لغو وهذيان لا معنى له، وقد كنت أقول ذلك في كبوتي، أي في تعثري وجهلي، وكل ما قلته آنذاك، ليس يؤثر ويلغي ما أدركته لما آمنت ووحدته في نبوتي، أي في تعقلي، لأن النبوة عكس الكبوة كما اقتضاه الطباق، وهي في الأصل ما ارتفع من الأرض، والمراد به الرشد ورجاحة العقل وسموه

وقوله: يجوز علي الدهر من عهد آدم، أي صرت بتوحيد دهري أعيشه كاملا ماضيه وحاضره ومستقبله، من عهد آدم إلى أن يأتي الله بأمره، أعيشه في الحاضر، حاضر لا يزول، وكأنني أشهده وهو يمر أمامي ويعرض علي

وقوله: وأبعث حيا في الحساب بغفوتي، يريد، وكأنني واقف في الحساب يوم القيامة، وأنا لا زلت حيا أرزق في الدنيا، كل هذا يحدث في غفوتي، والغفوة النومة الخفيفة، تقول غفوت غفوة، وأغفيت إغفاء، وهما سيان

لأنه سبق وأن مثل الدنيا بالحلم، فهو حي في دنياه، يحلم بأنه بعث يوم القيامة ووقف مع الواقفين من أجل الحساب

وقوله: سجل طوى عنا كتابا إذا انتهى، أي كأن الدنيا ومجرياها كتاب مبسوط، إذا جاء الله بأمره طوي هذا الكتاب بما فات من أمور الخليقة وشؤون التدبير، سطورا رديئة، أي مبتذلة المعاني، بما جناه البشر في الدنيا من مخالفات وأهوال يندى لها الجبين؛ وأصل السجل كتاب العهود، يجمع على سجلات؛ وقيل: السجل الكاتب، وهو المقصود في كلام الشيخ. وفي التتريل: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين".الأنبياء103

فإذا جاء يوم الحشر، تبدل أرض بأرض، ويعني بذلك تبدل أرضنا بأرض الحشر. قال الله تعالى: "يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات". إبراهيم50

ويحشر أقوام أقوياء، ولو كانوا في حصون منيعة

قال الجعفي بعد ذلك: لما خلق الله عز وجل السماوات والأرض لم تكونا على ماهما عليه عند إنزال آدم وحواء الأرض، بل كانت السماوات سماء واحدة ممتدة مترامية بلا فواصل ولا حدود، كانت رتقا، خواء شائعا لا أقل ولا أكثر، فقسمها إلى سبع طبقات، أي سبع سماوات، وهو المقصود بقوله تعالى: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طايعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم".فصلت10-11

وكانت الأرض ملساء ففتقها، فصار بها فجاج ومفاوز، وجبال وأنهار، وهو المقصود بقوله تعالى: "والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم". النازعات30-33

وجعل الله الأرضين سبعا كالسماوات

ولكن الذي غاب عن الأفهام، هو أن الزمان هو الآخر كان رتقا ففتقه الله تعالى، فإذا كانت السماء رتقا بغير طبقات لا تضيء ولا تمطر، وإذا كانت الأرض رتقا لا تنبت، حتى فتقهما الله تعلى وهيأهما لكل ذلك، فإن الزمان كان هو الآخر رتقا، أي واحدا لا غير، بلا ماض وبلا آت، ففتقه الله تعالى، أي قسمه إلى ثلاثة أزمنة: ماض وحاضر ومستقبل، ولذلك أخبر سبحانه وتعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش في السابع، ليس لأنه احتاج إلى المدة في خلقه، ولكن ليربط فتق المكان بفتق الزمان، وإن شئت، ليهيئ الموضع ويهيئ الوقت في الآن ذاته، فسبحانه وتعالى من مبدع خلاق عليم، كيف قسم الزمان إلى سبعة أيام على غرار السماوات السبع والأرضين السبع، وكيف جعل الضوء سبعة ألوان، وجعل الصوت سبع علامات، وإن من وحدة في خلقه إلا وقامت على أساس السبعة، فتدبر رحمك الله

ولو بقي الزمان على ما كان عليه، أي بقي حاضرا بلا ماض ولا مستقبل، لاختلت حياة الناس على الأرض والتبست لديهم أمور الدنيا وأحكام التكليف، فكل هذا مرتبط بالأزمنة الثلاث وليس بزمان واحد

كل هذا الفتق، وكل هذا التقسيم، ما هو إلا تهييء للكون من أجل بني الإنسان، لكي يستطيعوا أن يعيشوا فيه، ولكي يتمكنوا من عبادة ربهم عز وجل

ومن عرف الله تعالى، لم يجعل الوقت حاكما عليه، بل الله لا وقت له، ألا ترى أن الوقت عنده تختلف أحكامه من عالم إلى عالم

"وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون". الحج45

"يدبر الامر من السماء إلى الارض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون". السجدة4

"تعرج الملايكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة". المعارج4

وما ذاك إلا لأنه سبحانه، لا يفرق بين الأوقات، فكل ما أخبر عنه تعالى مما فرط ومما هو آت، لم يفرط منه شيء ولن يأتي منه شيء، بل كله حاضر لا يغيب

ألا ترى أنه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، كثيرا ما يخبر عن الآتي بصيغة الماضي؟

كما في قوله سبحانه: "وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا". الزمر70

يخبر عن سوق الكافرين إلى جهنم بصيغة الماضي، وهم لم يساقوا إليها بعد، بل إن الساعة لا زالت لم تقم

وقوله سبحانه: "وكان الله غفورا رحيما".الفتح14

وتدبر ما قاله سيد التابعين أويس القرني، لما لقيه هرم بن حيان، فقد قال رضي الله عنه: يا هرم بن حيان، مات أبوك، وأوشك أن تموت، ومات أبو حيان، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ومات آدم، وماتت حواء. يا ابن حيان، ومات نوح وإبراهيم خليل الرحمن، يا ابن حيان، ومات موسى نجي الرحمن، يا ابن حيان، ومات داود خليفة الرحمن، يا ابن حيان، ومات محمد رسول الرحمن، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، يا ابن حيان، ومات أخي وصفيي وصديقي عمر بن الخطاب. ثم قال: واعمراه! رحم الله عمر، وعمر يومئذ حي، وذلك

في آخر خلافته، قال: فقلت له: رحمك الله، إن عمر بن الخطاب بعد حي؟ قال: بلى، إن تفهم فقد علمت ما قلت، أنا وأنت في الموتى، وكان قد كان.
رواه الحاكم في المستدرك

وغيره كثير، تركناه مخافة التطويل، وإلا فبالإشارة يفهم اللبيب

وانظر رعاك الله إلى رسول الله ﷺ ليلة عرج به، كيف أخبر بأحوال الجنة والنار، وأطلعه الله تعالى على أهلها، من يعذب منهم ومن ينعم، ومنهم من لا يزال في البرزخ لم يقف بعد للحساب، بل منهم من لا يزال حيا يرزق، ومن لم يأت أجل ولادته ولا زال لم تلفظه الأرحام

وما دام العارف لم ينفلت من قبضة تثليث الزمان، ما دام يقول ثلاثة، ماض وحاضر ومستقبل، مادام كذلك، فسيفوته فهم كثير من معاني الخلق وأسرار النشأة وأحكام التدبير

وفي ذلك بلا شك، قصور عن معرفة الله تعالى وتقدير قدره

"وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون". الزمر64

ومن وحد الوقت أدرك خيرا كثيرا، وهدأ باله واطمأن قلبه وغشيته الرحمة والسكينة واستوى عنده البلاء بالرخاء، فهو لا يخشى موتا وقد مات من قبل، ولا يرتقب الساعة، لأن الله تعالى ليس مقيدا بوقت يحكمه، وينتظر مرور السنين حتى يقيمها

كل ما جرى ويجري وسيجري في هذا الكون، مقيد في اللوح المحفوظ عنده منذ الأزل، متى حل أجله أظهره الله وبرأه. وقد قيل أن الله تعالى علم ما كان ويعلم ما يكون، ويعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون

وما تراه يا أخي في الدنيا، قيامه وبقاؤه رهين بحياة بني آدم وبقائهم، فيوم يموت آخر آدمي، لا يبقى للدنيا وجود بما فيها، لأن علة وجودها قد انتفت، فلا بقاء لها بعد ذلك

والأرض هي واسطة عقد النجوم والدراري والأجرام، وهي مركز السماوات السبع، لا بقاء لها إلا لأنها لا زالت باقية، وإذا زالت زالت وامحت، ولو أن الأرض هي الأخرى لا بقاء لها بغير سماوات، فهي تتفاعل معهن ويتفاعلن معها بماهو محسوس كالضوء، وبما هو خفي مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وكأن الأرض نواة لثمرة هي السماوات، فلا بقاء للثمرة بغير نواة، ولا معنى للنواة بغير ثمرة، فافهم

وما هذه المشاهد والحوادث التي تتراءى لك، سوى صور وخيالات، وكأنها أحلام تراها في منامك

وفي الحديث: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا".

ولما وحدت الوقت، وشهدت الثلاثة واحدا، ترامت عندي الأزمان، والتقت بين يدي الدهور، وكأنها رق منشور

فهذا إبليس اللعين يغوي آدم وحواء، وهذا قابيل يقتل هابيل، وهذه سفينة نوح عليه السلام، تجري في موج كالجبال، وهؤلاء ياجوج وماجوج من كل حدب ينسلون، وهذا يوم البعث والنشور، وهذا وهذا

ما عدت أتحسر على ماض لا يعود وأيأس مما فاتني فيه، وما عدت أترقب بتلهف آتيا يأتيني بخير

بيد أني إذا بكى الناس على ماضيهم بكيت لبكائهم، وإذا فرحوا بآت فرحت لفرحهم، وما بكيت ولا فرحت إلا لأرضيهم، وإلا فعلام أبكي، ومافاتني شيء؟ وبم أفرح وما عاد يلقاني شيء؟

أنا أتكلف البكاء وأتصنع الفرح، حتى أستطيع أن أبقى بين الناس

كفى من الطواف

ففيما بقائي في محيط عبرته وفيما صدوري عن زماني وحقبتي؟

فإني رأيت الكون دون تلبس صغيرا تبدى في ظنوني وفكرتي

مللت طوافا في مواضع خلتني أراها كثيرا في ربوعي بقريتي

ولست الذي يبغي افتخارا وعزة بما جبت مما قد ترامى بسفرتي

وما خلت نفسي في الورى غير طارئ أسليهم ما أمعنوا في شريعة

وأغرب في قولي إذا ما تغربوا غرابيب سودا ناعقات بخربة

وما جئتهم بالوحي حتى ألومهم ولكن وحيي في صحائف غربتي

أضيء لهم صبحا تناءت شموسه وأحرق أضغاثا تلاشت بوهجتي

فهم لي شهود ما علي شواهد فإن يشهدوا لي لم يحيطوا بجنحتي

يقول: فما جدوى بقائي وعيشي، وأنا لا أنتظر شيئا؟ ولا أرجو شيئا، فكل شيء عندي لم يفتني، كل شيء تقضى وانقضى

وما جدوى صدوري؟ أي خروجي ورجوعي عن زماني وحقبتي، والحقبة من الدهر مدة منه لا وقت لها

فإني رأيت الكون مجردا على حقيقته، دون وهم ولبس والتباس، حتى بدا لي ضئيلا في ظنوني وأفكاري

فما عاد في دنياي ما يستهويني، وقد طفت في عوالم الملك والملكوت، طوافا كثيرا، حتى صرت أعاود الطواف على مواضع رأيتها من قبل مرارا، ليس بعيدا عن ربوعي بقريتي، والربع المترل ودار الإقامة، وربع القوم محلتهم

ولست أريد الافتخار وأدعي العزة بما خصني الله تعالى من طواف، وبما جبت في سفري المترامي البعيد

فما أحسب نفسي في الناس سوى طارئ، بمعنى حادث عارض، وكأني عابر سبيل، أسليهم وأروح عنهم، ما أمعنوا وبالغوا في التشرع والتكلف والإجحاف

قوله: وأغرب في قولي إذا ما تغربوا، أغرب برفع أوله وكسر ما قبل آخره، من الإغراب، أي أحدثهم بحديث غريب عنهم لا عهد لهم به، لأؤنسهم وأسليهم، إذا عانوا من الوحشة والاغتراب، فأصبحوا بذلك من شدة عنائهم وشقوهم غرابيب سودا، والغرابيب جمع غربيب، وهو الشديد السواد، وقصد بقوله: غرابيب سودا، أي متناهين في السواد، كالأغربة والغربان، هذه الغرابيب السود ناعقات، وهي استعارة مكنية حذف فيها المشبه به وهو الغراب، ورمز إليه بأحد لوازمه وهو النعيق، فقد أجاد الشيخ باستعمال الجناس في هذا البيت، ومثل الشيخ الناس وما يشعرون به بما يرمز إليه الغراب، وما يوحي به نعيقه، من هم وشؤم، في الخرابات والمواضع الموحشة

ولا أدعي أفضلية على الناس، فلست بنبي أوحي إليه بشرع حتى ألومهم وأؤنبهم على مخالفته، ولكن وحيي هو كلامي الذي أقرؤه من صحائف غربتي وانزياحي عن الوجود

أضيء لهم بالحق صبحهم المظلم، الذي تباعدت شموسه فلم تعد تسعفه بضياء.

وقوله: وأحرق أضغاثا تلاشت بوهجتي، أي كل ما يحسبه الناس حقا من أفكار زائفة يؤمنون بها، مثلها بالأضغاث، وهي الأخلاط من الأحلام التي لا معنى لها، هذه الأفكار الزائفة، وهذه الأخلاط، أحرقها بوهجتي، أي بناري، لأن الوهجة اتقاد النار واشتعالها، وألغيها، وأدعوهم لنبذها وهجرانها

قال الله تعالى: "قالوا أضغاث أحلام، وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين". يوسف44

فإن هؤلاء الناس شهود علي يوم القيامة عند الله تعالى، وحتى إذا شهدوا لي بالحق، فلست كذلك، فما ذلك إلا لأن الله تعالى ستر عنهم ما ارتكبت من جنح وذنوب، رحمة بي حتى لا أفتضح

قال الجعفي بعد ذلك: بين البقاء والصدور، أسعى، لا أثبت في مكان ولا أنتمي لأي زمان، وإن شئت: في البقاء أغمر جميع الأماكن، وأدغم جميع الأزمنة، فلا أنا في مكان، ولا أنا في زمان، وكأنني أتضمن جميع الأمكنة، وكأنني أطوي جميع الأزمنة؛ وفي الصدور أتناسى أنني باق، وأزول عن مكاني وزماني، فلا أتقيد بالأول، ولا أنقاد للثاني؛ أصير أنا، وأنفض عني غبار الأحكام والتكاليف، وأغسل قدمي من أوحال التشريع

لما وجدت ما كنت أعيشه وأعيش فيه ليس كما أظن، ما عهدته بهذه الضآلة، ما عهدته بهذا الابتذال، كدت أنخدع بجعجعته، وكاد ينطلي علي انتفاشه

أما وقد عرفته كما هو، فما عاد يخدعني، وما عدت ينطلي علي بما ليس هو

مللت البقاء، برمت بالطواف. إن قلت: ابق حيث أنت. لم أستطع، لأن الباقيات يئست رغم توددها من اهتمامي.

وإن قلت: طف، ما عاد الطواف يسليني، وقد أصبحت أجواء طوافي تتردد علي مرارا ومرارا، ولا تكفيني

لم أعد أشتاق للعبور، وقد عبرت وعبرت حتى مللت ما تكرر من مناظر، فما عادت تستهويني، لأني لا أحب أن أكرر رؤية ما رأيت مما لم يتجدد فيسلي، وإنما يبلى بالنظر والتملي

ولا أدعي بعدم استقراري على حال، أنني أفضل قومي في شيء، فمهما طفت فيما لم يطوفوا، وجبت ما لم يجوبوا، لا يجديني ذلك من شيء، ولا يزيدني فضولي سوى ملالا

وإنما أنا فيهم مجرد حدث طارئ، أتسلل إليهم خفية من حيث لا يشعرون، أضوع فيهم بنسائم التحرر والانطلاق، أضيع بينهم كالأماني، كي أخفف عنهم ما يعانون في سجنهم من شقوة وعنت، بما جنوه بتشرعهم وتشددهم في الدين

وإذا تنكروا لنسائمي، ولم يلتفتوا لأماني، وطغى سوادهم على بياضي، وجن ليلهم على نهاراتي، أغربت لهم في قولي بما لم يعهدوه، أهدل في خراباتهم هديل الحمام، وأصدع في وحشة الخراب، وأسكت شؤم النعيق، وأمسخ الغربان عصافير، حتى أحيل خريفهم ربيعا، ومآتمهم بشرا وحبورا

ولا أحسب نفسي فيهم نبيا، وإنما لي وحي وكتاب، وحيي ما تحقق بعد تلبسه، وكتابي سور الغربة والاغتراب التي نزلت علي بعد أنسي باليباب واستئناسي بالسراب

أضيء لهم صباحات خانتها شموسها ولم تعد تشرق، وأدعوهم للكفر بما يحسبونه حقا، وإنما هو أضغاث أحلام، وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين

لا أقلل من شأنهم، لأن شأنهم عند الله عظيم، فهم علي شهود يوم القيامة، فعسى أن يشهدوا لي بخير

وإن لم يشهدوا لي سوى بالخير، فذلك ليس لأنني بريء من الشر، وإنما لأن الله تعالى أراد بي خيرا، فستر عنهم شري حتى يرحمني

بل عباد مكرمون

ومن سائرات بالبشارة عنده تروح وتغدو في حوائج سرت
تزين أجواء الهدى ما تنزلت تبشر أحبابا رضوا بالبشارة
حمائم حامت في شجوني وأجذبت كوامن مني هاجها ما تغنت
تحب عباد الله حب يمامة وتكبر من شاني وتحفظ حرمتي
وتشهد أحبابا شكوا في تودد وتخبر عنهم من إذا ود ودت
وتسأل غفرانا لقوم تدرجوا وتشفق من قوم تمادوا بقسوة
وهذي السما مفروشة من ملائك سبيحهم كالنحل طن وأطت
وليس بمحص عدهم غير واحد وما منهم إلا مطيع بخشية
يحفون بالعرش الذي زان نوره بياضهم حسنا فتاهوا بزينة
لعمري فراشات تناهى جمالها تطير بأحلامي فتزداد حيرتي
وأسراب ورق في سماء تتابعت فوارت أديما بالجمال وغطت
وجوههم طهر تبدوا كصبية وأنظارهم إن ينظروا مثل صبية
هم البرءاء البيض منا سريرة هم الحنفاء الصيد أولوا المكانة
فمن أبصروهم كان ذاك بشارة تنزلت الأملاك بالإذن هلت
نظرت إليهم نظرة مت بعدها ولما حييت ازداد شوقي لميتتي
صفوف تناهت في اتساق مهابة فلله ما خطب الملائك صفت؟

يقول: ومن سائرات بالبشارة عنده، والواو هنا واو الابتداء، وتسمى واو الاستئناف لا محل لها من الإعراب، بعدها جار ومجرور، وتقدير الكلام وما عنده من سائرات

يقصد سيارات من الملائكة يسيرون بتبليغ البشارات للمؤمنين. وفي الحديث: "فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم".

تسير هذه السيارات من الملائكة لكي تبشر المؤمنين برضا الله تعالى وتعدهم برضوانه

وقد خلقها الله تعالى بهذا الجمال الفائق، حتى تزين أجواء الهدى، أي عالم الملكوت، متى تنزلت على أحبابه استبشروا برؤيتها وفرحوا ببشارتها

وقوله: رضوا بالبشارة، هو دعوة من الشيخ المؤمنين إلى قطع مراحل السلوك إلى مالك الملوك، وعدم القناعة بالبشارة والسكون إليها، بل السير إلى الله تعالى وحده، والطمع في قربه ورضاه

وقوله: عنده، أي أن هؤلاء الملائكة الذين عند الله تعالى في حضرة المهابة والجلال، والكرامة والكمال. وفي التنزيل: "إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون". الأعراف206

ثم يمثل هاته الملائكة في سيرها وغدوها ورواحها، كأنها حمائم تحوم وتطير في شجونه، إلى أن أجذبته، أي أخذته من نفسه، وملكت عليه لبه، وهيجت مكامن شوقه، بما تغنت بذكر الله تعالى وتسبيحه والتقديس له

ومن خصال الملائكة أنهم يحبون عباد الله تعالى حبا خالصا بريئا لا تشوبه شائبة، وكأنه حب يمامة، واليمامة جمع يمام، وهو الحمام الوحشي، كأن حبهم للخلق حب يمامة تاقت للأيك والماء والشجر

قوله: وتكبر من شأني، بمعني تعلي من شأني لدى الله تعالى، وتحفظ حرمتي، أي تعزني وتكرمني، لأنني من بني آدم، وهم الذين شرفهم المولى وجعلهم خلفاء في الأرض

قوله: وتشهد أحبابا شكوا في تودد، أي أن الملائكة يحضرون أحبابا لله تعالى يبثون إليه الشكوى في حب وتودد، ويسألون حبه ووده

وتخبر الله تعالى بأمرهم، وهو أعلم، وتحبهم هي الأخرى، لأن الله تعالى أحبهم وقربهم إليه، وتسأل العفو والغفران لقوم تدرجوا، أي تقدموا في الكبائر على مراتب ودرجات

قوله: وتشفق من قوم تمادوا بقسوة، أي أن الملائكة عندما ترى ما يتمادى فيه الذين قست قلوبهم من منكرات، من مجاهرتهم الله تعالى بالمعاصي، تشفق منهم، أي ينتابها الخوف والإشفاق من الله تعالى، وتترعج من تجرئ هؤلاء القاسية قلوبهم على مخالفة مولاهم وانتهاك حماه

ثم يقول: وهذي السما مفروشة من ملائك، يعني بذلك أن السماء عامرة بالملائكة، يسبحون الله تعالى ويقدسون له، حتى ضجت السماء بتسبيحهم الذي شبهه بطنين النحل، وأطت من كثرة ازدحامها بهم عليهم السلام

وأط، من الأطيط، وهو صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها. قال الأعشى:

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا   ولست ضائرا ما أطت الإبل

وفي الحديث: "أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع، إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله".

هؤلاء الملائكة، لا يحصي عددهم ولا يقدر على عدهم إلا الباري عز وجل، وهم يطيعون الله تعالى في تبتل وخشية. قال الله تعالى: "والملايكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يومرون". النحل49-50

ثم يشير الشيخ إلى حملة العرش الثمانية الذين يحفون بعرش الرحمن، ويزيد نوره بياضهم حسنا وزينة، يتيهون به ويجلون

ثم مثلهم وكأنهم فراشات تناهى جمالها، أي بلغت من الجمال منتهاه وغايته، فراشات تطير بأحلامه، أي وكأنها بكيفية طيرانها اللطيفة، وهو يراها، حلم

جميل من أحلامه بعيد عن الواقع، فيزداد دهشة وحيرة من شدة تفكره في بديع خلق الله تعالى

وكأنهم أسراب ورق تطير في السماء، يتبع بعضها بعضا، والورق جمع ورقاء وهي الرمادية، ويراد بها هاهنا الحمامة

حتى وارت وغطت أسراب الحمام هذه، أديم السماء، بأديمها

وجوههم طهر ونقاء، تعلوها البراءة، وكأنها وجوه الصبية، وأنظارهم ساهمة بريئة كأنظار الصبية الصغار

هم البرءاء، أي البريئون الأبرياء من التهم والمخالفات. وفي التتريل: "إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله". الممتحنة4

وهم البيض منا سريرة، أي أن سريرتهم بيضاء نقية لا يحملون حقدا ولا ضغينة

قوله: هم الحنفاء الصيد أولوا المكانة، الحنفاء جمع حنيف، إذا كان على دين إبراهيم الخليل عليه السلام، والمراد موحدون مذعنون لله تعالى

والصيد الأسياد

والمراد: هم الموحدون الذين يقدرون قدر الله تعالى ويهابونه، يمجدونه ويبجلونه، الأسياد أهل المكانة العظمى، بما بوأهم ربهم من منازل الرضا والقرب من الحضرة المطهرة

فمن أبصرهم من المؤمنين، كان ذلك بشارة له من ربه تعالى بالنجاة وحسن الخاتمة

ولا يتترلون ولا يهلون إلا بإذنه تعالى. قال الله تعالى على لسانهم عليهم السلام: "وما نتنزل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا". مريم64

قوله: نظرت إليهم نظرة مت بعدها، أي أني لما أبصرهم مت موتتي الأولى، أي فنيت عن نفسي وغبت عن وجودي، ولما رجعت إلى نفسي، زاد شوقي لموتتي الأولى، أي لمرآهم مرة أخرى والتملي في طلعتهم البهية

يقفون صفوفا متراصة في اتساق وتنظيم مهابة من الله تعالى

قوله: فلله ما خطب الملائك صفت؟ يعجب من تصافهم، الذي لا يكون إلا لخطب جلل وحدث عظيم. وفي التتريل: "يوم يقوم الروح والملايكة صفا لا يتكلمون إلا من اذن له الرحمن وقال صوابا". النبأ38

قال الجعفي بعد ذلك: ملائكة الرحمن يا بني الإنسان، زينة الأكوان، حمامات صافات في أجواء المحبة والسلوان، وفراشات بهاؤها يسبي الأنظار ويخطف الأذهان

زين الله بهم عالم الملكوت، كما زين الروض الأنف بالطيور، والعيد السعيد بالفرحة والحبور

خلقهم ربهم رحمة لعباده، يحبون الناس ويستغفرون لهم الله تعالى

"الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويومنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبايهم وأزواجهم وذرياتهم، إنك أنت العزيز الحكيم، وقهم السييات، ومن تق السييات يوميذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم". غافر6-8

ومتى رأوا مجاهرا لله تعالى بالمعاصي، امتعضوا وأشفقوا من الله تعالى، لأنهم يعجبون من قوم يعصون باريهم، وهم يعلمون أنه قادر عليهم، يخالفون أمره، وقد أنعم عليهم بما لا يحصى من الآلاء والنعم

فمنذ خلق الله تعالى الملائكة، وهم لا يفترون عن تسبيحه والتقديس له طرفة عين، ولا يحصي عددهم إلا الله تعالى

والملائكة أنواع، على رأسهم ملائكة الحضرة، الذين منهم حملة العرش الثمانية، وقد فطرهم سبحانه على الطاعة، ونقى سرائرهم من القبائح والأدناس

وجوههم صافية بريئة كوجوه الأطفال الغراء الصبوحة، وأنظارهم فارغة من كل سوء ظن، نظراتهم محبة ورحمة ووئام

يبعثهم الله تعالى إلى عباده الصالحين يبشرونهم بالرضا وحسن المنقلب، حتى يؤنسهم ويريح بالهم

"إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم". فصلت29-31

لعمري لو نظرت إليهم واستشعرت صفاءهم لاستحييت من تلبدك، وتبرأت من سوء ظنك، وتبت من إصرارك

لو نظرت إليهم محقت فيك نظرتهم ما خلفته فيك نفسك من رجس وأدناس.

لو نظرت إليهم خرجت من نفسك ومت موتة أحلى من الحياة، وإذا ما رجعت إلى نفسك، تمنيت أن تبقى ناظرا إليهم ميتا موتتك الأولى، حتى يأتي الله بأمره

ومن عادة الملائكة، أنهم يقفون صفوفا متراصة أمام الباري عز وجل، ولا يكون ذلك إلا في الأمور المهمة

ألا ترى أن الله تعالى سمى الملائكة صافات، وأنه تعالى يحب تراص تسوية الصفوف في الصلاة وتراصها في القتال

"إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص". الصف4

العرش والكرسي

ترفع عرش في خوالج إمرة ترامت إلى الكونين من كل وجهة

فمنه أساس الحكم فيما تصرفت سلاطين عادت من هداها ببيعة

يخالجني منه القوائم بعدما تنازلت عن حكمي وهمت بخلعتي

أقوم إذا قامت أغالب غيرتي وأقعد عن حقي قعود المثبت

ولي صولجان إن غشتني إمارة أهش به إن ما تحامت حميتي

ولي هيكل في رائعات تروعت بروعي وكرسي يروع رعيتي

ملوك تولت حكمها في قضائه فما من ملوك والمليك بدولة

فإن شئت تصريفا فدونك صارفا عن الله فاصرف عنك تحظ بحظوة

ولا تنصرف عن خدمة الناس مسرفا ولا تتصرف فيه دون مشورة

ودع عنك كرسيا لقوم تنافست على ما أعد الله من فيض نعمة

وخذ غرفة من سلسبيل مهيئ ولا تغترف من بحر ملح بغرفة

قوله: ترفع عرش في خوالج إمرة، أي تعالى وتتره عرش الرحمن، وأصل العرش: سرير الملك، وفي التتريل: "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم". النمل23

والمراد بالعرش هنا عرش الرحمن سبحانه. "الرحمن على العرش استوى". طه4

وقد فرقوا بين العرش والكرسي، حتى روي عن ابن عباس أنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره. انتهى

ويريد الشيخ، أن عرش الرحمن سبحانه، ترفع وتتره في خوالج إمرة، أي في صدور عباده الذين هم تحت إمرته وإمارته، إذ لا عرش بغير إمرة وإمارة وحكم

فمفهوم العرش وتصوره لا يدرك كنهه، وإنما يختلج في الصدور بالريبة والشك،
وأصل الاختلاج الحركة والاضطراب، وفي حديث عدي قال له الرسول ﷺ:
"لا يختلجن في صدرك". أي لا يتحرك فيه شيء بالريبة والشك

ويقال: خلجت الخوالج، أي شغلت الشواغل

والمعنى: أن عرش الرحمن تعالى، تتره عن كل ما يصفه به الواصفون، وترفع عن كل ما يخطر على قلب بشر، وإنما اختلف في ظنون الناس وفي صدورهم، وشغلهم أمره وهالتهم عظمته

كما أن إمارة هذا العرش العظيم، التي تحت حكمه تعالى، ترامت إلى الكونين الظاهر والباطن، وعمت العالمين، عالم الملك والملكوت، وأحاطت بهما من كل الجهات

وقوله: فمنه أساس الحكم فيما تصرفت: أي أن أولياء الله تعالى، تصرفوا في العالمين استمدادا من العرش، فهو أساس حكمهم، ولذلك وصفهم بالسلاطين، التي عادت من هداها ببيعة، أي نالت من التزامها بأوامر الله تعالى والبعد عن نواهيه، وبموالاتها الله تعالى، نالت بذلك تصرفا في العالمين، وحكما في قضاياهم، وكأن هؤلاء الأولياء سلاطين عادت من هداها وتقواها ببيعة رعاياها

وقوله: يخالجني منه القوائم بعدما: أي أن قوائم العرش تخالجني وتضطرب في روعي وتقوي عزيمتي، وتزيد معرفتي بصاحب العرش سبحانه العلي العظيم

أقوم إذا قامت أغالب غيرتي، أي إذا اشتد قيام قوائم العرش في روعي، وأوحى لي قيامها بقيوميته تعالى، أهب مغالبا ودافعا غيرتي وما تتمناه نفسي من حكم لدى غيري، ولا أطالب بحقوقي مهما سلبت مني، بل أقعد عن طلبها قعودا لا أقوم بعده، وكأنني مثبط ومثبت إلى الأرض

قوله: ولي صولجان إن غشتني إمارة، والصولج والصولجان والصولجانة، فارسي معرب: عود معوج، والجمع صوالجة

وكان لكل ملك صولجانه، لذلك يقول أن له صولجانا، كناية عن الملك، ولو أنه تخلى عن الحكم و لم تعد له رعية؛ متى غشاه وانتابه حب الإمارة يهش بهذا الصولجان في الهواء، وقد شعر بحمية الملك وأنفته

قوله: ولي هيكل في رائعات تروعت، ويطلق الهيكل على دار العبادة، ومنه هيكل سليمان عليه السلام، وإلا فأصل الهيكل الضخم من كل شيء. قال امرؤ القيس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وتعبير الشيخ بالهيكل بمعنى دار العبادة، كناية على الخفاء والعظمة. يقول ما معناه: إن لي هيكلا عظيما غير ظاهر للناس، في رائعات تروعت بروعي، هذا الهيكل في رائعات، أي في شؤون تروع الخلق ولا يقدرون على تصورها ولا حتى تخيلها في أذهانهم، من شدة روعتها، هذه الرائعات تروعت، بمعنى هاجت واضطربت بروعي

ولي كرسي، كناية عن الحكم، يفزع رعيتي ويدهشها

قوله: ملوك تولت حكمها في قضائه، يشير إلى الأولياء الذين وهبهم الله تعالى التصرف في الكون، وطفقوا يتصرفون فيما قضاه الباري عز وجل، من شؤون البريئة في اللوح المحفوظ بمقتضى علمه الأزلي

ولو تأدب هؤلاء الأولياء مع الله تعالى، لتخلوا عن ملكهم وتصرفهم، لأن الملك لله الواحد الأحد، ولا ينبغي الملك في دولة سوى لملك واحد

"لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون". الأنبياء22

يقول: فإن شئت تصريفا فدونك صارفا، أي إذا أردت أن تتصرف في الكون فانظر ما يصرفك ويصدك عن الله تعالى، فاصرفه عنك وادفعه، تحظ بحظوة وقربى إلى الله تعالى

ولا تنصرف، بمعنى لا تنقطع عن خدمة الناس، لا تتخل عنها مسرفا، أي بالمرة، لأن الإسراف هو الإفراط في الشيء

وإن أوتيت التصريف من الله تعالى، فلا تتصرف في شيء لم يأذن لك سبحانه بالتصرف فيه

يقول: ودع عنك كرسيا لقوم تنافسوا، أي لا تعبد الله تعالى طمعا في أن ينصب لك كرسيا تحكم عليه، وتكون مثل قوم ما عبدوا الله تعالى لوجهه، وإنما عبدوه ليتقدموا على بني جنسهم، ويتصرفوا في أمورهم، حتى تنافسوا على ذلك، تنافسوا وهم يثابرون على الصوم والصلاة، في الحصول على القصور والحور واللؤلؤ المنثور، وما أعد الله لهم من أفضال ونعم يوم القيامة

وخذ غرفة من سلسبيل مهيئ، أي اغترف ملء كفك من سلسبيل مهيئ

وأصل السلسبيل عين في الجنة. ففي التتريل: "عينا فيها تسمى سلسبيلا". الإنسان18

والسلسبيل هنا، الماء العذب الزلال

والمراد، اغترف من الماء الصافي الذي لا تشوبه شائبة، ولا يكدر صفوه شيء، هيأه الله تعالى وأعده شربا معينا لأوليائه الذين يعبدونه سبحانه شكرا، وليس طمعا في الجنة وخوفا من النار

قوله: ولا تغترف من بحر ملح بغرفة، مطابقة سلسبيل، أي ولا تغترف من ماء البحر الأجاج، فتكون عقيدتك منحرفة، ويكون إخلاصك لربك في عبادتك مشوبا بالطمع والخوف

قال الجعفي بعد ذلك: "الرحمن على العرش استوى". طه4

والعرش مصدر المهابة والجلال، وغاية ما يتوق إليه المتولهون من عباد الله تعالى، لما يمدهم ببهاء السكينة، وعزة الإقبال، فيفنيهم في أنوار تجليات المولى، ويتفانون في ميادين البث والشكوى، لا يريدون بتفانيهم، سوى أن يبقوا متفانين فناء لا بعث بعده ولا بقاء

تتره العرش عن وصف الواصفين، واستعلى عن تطاول القاصدين، وترفع عن ظنون المتفكرين

والعرش غير الكرسي

العرش للأرواح والكرسي للأنفس

الأول ذات والثاني صفات، الأول حكمة والثاني أحكام، الأول حق والثاني شرع، الأول ملكوت والثاني ملك، الأول للأنفاس والثاني للناس، الأول ألطاف وعناية، والثاني أطياف ورعاية

والكرسي أظهر من العرش، وهو يمد العارفين بمدد الحكم والجبروت، والذين يستمدون منه يستشعرون ما يشعر به الملوك في رعاياهم من وله بالأمر والنهي، والحكم والتدبير

والكرسي هيئة العرش والعرش مغزاه، والكرسي مبنى الملك والعرش معناه، والكرسي للجلوس والعرش للاستواء، والكرسي منتصب والعرش منصوب

والعرش روح الكرسي، وسره وكنهه وحكمته

فمن تصور العرش كرسيا جنح إلى طلب الملك، ومن لم يلتفت للكرسي وتمسك بالعرش، جنح للافتقار للواحد القهار، وحبذ التذلل للمهيمن الجبار

ينازعني بهاء العرش ويختلج في روعي، وتضيء لدنياته أركاني، فأبصر المشرقين والمغربين، وأكشف العالمين، كلها تحت إمرة العرش، فأقول سبحان الله رب العرش العظيم

ما عدت أصبو للإمارة، وقد كنت مشغوفا بها زمان الكرسي، أما العرش، فما استطعت أن أحيط به، وإنما همست لي قوائمه بما لا أطيق من معاني الهيبة والجبروت، فعلمت حقا أن لا ملك إلا ملكه وأن لا حكم إلا حكمه، فرغت إلى عبوديتي، وكلفت بتذللي وافتقاري

وإن كان العرش أمرني بالملك، وحبب لي الحكم، فقد جعلت لي صولجانا، متى غشاني حب الإمارة، أهش بصولجاني في خلوتي حيث لا يراني أحد، لا أهش على شعب ولا على رعية، وإنما أهش على غنمي

وأقمت لنفسي هيكلا في روعي وكرسيا أدهش رعيتي، لأنها ظنت أني أجلس عليه وأحكم على الناس، وأنا لا أجلس عليه سوى في خلوتي جلوس الحاكم العزيز

أنا أتمثل وأتقمص، حتى أروح عن نفسي، وأخرج شغفي بالملك بعيدا عن الناس

أيها العارفون الذين تصرفتم في شؤون الخلائق كالملوك، عددتم أنفسكم ملوكا؟ أليس الملك الله؟

أيها المتصرفون في قضاء الله تعالى وقدره، ألا تستحيون من الله؟

فمن شاء أن يتصرف، فليحذر مما يصرفه عن الله تعالى، وليحقر نفسه، ويرجو رضا الله تعالى بتوقير الناس وخدمتهم

وإذا وهبه الله تصريفا، فلا يتصرف سوى فيما أذن له فيه مولاه

اعبدوا الله تقربا، اعبدوا الله حبا لوجهه، اعبدوا الله شكرا

فحسبي بأني بالغ أرض موطني وفي غربتي حسبي ابتهاجي بعودتي
فإن شئت أن تبقى غريبا بمهمه فما من بقاء هاهنا في بقية
أنا راحل قبل الرحيل وآيب إلى أن يجود الرب يوما بأوبة
فمالي وقد زاد الهوى في يراعتي أدافع أفكارا علي ألحت؟
فيا لائمي فيما هويت صبابة أترجو سلوي عن حياتي ومنيتي؟
ألم تدر أن العشق دين بطانتي أتدعو لكفري أم تحاول ردتي؟
حبيب متى ما ضاع حوتي وجدته وإن لم يضع حوتي برمت برحلتي
فإن ألفه أبصرت حسنا مكللا بما جل من سر سناؤه مبهتي
فأنسى بأني جئت أرجو حديثه وأبقى شريدا لا أبوح بكلمة
فقد غبت عن نفسي ولم أدر من أنا ولم أستفق إلا بغدوة بهتتي
تقربنا مي إذا ما تقاربت وإن ما قربنا أبعدت بعد قربة
فما القرب يدنيني ولا البعد دافع ولا الوصل يكفيني ولا الهجر مشطتي

ثم يتحول الشيخ للكلام عن نفسه ويقول: لا أريد ملكا ولا أطمع في حكم ولا تصريف، فيكفيني أنني سأبلغ يوما أرض موطني، أي يكفيني أنني سأموت يوما وألتحق بالله تعالى، فذلك وطني الأصلي، وذاك وطني الحق الذي أصبو وأحن إليه

وقوله: وفي غربتي حسبي ابتهاجي بعودتي، أي وفي دنياي التي ليست وطني الأصلي، وإنما هي مغترب، وأنا أحيى فيها، حسبي أنني متى ضقت ذرعا بالعيش فيها، وراودني هم المغتربين وغشيني الوحشة والاغتراب، تذكرت أنني لن أبقى فيها طويلا، بل يوما سأرحل عنها إلى وطني

وإن كنت تظن أنك ستبقى بهذا المهمه، يريد به الدنيا، لأن المهمه الأرض المقفرة؛ إن ظننت أنك ستبقى فيها، فما من شيء يبقى هاهنا، بل كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام

قوله: أنا راحل قبل الرحيل وآيب، أي سأموت وأنا حي موتتي الأولى، بفنائي عن نفسي وخروجي عن إنسيتي، لأرجع من موتتي الأولى، وعن فنائي إلى الناس، لأن الله تعالى لم يأذن بعد بموتتي الثانية، فلعله سبحانه يأخذني إليه ويتوفاني بعد حين

قوله: فمالي وقد زاد الهوى في يراعتي؟ يسائل نفسه ويقول: ما ذنبي إذا هويت الله وأحببته حبا شديدا، حتى انهالت علي الأفكار القدسية والحكم اللدنية، وزاد الهوى في يراعتي، أي في قلمي، والمراد في ما أكتبه للناس؟

فكيف أدافع هذه الأفكار وأرد هذه الحكم ولا أكتبها للناس، وقد نأى بثقلها احتمالي، وألحت علي في أن أخرجها لهم؟

فيا من تلومني عن حبي لمولاي، ما دهاك؟ ألا تعلم أن حب الله تعالى حياتي ومنيتي، فكيف تريد أن لا أحبه؟

ألم تدر أن الحب ديني ودين بطانتي؟ وبطانة الرجل خاصته، يريد أن الحب دينه ودين خاصته ممن يحيط به من أصحاب، وإذا دعاه أحد للتخلي عن حب الله تعالى، فلكأنما يدعوه إلى الكفر والردة

قوله: حبيب متى ما ضاع حوتي وجدته، الحبيب يريد به الله تعالى، إذا ضاع منه الحوت وجده، وهو معنى مستعار من قصة موسى مع عبد الله الخضر في سورة الكهف، إذ كان ضياع الحوت إيذانا بلقاء الخضر عليه السلام، وابتداء تلقي موسى العلم اللدني عنه، هذا العلم الذي اختص به الخضر عليه السلام

وكأن الشيخ يريد أن يقول أن الله تعالى، لا يمكن أن أتعرف إليه سوى إذا ضاع حوتي، وأذن لي بتلقي علم من لدنه يؤهلني للتعرف إليه

قوله: وإن لم يضع حوتي برمت برحلتي، أي وإن لم يضع حوتي، فذلك لأن الله تعالى لم يأذن لي بتلقي العلم اللدني الذي يعرف به، لأنني لست أهلا لتلقيه، وإذ ذاك سأمل من رحلتي وأتبرم بسفرتي وأعود إلى الديار

فإذا ما ضاع حوتي، ولقيت الله تعالى وتعرفت إليه، أبصرت وجها مكللا، أي متوجا بالجمال والجلال، يبهتني نوره ويأسرني سناه، وتدهشني روعته وبهاه، فأنسى ما جئت لأجله، وما أود سؤاله، وأبقى مشدوها في حضرة المهابة والجلال، مشدودا إليه لا أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة، حتى لا أكدر صفو حضرته البهية

حتى نفسي أغيب عنها وأفنى، وأجهل هويتي فلا أدري من أنا، ولا أستفيق سوى إن خرجت من حضرته، وغاب عني وجهه الكريم

قوله: تقربنا مي إذا ما تقاربت، أي أن الله تعالى إذا شاء أن يقرب إليه عبده دنا منه فاقترب، حتى إذا ما تقرب العبد أبعده بعد قربه، فيبقى متضرعا مشتاقا إليه يرجو أن يقربه مرة أخرى، وتلك شرعة الأحباب

قوله: فما القرب يدنيني ولا البعد دافع، أي مهما تقربت إلى الله تعالى، فلا أدنو منه، لأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير

ومهما ابتعدت، فهو لا زال معي لا يغيب عني، وهو تقابل بين المعنيين

قال سبحانه:"وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير". الحديد4

قوله: ولا الوصل يكفيني ولا الهجر مشطني، مقابلة أخرى تؤكد ما جاء في الشطر الأول، أي مهما وصلني ربي لن أكتفي، لأني كلما تقربت إليه كلما زاد شوقي إليه، وإذا هجرني سبحانه، فليس هجره بمشطني أي مبعدي، لأنني لا أفتأ أرجو قربه ووصله حتى يقربني ويصلني

قال الجعفي بعد ذلك: واستفقت بعدما صبحتني جيوش الهداية، سقتني خمرا أودى بهمومي وهواجسي، وأذهب ما ألم بي من ريبة وظنون

فلما استفقت ورجعت إلى نفسي ضقت ذرعا بهذا الوجود، وضاقت علي الدنيا بما رحبت، فلم أستطع البقاء، فشكوت لها ما أجد، فقالت: يوما تموت وتتخلص من سجنك وتظفر بحريتك

وبقيت متشردا في هذا اليباب، أعيش على الأمل، الأمل في الرحيل، وصار الأمل مبعث سروري وابتهاجي

ولما أردت أن أعرف لماذا برمت بالوجود، لماذا لم تعد الدنيا تسعفني، ولا من الناس من يواتيني، وجدت أن لي أحكاما وصفات لا تكون إلا للموتى، فعرفت أنني مت موتتي الأولى وما قضيت بها نحبي، رحلت قبل الرحيل، ولكني رجعت إلى الحياة حتى يتوفاني المولى

لا ترث لحالي، وحالك يدعو إلى الرثاء، لا تقل: دع عنك هواك حتى تعود واحدا من الناس

لا أريد أن أعود إلى الناس، وقد جربت أن أبقى معه، فدعني فيما أنا فيه، فليس ذلك من شأنك أيها اللائم

لما أعتقني من شرعي وردني إلى حقيقتي، بصرت بماهيتي من حيث لا أدري، ملك علي النفس والفؤاد رب العباد، لما نظرت إليه نظرتي الأولى، ذبت في أنواره وامحيت، فلم تعد شموسي تغرب و لم أعد أدر من أنا

تقرب إلي المولى، حتى إذا أمنت بعده، ابتعد وتركني حائرا ولهانا أرجو قرباه

القرب منك يا قريب غربني عن كل قريب، وما فتئت أقترب وأقترب فلا أدنو، والبعد منك لما أبعدتني حدثني بأشواق القرب عن جحيم التنائي، فاجعلني في المقربين

ومن الأرض مثلهن

بسبع أراض والسماوات سبعة أظل ظعينا لا أغادر حجرتي
فأنت بأرض في وجودك أول وأنت بأرض في اصطناع وكلفة
ولا تنس أرض الجن فيها معاشهم وللأوليا أرض إذا ما ترقت
وأرض بدت بيضاء كانت لمحشر وبرزخ أموات بأرض قريبة
وأرض خليل الله هبها لصبية رعاهم خليل الله فيها برأفة
أراض طواها فهي واحدة ولا يحيط بها إلا حكيم بقبضة
وما من سماء دون أرض ولا فضا فلولا نواة لم تذق طعم ثمرة
ولولا أناس هاهنا في تخومها تداعت سماوات وأرض ودكت
فأنت أساس الصرح فافهم رعاية حباك بها رب كريم وأخبت
يزول إذا زال الأساس وينتفي ويبقى بقاء ما تبقى لفترة

يعرض الشيخ للكلام عن الأرضين السبع، ويقول: أظل ظعينا، أي مسافرا بهذه الأراضي من أرض إلى أرض، وأنا لا أغادر حجرتي

يريد أنه لا يسافر سفرا حسيا، وأن هذه الأراضي لا تدرك بالقصد وشد الرحال وإعداد الزاد، ولكن يدركها من كشف الله تعالى عنه الحجاب بمنه وكرمه، ونشر له بساط ملكوته يسيح فيه ويجول، متفكرا فيما خلق الله سبحانه، مما لا يراه إلا من فتح الله بصيرته

وقد ثبت في القرآن الكريم، إخباره سبحانه وتعالى عن عدة الأرضين في قوله جل وعلا: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن". الطلاق12

يقول: فأنت بأرض في وجودك أول، ويعني الأرض الأولى، أرض الوجود الأول، التي تستقر فيها أنفس العالمين من الأحياء، ولا تخرج عنها

وأما الأرض الثانية، فهي أرض التكليف التي نحن فيها، فما هي إلا أرض مصطنعة بتكلف، أي ليست حقيقة، وإنما يقوم الخلق فيها على أساس الوهم والصور، فما هي سوى ظل للأرض الأولى، وإن شئت الأرض الأم

وبعدهما الأرض الثالثة، وهي أرض الجن، فيها مقامهم ومعاشهم

ثم تأتي الأرض الرابعة، أرض أولياء الله الصاحين؛ وقوله: إذا ترقت، يريد لا يدخلها الأولياء كافة، ولكن من ترقى منهم إلى مترلة عالية عند الله تعالى، وبلغ مقاما رضيا

والأرض الخامسة أرض المحشر، ووصفها الشيخ بأنها بيضاء، لأن رسول الله ﷺ وصفها بالبياض في الحديث الصحيح: "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد".

وعفراء، من العفرة وهي البياض

وقوله كقرصة النقي، أي كالدقيق النقي من الغش والنخال

والسادسة أرض البرزخ، وأصل البرزخ الحاجز، ويراد به ما بين الموت والبعث، وهي حيث تنتظر أنفس الموتى يوم الحساب

وأرض البرزخ، هي أقرب الأراضي إلى بني الإنسان، لسهولة ورودها من أرضنا عند النوم أو عند الممات، وسهولة ورود أنفس الأموات إلينا منها

والسابعة، أرض خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقوله: هبها لصبية، أي احسبها أرض صبية توفوا قبل الحلم، يرعاهم فيها خليل الله عليه السلام، رعاية الأب لأبنائه بحلم ورأفة

قال سبحانه: "إن إبراهيم لحليم أواه منيب". هود74

يقول: أراض طواها فهي واحدة، أي أن الله تعالى، طوى الأرضين السبع في أرض واحدة

من شدة عظمته وإتقان خلقه وصنعه، ولا يحيط بهذه الأراضي ولا يعلم بجميع تفاصيلها إلا العلام الحكيم سبحانه. وفي التنزيل: "وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون". الزمر64

ولو لم تكن هناك أرض، لما كانت سماء، ولما كان فضاء يعيش فيه بنو آدم.

وكأن الأرض نواة والسماء ثمرة، فلا تكون ثمرة من غير نواة، ولا معنى للنواة بلا ثمرة

قوله: ولولا أناس هاهنا في تخومها، أي لولا بنو آدم هاهنا في تخوم الأرض، لانهدمت السماوات والأرض، وتضعضعتا، ولم يعد لهما وجود، لأن بني آدم هم علة خلق السماوات والأرض، فبذهابهم تنتفي العلة، وبانتفائها ينتفي المعلول

يقول: فأنت أساس الصرح، أي البناء، أيها الإنسان، فافهم واعرف ما حباك به الرب المفضال من فضل ورعاية وتخصيص، واشكره وأخبت له وتضرع إليه.

قوله: يزول إذا زال الأساس وينتفي، يزول، الفعل عائد على الصرح، أي أن هذا الصرح العظيم، يزول بزوال أساس إقامته، ألا وهو الإنسان، وينتفي؛ ويبقى الصرح ما تبقى من الإنسان بقية لفترة، أي حتى حين، يوم يأتي الله بأمره، وهي مقابلة بين المعنيين

قال الجعفي بعد ذلك: تحدث كثير من العارفين فيما قالوا وكتب عنهم، أو فيما كتبوا هم أنفسهم في كتبهم، تحدثوا عن مغيبات كثيرة، منها ما ذكروه مما يتعلق بوصف الأرضين الست غير أرضنا، وذكر بعض أحوالها وعامريها

ولعل ولوج هذه الأرضين لا يتأتى بالسفر إليها، كما يسافر المسافر إلى البلد البعيد في هذه الأرض، بتهييء أسباب السفر وركبه وعدته

بل السفر إليها يتم بما أوتي أولياء الله الصالحين من كشف رباني ومدد روحاني، فتظهر لهم العوالم المكنونة وتتجلى الحكم المخزونة سافرة، لا يحجبها عنهم حاجب

ولا يكون ذلك إلا لمن اقتحم عقبة النفس، وصقل مرآة قلبه وطهرها من الأكدار والأغيار، فأشرقت عليه لوائح المعارف والأسرار، بما جرى وبما هو جار، فساح في الملكوت طائرا كالأطيار، يجوب بقاعا تخفت عن الأنظار، وقصرت عن إدراكها الأفهام والأفكار

وقد يتساءل القارئ العزيز ويقول: فما بال من لم يظهره الباري عز وجل على مغيباته، ولم يسح في أراضيه وسماواته، أليس له من الولاية نصيب، سوى إذا أبصر ديار الحبيب، وإلا فليس عليه تتريب؟

قلت: لا نعتبر الكشف شرطا في الولاية، ولا أمارة للهداية، بل كل من والى ربه كانت له منه عناية، كيف وكثير من أصحاب رسول الله ﷺ، لم ينكشف لهم حجاب، وهم في درجة الأصحاب، التي قصرت عنها درجة الولي مهما ساح وجاب، وإنما يكشف الله تعالى لبعض أحبابه كشفا مبينا، حتى يزدادوا يقينا

كما ميز سبحانه بين الرسل والأنبياء، فأطلع هذا على ما أخفاه عن ذاك، وهم صفوة الخلق وطوالع الحق

"تلك الرسل، فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات". البقرة251

ولنخلص بعد هذا التقديم الوجيز، إلى الكلام عن الأرضين التي نجعلها في عداد الغيب الأصغر، ونسمي الاطلاع عليها بالفتح الأصغر، أو الفتح الأول، لأن انكشافاتها لا تخرج عن أرضنا، بل هي فيها ومنها، وقد سبق أن ذكرنا في

بعض كتبنا، أن من لم يخرج في كشفه عن مشاهد الفلك الدوار، فلا زال لم يحصل على الفتح الأكبر

سبع أرضين طواها الباري عز وجل في واحدة

ولا شك أن كثيرا من الناس رأوا إحداها أو بعضها في منامهم، مرة أو مرات عديدة، إلا أنهم لم يتعرفوا عليها، وإنما ظنوا رؤاهم أضغاث أحلام

وأكثر ما يرى الناس في منامهم وجودهم الأول، أي الأرض الأولى، وهي أصل الوجود، ومستودع نفوس بني آدم، ليس لهم منها خروج

وإنما الأرض التي نحن فيها، وهي أرض التكليف، صورة عن الأرض الأولى، وظل لها لا أقل ولا أكثر، فما وقع في الأولى من أحداث يؤثر على الثانية

وإذا قلنا أنها صورة لها، لا نعني بذلك أنها على شاكلتها، بما فيها من مشاهد وأحداث، فإن الأراضي الست لا شمس فيها ولا قمر، كما هو حال الجنة

"متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا". الإنسان13

ألا ترى أن أغلب رؤاك في المنام، ترى فيها نفسك في مواضع تجهلها ولا تبصر فيها شمسا ولا قمرا؟

وإنما يكون فيها الجو صحوا كأنه ميقات الضحى، أو أقل صحوة مثل ميقات غروب الشمس؟

ومن أطلعه الله تعالى على أحوال الأرض الأولى، ومكنه من ولوجها، عقل نفسه وهو فيها، بمعنى أنه وهو يمشي في أرجائها، يعلم علم اليقين أنه في رؤيا، وليس في تيقظ وانتباه

ومن العارفين من يذهب إلى هذه الأرض، وهو متيقظ، بل وهو يعاشر الناس ويحدثهم في أرضه، ويجري في حاجياته وأمور معيشته

ومن دخلها رأى أهلها رجالا ونساء، لا أطفال فيهم ولا جن، متشردين فيها، يجتمع بعضهم تارة دون قصد من الاجتماع، ويفترقون تارة دون داع للتفرق.

ومنهم من لا يجتمع بأحد. ولا يستقيم لك معهم كلام، وكأنهم سكارى، يترنحون ويهذون، يجرون ولا يلوون على شيء، يضحكون ويبكون، ويفرحون ويغضبون، كل ذلك من غير دافع ولا داع

وما ذاك إلا لأنهم نفوس بغير أجساد، والنفس إذا خرجت عن جسدها، لم يعد لها تعقل ولا تدبير، لأن التعقل والتدبير، لا يتهيآن للنفس سوى في جسدها؛ ولأنهم كذلك في الأرض الأولى، مسيرون لا خيار لهم في قول ولا فعل، وإن شئت، في جميع أقوالهم وأفعالهم وخطراتهم وحركاتهم وسكناتهم، يتصرفون بغير إرادة

أما الأرض الثالثة، بعد الأرض الأولى، أرض الوجود الأول، والثانية التي نحن فيها، وهي أرض التكليف، فهي أرض الجن، فيها حياتهم ومعاشهم، وهي أشبه بأرضنا من غيرها، فيكفي أنها الأرض الوحيدة التي تحتمل التكليف مثل أرضنا، وأغلب الجن لم يغادروها منذ ولادتهم، ولا يعرفون لأرضنا وجودا

وكثير منهم يخرج منها إلينا، وكثير من الإنس يدخل من أرضنا عليهم

وذلك لأن الله سبحانه، جعل مفاوز وفجوات، بين أرض الجن وأرضنا، فقد يظهر الجن في بعض المواضع من أرضنا ويخرج للناس، ونجد أن من مر من هناك منهم، يحكي أنه رآهم وخرجوا له، وربما كلموه وكلمهم، أو اطلع على بعض أحوالهم وعاداتهم، فوجدهم يقيمون عرسا، أو يبيعون ويشترون في سوقهم، وما إلى ذلك

وأغلب ما يقع ذلك في مواضع معينة

وأما الرابعة، فهي أرض الأولياء، ومحج الأصفياء، ذكرها بعضهم فيما كتب، أو فيما كتب عنه، يتردد عليها أولياء الله الصالحون، أحياء وأمواتا، ولا يدخلها منهم إلا من اختارهم الله تعالى من أصحاب القدم الراسخة في الولاية، نفعنا الله تعالى ببركاتهم

وأرض الأولياء هذه، في تبدل وتغير، لا تستقر على شكل ولا على حال، يلتقون فيها ويتجاذبون أطراف الحديث، وهم نفوس بغير أجساد، ولا يكونون في كامل تعقلهم كما سبق أن أسلفنا من قبل

والخامسة أرض المحشر البيضاء، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، وأغلب من رآها بدت له بيضاء جرداء مستوية، لا جبل فيها ولا شجر، ومن سبقت له العناية من الله تعالى، أبصرها وقد حشر فيها الناس، وما أقل من أبصرها عامرة، اللهم إلا من كان وقته وقت الله، فساوى بين الأزمان، وتجرد عن الموضع والمكان

والسادسة أرض خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام، حيث يرعى من مات من الصبيان، ممن لم يبلغ الحلم

كل هذه الأراضي طواها سبحانه في أرض واحدة، يسافر إليها العارف وهو في حجرته لم يغادر، يسافر بنفسه بما وهبه الله تعالى من كرامات التصريف ومواهب التصرف في غيبه

هكذا تقطع عوالم الغيب كلها، ومن أراد أن يجاوز حدود السماء الأولى ليخلص إلى الثانية، فلا يحاول في الصعود إلى الأعلى استعمال ما اخترع من وسائل وناقلات طيارة، فإنه لن يخرج عن السماء الأولى، بل سيزداد انحدارا وتقهقرا، وهو يظن أنه في ارتقاء وصعود. وإنما تدرك السماء الثانية وما وراءها، من باطن المرء، ويتخطى سماء الدنيا إليها بتخطي نفسه وكسر جموحها، وخروجه عن ذاته وهويته، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى

إله وعبد

إله وعبد لا إله بغيره ولا سيد إذ لا من مسود بأمة
فلا يعرف الباري بغير بريئة ولا من غفور دون آت بزلة

ثم يباشر الشيخ الكلام عما يعتقد في الله تعالى، ويقول: إله وعبد لا إله غيره، أي ما ثمة إلا إله وعبد، وسمي سبحانه إله لأنه تأله على عباده، و لم يسم سبحانه وتعالى سيدا بغير مسودين من عباده.

قوله: فلا يعرف الباري بغير بريئة، أي أن البارئ عز وجل، يعرف مما برأ وذرأ.

وكثير من صفاته ترتبط بخلقه، فهو الخالق بما خلق، وهو الرازق بمن رزق، المحيي بمن أحيى، المميت بمن أمات

وكيف يكون الله تعالى غفورا، إذا لم يكن في ملكه عباد يأتون بالذنوب والزلات؟

قال الجعفي بعد ذلك: قامت الألوهية على وجود الخليقة، فإن قلت: إله، استدعيت سؤالا، وهو: على من؟ فيكون جوابه: على العباد

وإن قلت: الله هو البارئ، اقتضى ذلك وجود البريئة؛ وإن قلت: الله تعالى غفور، اقتضى ذلك وجود المذنبين العاصين

فما ثم إلا إله وعبد، وصفات الله تعالى تقتضي تعامله تعالى مع عباده بالخلق والفناء والحياة والموت، والرحمة والهلاك وما إلى ذلك

ففي وجود العباد وما يفعلون من خير وشر، وما يتصرف به ربهم عليهم في جميع هذه الأحوال، تظهر حقيقة الألوهية، وتنجلي أحكام النشأة والحكمة من الخلق والإيجاد

وقالوا: رسول الله لم ير ربه وحال حجاب بينه دون رؤية

حجابه نور أن رآه محمد وأنواره تعمي بصائر حدت

فلا تدرك الأبصار غير محاسن سرت منه فيما كان حسنا وشذت

فإن قلت: موسى لم ير الله جهرة ولكن تجلى للجبال فدكت؟

أقول: كليم الله هاله رؤية ولم يحتمل نورا تجلى بصعقة

ولكن رسول الله كان مؤهلا لرؤيته أن خص عنهم بختمة

ثم ينتقل الشيخ للكلام على رسول الله ﷺ وما يتعلق بقضية رؤيته الله تعالى ليلة الإسراء والمعراج، وما وقع فيها من خلاف مشهور لدى الفقهاء، تجده في محله، فلا داعي لإيراده في هذا المختصر، وعلى الله التكلان

ويجزم الشيخ أنه ﷺ رأى الله ليلة الإسراء والمعراج كفاحا، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم يبصره ولم يحط به من شدة نوره، فهو نور على نور. "لا تدركه الابصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير". الأنعام104

وقد قال العارفون المحققون في الدعاء: يا من ليس حجابه إلا النور، وليس خفاؤه إلا شدة الظهور

فقد رآه ﷺ، ولكن أنواره تعالى غشت بصره، فكانت حجابا، لأن نوره تعالى يعمي الأبصار مهما حدت وكانت ثاقبة

فغاية الأبصار أن تبصر محاسن الله تعالى فيما ابتدع وخلق من كل ما هو حسن، أليست محاسنه تعالى سرت في كل ما خلق بما يسبي الأنظار ويبهر العقول، وشذت، أي تفردت في الحسن والجمال؟

فإن قلت أن موسى عليه السلام، لم ير ربه جهارا، ولما تجلى ربه للجبل دك الجبل وتضعضع، فكيف يراه سيدنا محمد ويحتمل رؤيته؟

والله تعالى يقول: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه علي حكيم". الشورى48

قلت: إن موسى عليه السلام، هالته رؤية الله تعالى، و لم يتحمل أنوار الجلالة، فخر صعقا، وذلك لأن الله تعالى لم يهيئه لتحمل رؤيته، بخلاف رسول الله ﷺ، فقد هيأه الله تعالى وأعده لهذه الكرامة منذ صباه، لأنه سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام

قال الجعفي بعد ذلك: اختلف العلماء المحققون، في موضوع رؤية رسول الله ﷺ لربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج، هل رآه مباشرة، أو رآه من وراء حجاب

وقد ذهبنا فيما سبق ذكره، إلى أنه ﷺ رآى ربه جهارا، وغشيت أبصاره أنوار الجلالة فلم يستطع أن يتبينه ويحيط به

فساغ لنا بعد ما بيناه، أن نقول أنه ﷺ لم يحجبه حجاب، لأن الله تعالى لا يحجبه شيء، وإلا فكيف تحجب الحوادث الذي من صفاته مخالفته للحوادث؟

وإن شئت إلا أن تقول بالحجاب، فحجابه نور الجلالة

روى الإمام مسلم، عن أبي موسى يرفعه: "حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"

أما أن تتصور أن رسول الله ﷺ كلم ربه وناجاه من وراء حجاب محسوس، فذلك ما لا يليق بألوهيته تعالى، وإن احتججت علينا بقوله تعالى: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه علي حكيم". الشورى48

فمن أدراك أن الله تعالى، لا يعنى بالحجاب أنوار الجلالة، وقد أطلق اللفظ و لم يخصصه بوصف أو إضافة؟

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هـــل رأيت ربك؟ قال "نور أنى أراه".

أما موسى عليه السلام، فهو لما سأل رؤية ربه تعالى، وتجلى للجبل، دك الجبل وخر موسى صعقا

فانظر رعاك الله تعالى، كيف عبر الله تعالى بالتجلي، و لم يعبر بالظهور

وتعبيره سبحانه بالتجلي جمع تجليات، هو تعبير يخص الأنوار عن سواها، وإلا لقال سبحانه: فلما ظهر ربك للجبل، و لم يقل: **فلما تجلى**

و لم يستطع موسى عليه السلام، تحمل تجليه تعالى بأنوار الجلالة، لأنه لم يتخلص من طبائعه البشرية، كما تقدم ذكره عند الحديث عن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أما رسول الله ﷺ، فقد هيأه الله تعالى لرؤيته، وهيأه من قبل لتلقي الوحي "**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**". المزمل4

وكانت هذه التهيئة، من خصوصيات ختمته الرسل والأنبياء جميعا، كانت على أساس تنقية ظاهره وباطنه على السواء، وتعهده بالحفظ والصيانة منذ كان في أصلاب آبائه وأجداده

مهمة إبليس

ودعني وإبليس الذي في جهالة بما خصه الباري أمور الغواية
فلولا غرور كاد كيدا لآدم لما كان تكليف وبعض البلية
ولو يعرف الشيطان دور فسوقه لشاء جزاء عنه يوم القيامة
ولم يخلق الباري أبانا وزوجه لجنة خلد بل لأرض الخلافة
فقوله: إني قد جعلت خليفة بأرض، قبيل الخلق كان بمدة
صبيان والشيطان بالله حالف ولم يعرفا مكرا وخلدا بكرمة
فأغواهما إبليس بالصدق ماكرا وقد أقسم الشيطان صدقا بخدعة
وما ألحد الشيطان يوما ولا ادعى ألوهية أو سب ربا بنبسة
ولا زال يرجو من كريم تفضلا وما أيأس الشيطان كبر الخطيئة
وما ذنبه غير الغرور وسجدة أباها لغير الله من دون صفوة
وقاس محل النار بالطين خاطئا وفاتته روح شرفت بؤس طينة
وقال: أنا خير وأشرف عنصرا وما آدم إلا عجين بتربة.
ولكن صنيع الطين من شأن عارف وخلق بأيدي الله كان وحفنة
ولو كان ذا عقل لما كان عاصيا لرب عظيم ثم باء بلعنة
ولم يعص إلا عارفا أن ربه حليم بمن يعصي ويأتي بتوبة
أليس له في الآي تبرئة إذا أتى يوم جمع من أناس بخطبة؟
يخاف من المولى ويخشى عذابه ويفزع من أملاك رغم جرأة
وتلك خصال قد خلت من مكلف مشى في عناد وادعاء ألوهة
فلله كيد عاد بالخلد مكره على أمة سارت بأمر ووفت
فلو ما عصى الشيطان ربا وما غوى لما كان وعد بالخلود بسورة
فما كيده إلا ضعيف وواهن ولكن نفسي أزبدت وتقوت
حليفة إبليس غوايتها الهوى تريد شقائي إن برمت بثروة

فأوكل أمور النفس لله يا فتى ولا تحتقر نفسا على الفسق شبت

يقول: ودعني وإبليس الذي في جهالة، بمعنى دعني أخض في أمر إبليس لعنه الله تعالى، المعروف بالجهل والضلال

وقد خصه الله تعالى ووضعه في موضع الغواية

يقول: فلولا غرور كاد كيدا لآدم، ويقصد بالغرور بفتح الغين المعجمة، الشيطان لعنه الله تعالى، قال سبحانه: "ولا يغرنكم بالله الغرور". لقمان32

ومن أسماء الشيطان: الحارث والحكم، وكنيته أبو مرة، لعنة الله عليه والملائكة والناس أجمعين

والمعنى: فلولا كيد الشيطان لعنه الله تعالى، لما كان تكليف في الدنيا، وبعض الامتحان والبلاء. وقد وصف بلاء الدنيا بالبعض، لأن الله تعالى يقول: "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين". البقرة154

فقوله تعالى: بشيء، يقتضي التبعيض، فافهم

ولو عرف الشيطان بأنه بفسوقه كان سببا في الرسالة والتكليف، لطلب على فسوقه أجرا من الله تعالى يوم القيامة

واعلم أخي الكريم، أن الله تعالى لم يخلق آدم وحواء، للجنة الأولى، وإنما خلقهما ليمتحنهما وذريتهما في الأرض، حيث جعلهما وذرياتهما خلفاءه فيها، ألم يقل سبحانه للملائكة: "وإذ قال ربك للملايكة إني جاعل في الارض خليفة". البقرة29

فانظر رعاك الله، كيف أخبر سبحانه بأنه جاعل في الأرض خليفة، وهو لم يخلقه بعد

قال الشيخ: صبيان، بصيغة المثنى، يعني به آدم وحواء، صبيان والشيطان بالله حالف، وكأن الشيخ يلتمس لهما عذرا لمخالفتهما ربهما عز وجل، وأكلهما من الشجرة المحرمة

فقد سهل على إبليس لعنه الله تعالى إغواؤهما، لأنهما خلقا على فطرة، وكانا في حكم صبيين لم يختبرا المكر والخداع، وقد حلف لهما بالله تعالى، ولم يعهدا أحدا يتجرأ على أن يقسم بالله تعالى من أجل أن يغوي الناس

وقوله: ولم يعرفا مكرا وخلدا بكرمة، أي لم يجربا مكرا، ولم يكونا عالمين بأمر الشجرة المحرمة وبأنها تحمل سر الخلود حسب زعم إبليس لعنه الله تعالى، ويريد بالكرمة شجرة الكرم

ونعت الشجرة بأنها شجرة الكرم كما هو عليه أغلب المفسرين، وإلا فقد اختلفوا في نوعها كما هو مبسوط في محله

قوله: فأغواهما إبليس بالصدق ماكرا: أي غرهما لعنه الله تعالى وأقسم بصدق، رغم أنه يريد أن يمكر بهما؛ فإن قلت: فكيف يصف الشيخ ما أقسم عليه بأنه صدق؟ في قوله تعالى: "وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين". الأعراف19-20

قلت: قوله سبحانه على لسان إبليس لعنه الله تعالى: إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، فيه مفارقة وتخيير بأو، فإذا أكلا، إما أن يكونا ملكين، وإما أن يكونا من الخالدين؛ فلما أكلا من الشجرة، أصبحا من المخلدين، لأن الله تعالى لما أدخلهما هذه الجنة، لم يعدهما بالخلود، وإلا ما طمعا فيه بمعصيته. فحصل من ذلك أحد الأمرين، وهو الخلود، ولو لم يحصل الثاني، وهو أن يكونا ملكين، فكان كافيا في صدقه في وعده. ولو قال: إلا أن تكونا ملكين وتكونا من الخالدين، وعبر بواو العطف، بدل أو، لكان كاذبا في وعده لأن مقتضى التعبير بالعطف أن يحصلا على الأمرين معا، فتدبر

يقول الشيخ: ولم يثبت على الشيطان لعنه الله تعالى، أنه ألحد، بمعنى أنكر وجود الله تعالى، أو ادعى الألوهية، ولا سب ربه ولو بكلمة واحدة ينبس بها ويتلفظها

ولا زال يرجو من كريم تفضلا، أي أنه لا زال يطمع في عفو الكريم جل جلاله رغم كل ماجناه، وما أيأسه من غفرانه كبر خطيئته

وما ذنب إبليس لعنة الله تعالى عليه، سوى غروره لما أبى أن يسجد لآدم عليه السلام، من دون الله تعالى، رغم سجود صفوة الخلق كلهم جميعا، وهم الملائكة المكرمون عليهم السلام

قوله: وقاس محل النار بالطين خاطئا، أي أن إبليس اللعين، قارن بين عنصر خلقه الذي هو النار، وبين عنصر خلق آدم وهو الطين، والنار أشرف وأرفع وأخف من الطين، "قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين". ص75

وقد أخطأ إبليس في قياسه، لأنه نسي ما فاته من أن آدم، ولو أن الله تعالى خلقه من طين لازب، فقد شرفه عن غيره من المخلوقات، بأن نفخ فيه الروح، فشرفت هذه الروح فيه بؤس الطين ووضاعته

وفاته كذلك، أن الله تعالى شرف آدم بأن خلقه بيديه. "قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين". ص74

قوله: ولو كان ذا عقل ما كان عاصيا، أي أن إبليس لعنه الله تعالى، ينقصه العقل وتعوزه الفطنة، فهو جني، والجن خلقهم الله تعالى أقرب إلى البهائم منهم إلى بني آدم

فهو من أجل سفاهة عقله تجرأ على خالقه وعصاه، وهو يعلم علم اليقين أنه قادر عليه

ولو كان ذا عقل، ما ألقى بيديه إلى التهلكة، وباء بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين

وربما تجرأ وعصى ربه سبحانه، من علمه بأن ربه سبقت رحمته غضبه، ولعلمه بأنه هو الغفور الحليم، من تاب من بعد ذنبه وأصلح تاب عليه، إنه هو التواب الرحيم

فهاهو إبليس يخطب يوم القيامة، ويتبرأ في خطبته من أتباعه، وقد ذكر الباري عز وجل خطبته في كتابه العزيز، وقال سبحانه: "وقال الشيطان لما قضي الامر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم". إبراهيم24

فهو لعنه الله تعالى، يخاف الله تعالى ويخشى عذابه، ويفزع من رؤية الملائكة المكرمين رغم غروره وتجرئه. "فلما تراءت الفيتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب". الأنفال49

كل ما اجتمع في إبليس لعنة الله تعالى عليه، من خصال، مما ذكره الشيخ آنفا، لا نجده في كثير من المكلفين الذين عاندوا الله تعالى ربهم، وجاهروه بالمعاصي والمخالفات، بل منهم من ادعى الألوهية من دون الله تعالى، كفرعون وغيره والعياذ بالله

يقول: فلله كيد عاد بالخلد مكره، أي واعجبا كيف يكون ماكاد إبليس لآدم وحواء، سببا في وعد الله تعالى لنا بالجنة والنعيم المقيم؟

خلود لا يكون إلا للمؤمنين الذين ساروا بأمر الله تعالى، وعلى هدي رسلهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، ووفوا ما أتوا به من أعمال الطاعات والقربات

فلو لم يغو الشيطان أبوينا من قبل، ما جاء وعد بالخلود في آيات الكتاب العزيز وسوره، ومنه قوله عز وجل: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها، وعد الله حقا، وهو العزيز الحكيم". لقمان7-8

ثم ينعت الشيخ كيد إبليس بأنه ضعيف وواهن، كما وصفه الباري عز وجل بقوله: "إن كيد الشيطان كان ضعيفا". النساء75

ويقول: ولكن نفسي أزبدت وتقوت، أي أن النفس أشد خطرا من الشيطان، لأنها أزبدت وتقوت. وأزبد البحر، أخرج الرغوة وهي الزبد، ويقال: أرغى الرجل وأزبد، بمعنى انفجر غضبه فتهدد وتوعد. وتقوت من القوة

حليفة إبليس غوايتها الهوى، أي نصيرة إبليس وظهيرته، تغويني بالهوى والشهوات، تريد شقائي متى برمت بتروة من التروات، أي متى صددت ومللت، سولت لي بما يدعوني للتمرغ فيها

يقول: فأوكل أمور النفس لله يا فتى، يريد: أوكل أمرها إلى الله تعالى، واشكها إليه يتول أمرها، واسأله تعالى ألا يكلك إلى نفسك طرفة عين فترديك

ولا تحتقر نفسا على الفسق شبت، أي ولا تستهن بنفسك، وتقلل من شأنها، فإن الله تعالى يقول: "وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم". يوسف53

فقد تربت النفس على الفسق والفجور، وشبت على ذلك، ومن شب على شيء شاب عليه

قال الجعفي بعد ذلك: لا نتابع من نسب إبليس لعنه الله تعالى إلى الملائكة، واستدل بما لا يليق لهذا الاستدلال من كتاب الله تعالى

فمن القائلين بذلك من أتى بقوله تعالى: "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه". الكهف49

ليؤول قوله سبحانه: "إلا إبليس كان من الجن"، بأنه كان من الملائكة، لأن الجن هم طائفة من الملائكة الكرام

ولكن قوله تعالى على لسان إبليس لعنه الله: "قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين". ص75

واضح الدلالة في أن عنصر خلق إبليس كان من النار، ولا خلاف في أن الملائكة نورانية لا علاقة لها بالنار ألبتة، ومن حكمة الله تعالى في خلقه، أنه قصد أن تكون الأرض موقع الخلافة والتكليف، فوضع الأمانة على بني الإنسان لما عرضها عليهم وقبلوا تحملها

وحتى يعرف المؤمنين من غير المؤمنين، جعل كيد الشيطان لعنه الله تعالى ووسوسته اختبارا لهم، كما خلق البلاء ليعرف الصابرين من غير الصابرين

وأعد الله تعالى آدم وحواء، بأن سلط عليهما إبليس فأغواهما وصار لهما عدوا، فأهبطهم سبحانه جميعا إلى الأرض، لكي يبتدأ الصراع

هذا الصراع الذي لا يزال محتدما حتى تقوم الساعة، هذا الصراع، لولاه لما كان معنى للتكليف وتحمل الأمانة، ألا ترى أن آدم وحواء، كانا لا يزالان على فطرة يسهل إغواؤهما كما يسهل إغواء الصبيان؟ فهما لم يتدرجا من الصبا إلى الشباب، ولم تكن لهما طفولة، ولم يعاشرا أحدا ويختبرا المكر والخداع، ولم يكونا يتصوران أن هناك من يجرؤ على الحلف بالله تعالى زورا وبهتانا

ناهيك على أنهما رأيا إبليس وقد تجرأ على ربه وخالف أمره وعصاه، ورغم ذلك لم يطرده من رحمته

ولما دخلا الجنة وجداه فيها، لأنه لم يثبت في التتريل الحكيم أن الله سبحانه أمره بالدخول

فظنا أنه لعنه الله تعالى، يريد بهما خيرا، وأنه لهما من الناصحين، عندما أشار عليهما بالأكل من الشجرة، وأقسم لهما بصدق و لم يكذب، كما شرحناه آنفا، فأكلا

لقد علم الله عز وجل، بمقتضى علمه الأزلي، أن أبوينا لا محالة سيطيعان إبليس لعنه الله تعالى، للأسباب التي سبق ذكرها، هذه الأسباب التي براها الباري عز وجل وفق ما اقتضته حكمته وشاءته إرادته

ودليل ذلك أنه سبحانه، قال للملائكة قبل أن يخلق آدم: "إني جاعل في الارض خليفة". البقرة29

و لم يقل سبحانه: إني جاعل في الجنة خليفة

فتبين من ذلك، أنه جلت حكمته، خلقهما للأرض وليس للجنة

وإنما كانت حادثة المخالفة في الجنة، ذريعة للإهباط إلى الأرض، وكانت سببا للخصومة والعداوة بين الفريقين المتصارعين، آدم وذرياته، وإبليس وجنوده

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن إبليس لعنه الله تعالى، لم يسبق آدم وحواء إلى الأرض، كما ظن الكثيرون من أن الجن كان قبلنا في الأرض، فلا دليل على ذلك، ومن أراد أن يعرف دليل ما ذهبنا إليه في هذه المسألة، فليطالع كتابنا: أبواب الشيطان، ففيه كفاية وغنية عن النظر في غيره

هذا الشيطان الذي لا زال يحترق غيظا ويتعالى غرورا، ويسعى دائبا من أجل الإيقاع ببني آدم، لا هم له من ذلك، سوى أن يثبت لله تعالى، أنه خير من آدم وذريته وأشرف

هذا الشيطان، لا يدري أنه يعمل وفق ما أراده ربه تعالى، ويكمل ما قضاه وقدره

هذا الشيطان، لا يدري أنه طرف من لعبة التكليف

ولو علم الشيطان ضرورة المهمة التي يقوم بها، وجدواها في تمييز المؤمنين عن غير المؤمنين، لسأل أجرا من الله تعالى على مهمته يوم الدين

ولكن خانه العقل والتدبير، لأنه جني، والجن خلقهم الباري عز وجل من نار، فاتصفوا بصفاتها، واتسموا بخصائصها، بما في ذلك الخفة والتسرع وعدم الاستقرار

كما اتصف بنو آدم بصفات التراب، واتسموا بخصائصه من ثبات وتثاقل إلى الأرض، وميل إلى السفليات

ألا ترى أن الله تعالى خلقهم، أي الجن، أقرب إلى البهائم منهم إلى الإنسان، فكيف يكون لهم عقل الإنسان، وقد قال سبحانه: "لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم". التين4

فعندما استعمل لعنه الله تعالى عقله السافه، قاس الهيكل على الهيكل، ورأى أن الطين في الشأن من النار أقل، مما لا يقبله من تعقل، فاغتر وزل، وسجدت الملائكة، وأبى واستقل.

وفاته أن آدم خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه، وذاك سر تشربفه واستحقاقه السجود

ولم يأمر سبحانه ملائكته بالسجود لآدم، إلا بعد أن نفخ فيه الروح. قال سبحانه: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين". الحجر29

ولولا فتنة الله تعالى لإبليس لعنه الله تعالى، لبقي في الملإ الأعلى عابدا متبتلا، يحظى برضا ربه الكريم وينعم بقربه

فما ذنبه إلا الغرور

أليس شديد الخوف من الله تعالى، شديد الفزع من ملائكته الكرام؟

"فلما تراءت الفيتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب". الأنفال49

ومثل هذه الخصال، قلما نجدها في بني آدم، الذين لا يبالون بربهم عز وجل، بل منهم من أنكر وجوده تعالى، وألحد به، بل وادعى الألوهية من دون الواحد الأحد، والعياذ بالله

ولا زال الشيطان يرجو رحمة ربه، ويطمع في غفرانه، رغم غروره، لأنه خالط الملأ الأعلى، ويعرف أن الله تعالى رحمن رحيم تواب حليم

ودليل ذلك ما ساقه الباري عز وجل في كتابه العزيز من تبرئه يوم القيامة من أتباعه

ما كيد الشيطان إلا ضعيف أخي الكريم، ولكنني أحذرك من نفسك التي بين جنبيك، فإنها أشد عليك من شياطين الأرض أجمعين

"وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم". يوسف53

فالنفس مدخل الشيطان ونصيرته عليك

فهذه أول جريمة على وجه البسيطة، لما قتل قابيل أخاه هابيل، قال تعالى: "فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين". المائدة32

ولم يقل سبحانه: فوسوس له الشيطان بقتل أخيه، فثبت من ذلك أن النفس هي التي رغبت له قتل أخيه، وهي المسؤولة عن ارتكاب أول جناية قتل في هذه الدنيا

ومجمل القول، أن كيد الشيطان لعنه الله تعالى، كان سببا لوعد الله تعالى بالخلود في الجنة عباده المؤمنين

أمولاي...

أمولاي رفقا إنني في هواكم تفردت عن جنسي وأنكرت نسبتي
فمالي وحبا قد عهدت جلاله محا من وجودي ما تبقى بخفقة؟
فهل بعد حب البدر أحبب غيره وأرنو لنجم خافت في تشتت؟
وقد كنت أرضى في الجمال بنظرة إلى فانيات من وجوه حسيرة
فلما عرفت الحسن أشرق وجهكم على ليلتي فامتاز عن كل سحنة
وغبت جلالا عن جميلات حينا وراودني من بعد هجر وبغضة
فكيف طلعتم من مغارب أظلمت وكيف غربتم في الضياء بقبلتي؟
فجوبوا صدور العشق لست بعاشق ولا تأبهوا مهما صرخت لشهقتي
لعمري تفانينا بما في صدورنا تراتيل أشواق وعزف بزفرة
فما النار نار ما صليت بحرها وما البرد برد ما غطست بدجلة
فإن نصل حرا كان حر رواحهم وإن نشك قرا من رواحل راحت

يخاطب الشيخ ربه تعالى ويقول: أمولاي رفقا، أي ارفق رفقا، إني في هواكم، أي بحبكم والتوله في جمالكم وبهائكم، تفردت عن جنسي وأنكرت نسبتي، يريد: عدت فريدا في بني جنسي، ولم أعد أتداول مع الناس بما عهدوه في من قبل، وكأنني لم أعد إنسانا، وأنكرت نسبتي إلى بني الإنسان، وتنكرت لها، لأن هذه النسبة لا تتفق مع ما أنا فيه وعليه من أمارات العشق وجنون الهوى

قوله: فمالي وحبا قد عهدت جلاله، أي مالي ألام في حب عرفت أن جلاله محا ما تبقى من وجودي، بخفقة قلبي من الفرح والاشتياق للقاء الحبيب؟ وهو من ضريب قول المتنبي:

ما لي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم

قوله: فهل بعد حب البدر أحبب غيره، والبدر القمر التم الكامل، فهل بعد حب القمر بضوئه المنير الساطع، أرنو لنجم خافت في تشتت؛ ورنا يرنو، بمعنى أطال النظر إلى الشيء بسكون الطرف؛ والنجم بمعنى النجوم، والنجوم تجمع على الكواكب كلها، وقد يطلق النجم على الكوكب الواحد. وفي التتريل: "وبالنجم هم يهتدون". النحل16

وأراد الشيخ بالنجم هنا، مجموعة الكواكب المتشتتة على صفحة السماء ليلا

والمعنى: كيف أستعيض عن حب القمر الساطع نوره بحب كواكب خافتة الضوء متناثرة في السماء هاهنا وهناك؟

قال: وقد كنت أرضى في الجمال بنظرة، أي كان جمال الخلق يسلبني ويشدني إليه من النظرة الأولى، في حين أن هذه النظرة كانت إلى وجوه فانيات حسيرة، أي صاغرة بئيسة

فلما عرفت حقيقة الحسن بالنظر إليكم، أبصرت وجهكم مشرقا بالبهاء في ليلة جهلي والتباس الحسن علي بالقبح، فامتاز وجهكم، أي تميز، عن كل سحنة، يريد تميز عن كل وجه غيره من تلك الوجوه الحسيرة

وفي التتريل: "وامتازوا اليوم أيها المجرمون". يس58

وأصل السحنة بشرة الوجه

قوله: وغبت جلالا عن جميلات حينا، أي أنني من شدة ابتهاجي بجلالكم، لم أعد أر أي حسن مع حسنكم، وكأنني غبت عن جميلات حيي، فلم أعد أحس بوجودهن، وكأنني غير موجود بينهن

وراودنني من بعد هجر وبغضة، أي ولما برمت بهاته الجميلات، ولم أعرهن اهتماما، راودنني عن نفسي، من بعد أن كنت أسعى في أثرهن أسأل مودهن، وكن يبادلنني بالهجر والبغض، أي بالجفاء والكراهية

وراودت المرأة الرجل مراودة ورِوادا، إذا دعته إلى الفاحشة

وقد يراد هنا براودني، راجعني من أجل كسب حبي لهن ورضاي

وفي حديث أبي هريرة: حيث يراود عمه أبا طالب عن الإسلام. أي يراجعه ويراده

قوله: فكيف طلعتم من مغارب أظلمت؟ وكأنه يتعجب ويتساءل مقابلا بين معنيين، ويقول: فكيف طلعتم وكأنكم شموس طلعت من مغارب مظلمة؟ لأن المغارب جمع مغرب، وهو موضع غروب الشمس، وليس موضع طلوعها، فكيف طلعت شموسكم من المغارب المظلمة؟ وكيف غربت في الضياء بقبلتي؟ والقبلة مطلع الشمس، فكيف غربت شموسكم في مطلع الشروق المعروف بالضياء؟

يقول: فجوبوا صدور العشق لست بعاشق، يخص هنا بخطابه، كل الحسناوات اللواتي يعشقهن الرجال، ويدعوهن إلى أن يجبن، أي يترددن على صدور العاشقين غيره، فما عاد هو عاشقا

قوله: ولا تأبهوا مهما صرخت لشهقتي، أي لا تهتموا لأمري، متى سمعتموني أصرخ شاهقا، فإن شهقتي لا تعنيكم بالمرة

نقول: شهق يشهق شهيقا وشهاقا، وبعضهم يقول: شهوقا، أي ردد البكاء في صدره

لعمري تفانينا، من الفناء وهو الزوال والتلاشي، بما في صدورنا من عشق ووله، أي بما نحسه في صدورنا من شدة حلاوته وروعته، وكأنه تراتيل أشواق وعزف بزفرة، أي كأنه غناء بصوت متناسق، لأن الترتيل يجمع على تراتيل، وهو كذلك، وعزف بزفرة؛ والزفر والزفير، أن يملأ الرجل صدره غما، ثم هو يزفر به

وأصله إخراج النفس بعد مدة

وفي التنزيل: "لهم فيها زفير وشهيق". هود106

يقول ما معناه: فما عدت أحس بالنار ما صليت بحرها، من صليت أصلى تصلية في النار، أي ألقيت فيها. وفي الحديث أن النبي ﷺ: أتى بشاة مصلية. أي مشوية

وما عادت شدة البرد تعني لي شيئا، ولا أشعر بها ما غطست بدجلة، أي ما غطست وأغمست في نهر دجلة، كناية على الماء البارد. ونهر دجلة معروف ينبع من جبال طوروس جنوب شرق الأناضول في تركيا، ويمر بسوريا ثم العراق

وذلك الحر الذي نصلاه ونحس به، هو حر رواحكم وهجركم. وإن ما شكونا من قر، فهو من رواحلكم، أي جمالكم التي راحت، ورحلت بكم عنا

قال الجعفي بعد ذلك: مولاي، هالني منك اضطرام أشواقي، في ثوابت إيقاني، لما تعالى أوارها لهيبا أضاء جوانب وحشتي، ومحا ظلال أحزاني وأشجاني

وهمت في هواكم يتيما يتمه فاق يتم من فاته الأبوان، وتمرغت في الأنفاس وأنا في أكفاني، وما كفاني

أصبحت غريبا بين أهلي وإخواني، حتى أشفقوا من حالي وبكوا من جنوني، ورثوني ضمن من رثاني، وبكيت لما بكوا، وما أبكاهم ما أبكاني

الهوى لما هوى في رسومي، في ليالي سهدي ووجومي، استهواني، وأهواني في أهوال هائلات فتنت همتي، وسخرت من صبري وضحكت من زماني

أهكذا أحبابكم، إذا قربتهم تفضي لهم برقائق المعاني، وتضفي عليهم بريق الأماني، ثم تغرقهم بالتهاني؟

تسرهم وتأسرهم، عيد وقيد تتابعا على تحول صرفاتهم على التوالي

ترشدهم وتشردهم، نور وتيه، تخالفا على شكاواهم في كل حال

تسعدهم وتشقيهم، بهجة وكربة، تبادلا على صدورهم في الأيام والليالي

أنا في هواكم عميت عن كل النجوم والأقمار، وصممت عن اللائمين، ما رموني بالجهل والاستهثار، أداريهم في الحي، وأتلافاهم إذا جاسوا خلال الديار، لعلهم ينسون ما شدني ويذكرون ما شدهم، ولو أنني لا أبالي، ولا يفزعني إصراري

دونكم نجوم السماء فاعشقوها، ودونكم نظرات فاتنات النساء فاعبروها، وهذا الخواء وهذا الهباء، وهذا الرواء وهذا الصفاء

ولا تحاولوا عشقي، إنني ما عشقت ما عشقتم، وما أنتم بعاشقين ما عشقت، لكم أحباب ومالي غير حبيب

بالله عليكم يا أحبابنا، من أين خرجتم لنا بهذا الكتاب؟ متى قرأناه صرنا مجرد سؤال ما له من جواب، وهذا السلسبيل، متى جرى في جداول الظنون وانساب، جرى بما ضاق عنه الفؤاد وذاب

وشهقة صدعت ما تبقى من ومق في صدوري، ونقشت صبابتي بريشة من أرق على شواهد قبوري

لما هتفتم بي غافلا عن نفسي في دامسات من كهوفي، ألاطف وجوها عابسات كدرت علي بعد صروفي، وأنهال كالأحلام الشاحبات على الهاجعات، حتى لا تستفيق ببؤسي وتأكل رغيفي

الفحونا بناركم، ناركم أحرقت عيون السهاد، وانفحونا بقركم، قركم أثلج الفؤاد

التهبوا وتأججوا، لم نعد حطبا، بل عدنا مجرد عبير يجوب الربيع، لا ينقص ولا يزداد

وانقلبوا صقيعا في دفأة رقادنا، إننا لا نخشى الصقيع عند الرقاد

بما نابني لما عزمت على السرى وأسرى بجأشي في ظلام سريرتي
وما صدع الأقدار لما تحكموا بعمري وأفنوا من شبابي وشيبتي
تكونت والأكوان في بقدرة أنا عالم بين اتساع وضيقة
وكلمني بالطور صوت بخاطري فأي كلام قد خلا من عبارة؟
معان بليغات وأفكار عالم تلقيتها سرا بأغوار فطرتي
وأفرح قلبي بالرضا بعد غمه أنا فرحة الله الذي منه فرحتي
ولم أستطع إخبار قومي بكنهها فلا لفظ يعني ما سمعت بلهجتي
وصرت بلا معنى بجملة قارئ ضميرا بلا رفع ونصب وكسرة
فإن تعربوني كنت بالرفع باديا وبالنصب أخفى وانتهائي بجرة
وما لي بإعراب محل بمرة وإن شئت إعرابا فواو المعية

يقول: بما نابني لما عزمت على السر، أي بما نزل بي لما عزمت على السرى، والسرى مصدر سرى يسري، أي سافر ليلا، وأسرى بجأشي في ظلام سريرتي، أي وبما سار ليلا بجأشي، ويريد بالجأش الصبر والعزم، وأصل الجأش، النفس، وقيل: القلب، وهو جأش القلب ورواعه؛ وإذا اضطرب الرجل من الفزع، يقال: إنه لواهي الجأش

والمراد: بما سار ليلا بعزمي وهمتي في ظلام سريرتي، والسريرة كالسر، جمع سرائر

وبما صدع الأقدار، والصدع جمع صدوع، وهو الشق في الشيء الصلب كالزجاج والحائط. قال قيس بن ذريح:

أيا كبدا طارت صدوعا نوافذا ويا حسرتا ماذا تغلغل بالقلب؟

يريد الشيخ: بما صدع الأقدار وشقها وزلزلها، لما تحكم أحبابي بعمري، وأفنيت في حبهم شبابي وشيبي

يقول: تكونت والأكوان في بقدرة، أي منذ كونني الله تعالى، كون في الأكوان كلها بقدرته، حتى صرت وحدي عالما، بفتح اللام، في اتساع وضيقة، أي يتسع تارة ويضيق أخرى

قوله: وكلمني بالطور صوت بخاطري، والطور الجبل، والمراد هنا، الجبل الذي بمدين حيث كلم الله تعالى موسى عليه السلام تكليما.

يريد أنه كلمه صوت بالطور، إشارة إلى أنه صوت الله تعالى، ولكن لم يكلمه وحيا كما كلم موسى عليه السلام، وإنما تلقى الكلام بخاطره، أي على هيئة خاطر رباني

فواعجبا لهذا الكلام الرباني الذي لا يشبهه كلام الناس، فقد خلا من الألفاظ والعبارات، إنما هو عبارة عن معان أتلقاها بدون مبان، وأسمعها لا كتلك التي عهدتها في لهجتي

وكنه كل شيء قعره وعمقه وبعده، يقال: أعرفه كنه المعرفة، والكنه إن شئت جوهر الشيء

واللهجة، لغة الرجل التي جبل عليها، فاعتادها ونشأ عليها. وفي الحديث: "ما من ذي لهجة أصدق من أبي ذر".

يقول: معان بليغات وأفكار عالم، كل ذلك تلقاه سرا، واصفا هذا بالخاطر، بأغوار فطرته، أي بأعماق جبلته وفطرته، لما عاد نقي السريرة كما خلقه الله تعالى أول مرة

قوله: وأفرح قلبي بالرضا بعد غمه[6]، أي أن هذا الكلام بعث في قلبه الفرحة والسرور، بعد حزنه وغمه، حتى صار فرحة الله، أي من شدة فرح الله تعالى

---

[6] تحية للأستاذ رضوان لعرج الذي كان له الفضل في إدماج هذا البيت في التائية

به، صار وكأنه فرحة الله تعالى في الناس، بما يحدثهم ما يفرحهم ويزيح الهم عن نفوسهم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه. فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده". رواه مسلم

و لم أستطع أن أخبر قومي بحقيقة هذه المعاني، فلا أجد لفظا في لهجتي، أعبر به عنها

يقول: و لم أستطع إخبار قومي بكنهها، وفي الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

وصرت أنا الآخر مجهولا ليس لي معنى من المعاني

وكأنني كلمة في جملة قارئ يقرؤها ولا يفهم معناها

صرت مجرد ضمير، وهي كناية عن الغائب، لأن الضمير لا يكون إلا للغائب، ضمير لا يرفع ولا ينصب ولا يجر

فإن تعربوني كنت بالرفع باديا، أي من شاء إعرابي فأنا أبدأ بالرفع

والإعراب والتعريب الإبانة والتبيين والإيضاح، والمراد بالإعراب هنا: علم الإعراب، وهو معروف عند أهله

وأخفى بالنصب، وأنتهي بالجرة

ومالي بإعراب محل بمرة، أي وإن كنت ضميرا، فلا يجوز أن تقول: أني ضمير في محل كذا وكذا

وإن كان ولا بد من إعرابي، فأعربوني واو المعية

قال الجعفي بعد ذلك: استغربت فتغربت، ولما تغربت غربت، ولما طلعت من غروبي، اطلعت على غرائب فأغربت، فلما تكلمت لم يعد أحد يعي ما أقول؛ ما أقوله صادر عما سرى في سريرتي وروعي، ما أقوله لو وعيته لوعاه غيري، لكنني لم أعه بل وعاني، وعز عن قبضة الأقدار، تفلت عنها كما يتفلت ضوء الشمس عبر فروج السحاب في عز النهار. ما وعاني شاب على شبابي، وشب على شيبي، فلا أنا بفتى ولا أنا بكهل، أنا بين المترلتين، أشب وأشيب، لا أظهر ولا أغيب.

أنا وهذه الأكوان لا نتفق، ولا نفترق، بي تكون وبها أكون، بي تكونت وبها تكونت، حتى صرنا واحدا، أنا وإياها عالم لا يهدأ، عالم لا يبقى على حال، وكأنه قلب نابض، لا يفتأ عن النبض، وكأنه رئة تتسع مرة بالهواء وتزفره وتضيق مرة أخرى، وكأنه بساط نشر فغطى ما ترامى قبالة الأنظار على حد البصر، وطوي كأن لم يبسط بالأمس.

ولما غربت في بحر الحقائق، خرجت من أحد المشارق، وأشرقت على قوم لم يعودوا يحفلوا للشروق كما في السابق، فأغربت في قولي أحاول أن أبلغهم ما غشاني، فلم يفهموا عني ما أقول، لأنني لا أجد لفظا في لهجتي يعبر على ما أقصد قوله مما غشاني

اعتبروني لغزا مركبا، عبارة بلا معنى، في حين أنني معنى بلا عبارة

صرت مجرد ضمير لا يقبل الرفع والنصب والكسر

صرت لا أعرب، ضمير ليس في محل أي شيء، وإن شئتم إلا أن تعربوني، فقد كان ابتدائي لما رفعني عن السفليات فترفعت، وما عدت أنظر إلى الأسفل، وكلما غضضت عن الأسفل ارتفعت وزدت ترفعا

وخفيت بالنصب، حتى لا يعرفني أحد، إذا فرغت من ذكر ربي، نصبت وتعبت في طلب رزقي، أليس النصب من الأسباب، والأسباب حجاب، لمن لا يعرف الإعراب؟

ثم أنتهي بجرة، لما يجرني إليه فأنجر، والجرة الجذبة، لما يجذبني أنجذب عن نفسي، وأفنى وأزول

وإذا عرفت أنني لا أعرب، وأبيت إلا أن تعربني، فاعتبرني واو المعية، لأن واو المعية تفيد المصاحبة، وأنا مصاحب مساير لا دخل لي فيما يجري علي من أقدار وتصاريف

وتفيد واو المعية إن شئت، حصول ما قبلها مع ما بعدها، وأنا لا أعطف الحاضر على الماضي، ولا أعطف المستقبل على الحاضر حتى لا أغاير، بل أعتبر ما قبل وما بعد، الماضي والمستقبل حاصلا في وقت واحد

وواو المعية لا محل لها من الإعراب، كما هو شأني، وهو مبني على الفتح، كما لا ينبني ما أنا فيه وعليه إلا على الفتح الرباني، والمدد الروحاني

آت من أجل الوصال

أتخفى جمالا عن عيون أحبة إذا استشرفوا ما قد خلقت بشرفة؟
وتبدي لهم حسنا سبى من عقولهم وتقريهم من كل لطف ومنة
فلا عيش لي مهما قبلت ضيافة بدار ولم تحضر قراي وسفرتي
فإن غبت عن قوم أتوك بجوعهم وأطعمتهم من مكرمات بصحفة
فإني أتيت الدار أبغي وصالكم متى ما طرقت الباب تعرف طرقتي
يثير اشتياقي ما برأت بقوة وأبدعت من حسن جميل ببدعة
فأبصرت في ذاك القدير بلمسة سرت في بديع الصنع من دون لمسة
ففيم الخفا إن ما ظهرت بقوة وفيم النوى إن ما قربت بشدة؟
فحسبي بأني عبد رب وحسبه من الحسب عبد في خضوع وذلة
فربي مليك إن سألتم وسيد إذا ما تفاخرتم بملك وسلطة
وربي جميل قد تجلى بهاؤه إذا ما تكاثرتم بقبح وخسة
وربي قوي لا قوي يرومه إذا ما تباهيتم بجيش وعدة
وربي حليم بالورى ما تجبروا إذا ما توددتم لطاغ بدمعة
فمالي ولي غير ربي وسيدي إذا حان دوري واستطبت منيتي
سألقى حبيبا لا يخيب عبده ويلقى حبيبا لا يكافى بخيبة

ثم يعود الشيخ لمخاطبة الله تعالى ويقول: أتخفى وتتخفى من شدة جمالك عن عيون أحبابك إذا استشرفوا ما قد خلقت بشرفة، أي إذا رفعوا رؤوسهم وأبصارهم إلى ما خلقت في كونك وأبدعت من محاسن ومباهج، والشرفة أعلى الشيء

والمراد: إذا صعدوا مكانا عليا واستشرفوا جميل صنعك

وتبدي لهم حسنا سبى وسلب من عقولهم بملاحته وروعته

وقوله: وتقريهم من كل لطف ومنة، أي تضيفهم بلطفك ومنتك وعطائك.
وقرى الضيف قرى وقراء، أي أضافه
ولكنني إذا قبلت قراك وضيافتك بدارك، فلا أفرح بذلك ولا أقنع به، سوى إن حضرت قراي وسفرتي؛ والسفرة التي يؤكل عليها، وسميت سفرة لأنها تبسط إذا أكل عليها؛ وإن شئت هي الخوان، والخوان، ما يوضع عليه الطعام عند الأكل
يقول: وإن غبت عن قوم أتوك جائعين، وأطعمتهم من المكرمات والنعم بصحفة، أي في إناء الطعام؛ والصحفة، جمع صحاف، قال ابن سيده: هي قصعة مسلطحة عريضة. وفي التنزيل: "يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب". الزخرف71
وإن كان هؤلاء القوم الذين أتوك جائعين، قد قنعوا بما أطعمتهم من طيبات وأكلوا حتى شبعت بطونهم، فإني أتيت الدار لا أبغي طعاما ولا شرابا، وإنما أطمع في وصالكم، متى طرقت بابكم عرفتموني من طرقتي
يثير اشتياقي ويزيدني لهفة وشوقا، ما برأت وذرأت بقوة، وما أبدعت من حسن في الكون، لم يسبق له مثال
فأبصرت في بديع صنعك قدرة القدير سبحانه، الذي لمس الكون لمسة سرى فيها من أثره في كل ما أبدع وبرى، ولو لم يلمسه بكفه لمسا، كما ينصرف إليه معنى اللمس عند الناس
يقول: ففيم الخفا إن ما ظهرت بقوة؟ يوجه الخطاب إلى الباري عز وجل، ويقول متسائلا: ففيم ظن الناس اختفاءك وأنت ظاهر بقوة؟ وفيم النوى إن ما قربت بشدة؟ أي وكيف يظن الناس أنك ناء وبعيد وأنت شديد القرب منهم؟
يقال: نأى الرجل نوى، مقلوب منه، إذا بعد. وأنشد يعقوب:
وقد ناءت بهم غربة النوى نوى خيتعور، لا تشط ديارك

وفي التنزيل: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يرشدون". البقرة185

يقول: فحسبي، أي كفاني، أنني عبد ربه الله تعالى، وحسب الله سبحانه من الحسب، أي كفاه أنني عبده الذي يطيعه في خضوع وخنوع وذلة

وفي حزب البحر لشيخنا أبي الحسن علي الشاذلي رحمه الله تعالى: يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم، أنت ربي وعلمك حسبي، فنعم الرب ربي ونعم الحسب حسبي، تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم. انتهى

فربي مليك إن سألتم أيها الناس وسيد، إذا ما تفاخرتم يوما وتكاثرتم بالملك والسلطة، فربي رب الملوك وما ملكوا

وربي جميل قد تجلى وظهر بهاؤه، إذا ما تكاثرتم وتفاخرتم بالقبح الذي تظنونه حسنا، وبالخسة، وهي الرذالة والتفاهة، التي تحسبونها فضيلة

وربي قوي لا قوي من العالمين يرومه، بمعنى يطلب قدره وقوته، إذا ما تباهيتم بقوة جيش وعدته؛ والعدة العتاد، والعتاد ما نعده لأمر ما ونهيئه له؛ يقال: أخذ للأمر عدته وعتاده، أي أهبته وآلته. وأنشد:

أعددت للحرب صارما مجرب الوقع، غير ذي عتب

وربي حليم بالورى، وهم الناس، رغم تجبرهم وطغيانهم، إذا ما توددتم وتملقتم للطاغين، وأنتم تبكون بين أيديهم بدموع الذل والمهانة

فما من ولي أواليه، وألجأ إليه في الشدائد غير ربي، إذا حان أجلي، واستطبت منيتي، أي أحببتها ووجدتها طيبة

وإذا توفيت فسألقى حبيبا، من المحال أن يخيب فيه ظني ويخذلني، ويلقى سبحانه حبيبا لا يليق أن يكافئه بالخيبة والخذلان، لأن الحبيب لا يمكن أن يؤذي أحبابه.

والمنية والمنون، الموت. قال أبو ذؤيب الهذلي يرثي ابنه:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

قال الجعفي بعد ذلك: حبيبي وقد احتجب وجهك عني، وأنت أعلم الناس بما ألقاني فيه الشوق إليك من فيافي اللوعة والاحتراق، وأنت أعلم الناس، بصدق ما أكنه لك من هوى، ضاقت باحتماله جوانحي، وضج به قلبي، حتى عاد يخفق خفقان الفراخ المفزعة

تخفي عني محياك، وتزيدني شوقا ولوعة، وما عهدتك تتلذذ بتعذيب أحبابك

ما عهدتك تؤذيهم بالبعد والنوى، وتكلهم إلى الوحشة والاغتراب

ما أخفاك عن الأنظار، وأنت الظاهر الذي لا يخفيه شيء؟

ترى أخفاك عز مطلبك، أم حجبك نور تجلى منك ستارا، فأغشى أعين طالبك؟

ترى أخفاك ما شاع من جمال في كل الأقطار، وما انتشر في الأرض من جلالك على الجبال والبحار والأنهار، فأدهش أفهام الأبرار، وأفحم الفجار، لما تداولوا شؤون الحكمة والاقتدار؟

تراك من شدة الظهور أخفاك النور؟

أم تراك من شدة الجمال لم تعد تطال؟

أم تراك من شدة القرب أبعدك الشك والريب؟

لا تشغلني يا حبيبي بمنك وكرمك، فقد عرفت أنك أنت المنان الكريم

لا تلهني بالجود والعطاء، فقد عرفت أنك أنت الجواد المعطي

لا تمنني بالحور والقصور، فقد عرفت أنك أنت الغفور الشكور

لا تذكر لي شيئا من ذلك، وأنت تعلم أني لا أتوق سوى إلى وجهك

إذا قصد الناس دارك لتطعمهم وتكسوهم، فما قصدي قصدهم، وما طرقتي متى طرقت طرقتهم

أنت قصدي، وطرقتي تعرفها، وتعرفني بطرقتي، تميزها عن باقي الطرقات، طرقاتي لا تنتهي، ألح في طرقاتي، طرقتي طرقات وطرقات

لا تسدوا أبوابكم في وجهي، فما ذاك من شيمكم، أليس من شيمكم الرأفة والرحمة، وبابكم لا يوصد في وجه أحد؟

استجيبوا أيها الأحباب لأحبابكم، فقد أتوكم حبوا، وتركوا ما خولتموهم وراء ظهورهم

استجيبوا لهؤلاء الآتين بأحمال من ذنوبهم وأوزارهم، أثقلت كواهلهم، ونغصت عليهم عيشهم، يرجون أن تغفروها

استجيبوا أحبابنا لهؤلاء الظالمين، الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، و لم يبادلوا إحسانكم سوى بالصد والإنكار، سامحوهم وتجاوزوا عنهم

استجيبوا لهؤلاء العبيد الآبقين، الذين هربوا من حضرتكم، إلى حضرات الفانين، فأذلوهم وجوعوهم، فعادوا إلى حضرة مولاهم، يرجون أن يقبلهم ويراعي منهم المحبة والاشتياق، فاقبلوهم ولا تؤاخذوهم على الإباق

استجيبوا لهؤلاء المجرمين، الذين تجرؤوا على عصيانكم بما أنعمتم عليهم، جهارا، ليلا ونهارا، لا يزيدهم عصيانهم إلا إصرارا، حتى إذا أذلهم عصيانهم، وحاكت ذنوبهم في صدورهم، لجئوا إليكم؛ داووهم من شقوتهم وجهلهم، وأنيروا صدورهم بأنوار الرحمة والسكينة

استجيبوا لهؤلاء الحائرين، الذين نفحتموهم بحبكم، ولا زالوا يتأملون وجوه النساء، ويستجدون أيادي الفناء، لم يكفهم ما خصهم به الحبيب من فضائل وآلاء، حتى إذا علموا أنهم لا يتأملون غير القبائح ولا يتمنون غير الفضائح، أتوكم ليفضوا لكم بما أرقهم، وفي أعينهم دموع الحسرة والندم، أحبوهم وخلصوا قلوبهم من الهم والألم

ها هي لمستك يا حبيبي، تضفي على ما ترسم حولي من ضياء وبهاء، فنون الرفعة والجمال، وتشجي مني فؤادا أذابه السقم والاعتلال، وتبهر لبي، وتشغلني أيما انشغال

حسبي أنك حبيبي، فما حسبك؟ أليس حسبك أنني أحبك؟

يكفيني أنك ربي، فما يكفيك؟ ألا يكفيك أنك تكفيني؟

ربي أيها الناس ملك الملوك، وسيد السادات، فما أسعدني بربي

فلا تعتزوا بملوككم وربي ملك الملوك

لا تفخروا بأسيادكم وربي سيد الأسياد

ربي أيها الناس القوي ذو البأس الشديد، فما أقواني بربي

فلا تتباهوا بقوة أحد، وأنتم تعلمون أن القوة لله جميعا

ربي أيها الناس، حليم غفور، فلا تتوددوا بدموع الذل وشكوى الصغار، لمن يؤنبكم ويطردكم

لست أخاف في حياتي، ولست أخاف عند مماتي، صرت أحب موتي، أليس موتي موعد لقائي بالحبيب؟

فكيف أخاف لقاءه، وهو لا يلقى أحبابه سوى بالفرح والإقبال

محال أن يخيبني حبيبي، وقد أحبني، ولو لم يحبني ما أحببته، حبه منة منها علي الحبيب

فكيف يحبني ويعذبني؟

الأحباب أيها الناس لا يعذبون أحبابهم، وإنما يفرحون للقائهم

فافرحوا بلقائه حتى يفرح بلقائكم

متن الكبيسة

أمن ظاعن غالبت دمعا بمقلتي تأبى على مي غداة تأبت
تسافر مي في ليالي صبابتي وتحمل صبري إن هممت بسلوة
بركبكم سارت وسرتم بسادل تدلى على همي وأهرق خمرتي
ولو كنت أدري ما بلغتم بسفركم أتيتكم أنى نزلتم بهمتي
وقد أهتدي إن ما ضللت بحبكم وقد أرتوي إن ما ظمئت بلوعتي
ستعرفني مي إذا ما تباطأت رواحلها والمزن شح بقطرة
وتعرف من عند الهموم أنيسها متى أرقتها ذكريات وملت
وتعرفني شهما إذا ما أهانها زمان وهانت في الفلاة وذلت
سكرت وقد دارى المدام صبابتي فما عدت أبكي عهد مي وخولة
صحوت وقد عزت علومي بسكرتي فمالي نسيت العلم في عز صحوتي؟
ترى طفرة طافت بكاس رشفته حميا حكت لي عن حقيقة نشأتي؟
تنادمني في ليلة قد تطاولت وتشرب من خمري وتطفئ غلتي
تجوز بي الأكوان والدهر شاهد وتمخر بي من غير فلك ولجة
متى ما أتمت شربها تستزيدني وإن زدتها زادت جمالا وجلت
كأني وإياها وحيدان هاهنا فحتى أنا ما عدت أثوي بجبتي
وما الدهر إلا واهم في توله إذا ما تولى أرغمته وولت
وما للحيا والموت عندي تساويا أموت وأحيى هاهنا ألف مرة؟
أقول: تراني قارئ ما كتبته؟ فتسخر من قولي وتمحو صحيفتي
يواقيت تاهت عن خيالي وأشرقت شموسا بليل مدلهم وأعشت
بصرت بها لما غضضت عن الورى فما الكون عندي غير ظل بحرة
تناست شجوني ثم أملت شجونها سطورا معانيها تناهت ورقت
لكم تيمتني أعين قبل ذلكم وقد نعست في خاطري طول شرعتي

بها حور يغري العميد بسحره ولكن أفاقت عند كفري وصبوتي
وروحي ضياء قد وجدت صفاءه ونفسي ظلام حل بي في ضلالتي
فروحي سمت بي في السماء كرامة ونفسي رمتني في الهباء وزجت
وروحي بلا ظل تضيء جوانحي فلله در في غياهب جعبتي
تجلت بأمر الله أمرا أموره تخفت بأمر الله فينا وخفت
زلال جرى في غير واد بما جرى وسر سرى يشجي ذوات تردت
وليست سوى ضيف غريب وما أنا سوى من يضيف الضيف قسرا بجثتي
وقال: أنا الله الحسين وليس هو كما قال بل عبد ضعيف وليست
فمن يحرم النفس الحلال تحرزا طغت روحه حتى ادعى ما تألت
فسل مريم العذراء من هو روحنا ومن كلمت لما استعاذت وعفت؟
وسلني أقل: ما ذاك جبريل فاتعظ فلا يهب الغلمان جبريل واثبت
بل الواهب الباري بنفخة روحه تأمل تجد ما قلت عين الحقيقة
وأوصافها من وصف من هي أمره فليست بمخلوق وليست بربة
ومن لم يميز ظن روحه نفسه فأخشى عليه القول يوما بوحدة
فلا فرق بين الرب والعبد عنده وذاك ضلال في اعتقادي وملتي
وقد كلفت نفسي وروحي بريئة إذا ما قضيت النحب نادت برجعة
ولا تقبض الأرواح عند الردى ولا بقاء لها في برزخ ما تبقت
تقوم مع الأملاك تشهد فيهم بأفعال من كانت به ثم سلت
ولكن نفوس الناس بالأمر كلفت فلا تحقروها وهي فيكم تربت
وقد سويت نفسي على فطرة وما يزيغ بها غيري دسست فدست
فيا من قصدت الله من بعد جفوة ذكرت حبيبا فاستثرت صبابتي
فدعني أعاني ما أثرت من الجوى وإلا فلا تحفل لحالي وثورتي
أتسأل عن ليلى وما ثم غيرها وتذكر أطلالا عجزت وشطت؟

تروح وتغدو في جلال وعزة وأحبابها صرعى بثين وعزة
جفتني لأني بحت للناس بالهوى فلما شكوت الجفو باءت بهجرتي
شهدت بما أفضت وإني لصادق فتيمت أقواما بما لي أفضت
ولم يبصروها إنما هيئت لهم ولو أبصروها أقبلوا ثم صدت
فجنوا جميعا بالتجني على الهوى ولم يعقلوا حتى تجلت وبشت
تأهب إذا شئت الوصول لبارئ لصحبة شيخ عارف ليس يفتتي
وأين الشيوخ العارفون تستروا فلا هم بصوف يعرفون ورقعة؟
فما ثم إلا مدعون تجمعت عليهم أناس في الزوايا بكثرة
شيوخ يخالون الولاية إرثهم وظائف تتلى ثم ورد بسبحة
يمدون أقداما وأيديهم لكي يقبلها أمثالهم دون حشمة
يمدون أتباعا بما شاب حالهم فمن يستمد منهم يمد بشبهة
تغنوا بهم في الدير بالجذب جهرة فأعجبهم منهم غناء بجذبة
يلفون ناسا حولهم قد تحلقوا يدلونهم عدوا عليهم بسطوة
وما لهم والمكس قد ألزموا به مريديهم قسرا ومن غير عفة؟
فما عارف من حاز مالا وجمعه فقير ولم يكفل له قدر مضغة
وما عارف من عرف الناس قدره ولا يبتغي إلا علوا بشهرة
فلا تتبع من هؤلاء مدللا تنزه رعاك الله عنهم برفعة
تذلل إلى المولى يعزك عزه ومن لي معز عند ذلي وشقوتي؟
فإن لم تجد شيخا فناد مهيمنا وقل: يا إلهي من سواك لحاجتي؟
إلهي لئن لم تهدني قد أضل في طلاب محال في زمان القطيعة
تقطعت الأسباب فاهد ضلالتي ومن لي سوى ربي حسيبي وغنيتي؟
وكن صادقا فيما دعوت ولا تهن يسخر لك المولى دليلا بسرعة
إذا ما وجدت الشيخ فارع ذمامه وكن خادما لا تعي يوما بخدمة

وسلم له أحواله في حضوره وكن حافظا في الغيب تحظ بوصلة
وإن تعترض تسلب أخي ولا تصل إلى منزل عال وتبقى بحفرة
فكيف تميز الشيخ من متمشيخ وتعرف من منهم تخص بصحبة؟
فذاك الذي تهوى القلوب سماعه ولا تصرف الأنظار عنه بلفتة
فمن يره في الحين أحببه ولا يبغض إلا للشقي المعنت
تلاقت به الأنوار من كل ساطع ودارت عليه الصادرات بحكمة
يسافر بالساعي إليه إلى السما ويرقى به عن سافلات تدنت
وليس الذي يبغي اشتهارا وسمعة وليس الذي يهوى ثناء بلفظة
خمول تخفى في ثياب لغيره كليلة قدر قد تخفت بعشرة
ومن ينظر الأشياخ يذكر ربه بهم يذكر المولى بأول نظرة
مصابيح في ليلاء أضحوا نجومها بهم يهتدي ركب سرى في سرية
ومن يدع الكشف المبين جهارة فهلا يجب عما سألت بجهرة؟
فما بدأ خلق الله بعد انعدامه وكيف الفنا طي السجل لصفحة؟
وهل كان خلق قبل جن بأرضنا وهل كان رسل في قبائل جنة؟
وأخبر رعاك الله عن خلد زمرة فدون خلود خلدها إن تثبت
فمن هم رعاك الله إن كنت صادقا وما وصفهم إن ما أتيت بفرية؟
ملوك كبير ملكهم ما رأيتهم فما كبر ملك المالكين بجنة؟
وأخبر بأسماء تجلت بآدم فإن كنت تدريها فلست بمفتت
وماذا تلقى من كلام بجنة فتاب عليه الرب من بعد فتنة؟
فإن كنت تدري ما سألت فأخفه وإن كنت لا تدري أتيت بكذبة
فمهما تراوغ لست تحظى بمنزل ويفضحك مكر الله بعد الدعاية
ودعني أخض في أمر قطب وهيئة إذا كنت لا تدري أمورا تأتت
فقطب الرحا ثم الإمامان بعده وسبعة أبدال وأوتاد خيمة

ومن يدعه غوثا نخالف قوله فلا غوث أولى من سراج النبوة

وما من نبيء كان قطبا فحسبه نبوءته أعلى المراتب حلت

وما كان قطب في زمان رسالة سماوية إلا رجال الولاية

فمنهم جريج ثم خضر وغيره وما كان قطب والحبيب بطيبة

ومن زاد أفرادا على ما ذكرته وأسماء سماها فمن غير حجة

فلا النجبا فيهم ولا النقبا سوى رجال تسموا فيهم أهل توبة

وما القطب إلا محور وسط دائرة تدور عليه الدائرات بدارة

يوازن بين الشرع والحق في الورى ويعدل بين اللجتين بخبرة

فلا تحسبوهم في كهوف مخيفة كما مثلوهم عاكفين بخلوة

ولو لم يكونوا بيننا ما توسطوا ومال اعتدال في العباد لكفة

فقد أخرجوا للناس قصد مهمة إذا شئت فانظر تلفهم في مهمة

ولا يدعون الفضل عمن سواهم فربي عليم بالخلائق فاسكت

فمالكم أكثرتم في نعوتهم وما نعتهم إلا كنعت الأئمة؟

وفي الختم أقوال أراها تضاربت ومن عد عيسى خاتما في النهاية

وقد أخطأوا لما رأوا في ختامها كمالا كختم الرسل خير البرية

فما ختمها بالدهر من كان آخرا ولكن بمن أبقت عليه وتمت

وعد الحكيم الختم آخر من قضى وزاعم ختم مات من بعد أمة

على قلب خير الخلق إن رمت خاتما يرد جموح الأولياء بهشة

يهون ما شقت ويبني انهيارها حنيفية بيضاء من غير شية

فتشرق في قوم كأول مرة وتيسر في التكليف من بعد عسرة

وما زاد فيها إنما أحبط الذي أتيناه فيها من حوادث رثة

حماها حفيظ من بداية بثها وجدد ما يبلى بختم فجدت

ومن شرط يوم البعث ختم إذا أتى فلا تنتظر واهرع لشعف وشعبة

سيختمها قطب الزمان بوقته بقوم تناسوا في ضلال وغفلة
تنصل رعاك الله مما ألفته وعد للصبا تلحق برشد الفتوة
تقرب إلى مولاك يغنك قربه ويكفيك شح النفس من غير محنة
فما أنت في الدنيا خلقت مخلدا ولكن لأمر ما خلقت وغاية
فأوكل أمور النفس لله كلها فمهما تجاهد لست تحظى بنصرة
فلا الصوم يثنيها ولا الجوع رادع إذا ما طغت يوما ومالت لشهوة
أأشهدت ما أشهدت مما حسبته لعمري سراب ليس ماء بقيعة
فما أنت إلا نائم في خبائه يظن الرؤى حقا ونومه يقظتي
فلا حق غير الحق فاقنع بباطل رسوم وأوهام تموه لعبتي
ودين وأحكام وكفر وردة وسوق قد اكتظت ومن بعد فضت
فسبحان من أخفى حقيقة خلقه .بما قد تبدى للورى عين خلقة
قوارير تغري بالجمال أناسيا ممردة من حسن سبك وصنعة
فلا تحسب العيش الذي في قصورها سوى سكرة عادت عليك بتهمة
تخال الذي تسعى إليه ببهوها فتلقى به من مومسات تزيت
تعال أريك الكون أول مرة تراه كما أرساه أول وهلة
تعال نجاري عارجات إلى الفضا تطير بلا ريش إلى حيث حطت
وأنت بديع من طيور غريبة ترفرف لكن لا تهم بقفزة
ولو تدر أن الطير يعلو محلقا شعرت بحبس ما مشيت بخطوة
أنا هائم في كنه سر بلا هدى تطوحني ريح تصابت وهبت
أنا ريشة يلهو بها كف عابث تطير وتهوي في الفضاء بروعة
أنا مثل حلم في الكرى مر عابرا بفكر معنى فاستراح للحظة
وديني حب لا أدين بغيره فما من حلال أو وجوب وحرمة
كفرت بنفسي أن غدوت غريمها ولم أحتكم إلا لأعداء غرتي

فإن شئت أن ترقى فحاذر مخاوفا تشد تلابيب الصقور بهدبة

وجاور عميدا في الهوى ليس يرعوي يموت ويحيى كي يعيش لموتة

أغادر أوهاما تقض مضاجعي وأسكن أطلالا بروعي وعرة

شهدت وقد غبت الإله بحضرتي برمت بذكري في بوادر غيبتي

أتذكر ربا ليس يخفى عن الورى تواريت عن مولاك من خلف سترة؟

جأرت تنادي حاضرا يسمع الندا ولو كان همسا بين صبين فاخفت

فإن كنت أعمى فاذكر الله جهرة وسرح لسانا قد عقلت بغيبة

لسانك إن يذكر فؤادك سامع وأذنك إن تسمع فؤادك ينصت

فإن كان زورا يصبح القلب قاسيا وإن كان حقا يحتمله برقة

تحاش ذنوبا أورثتك مهانة فما مذنب يحظى بعز بمهنة

وحافظ على مرآة قلبك صحوة لتعكس أنوارا كصفحة بركة

مرايا القلوب الخاشعات قد اشرقت بما قد غشاها من بهاء وأغشت

ومن يك مربدا فليس بمشرق سوى في ليال كالحات بحلكة

تمد صحونا محدثات لواهب شرابا نقي اللون من صنع نحلة

تطهر وطهر من إنائك شائبا تجده مليئا من عطايا المشيئة

وأسرج بليل من فيوضات نوره ولا تقتصر ليلا على نور شمعة

تشعشعت المرآة نورا فأخمدت أوار لهيب في نفوس تشهت

فلا نور إلا نوره في سرادقي ولا ضوء إلا ضوؤه تحت جنحتي

تلألأ وجه قد ألفت وجومه بما قد تراءى من ضياء وألفة

ونفسي تداعت من بناء ولايتي وروحي تباهي بالبناء أحبتي

وإبليس قد ولى وغادر جنده فلولا تخلت عن غرور وفرت

تذكرني شهبا تصد استراقها فمن يقترب يرجم دحورا بجمرة

تعززت بالمولى فصلت مهابة وما عدت أخشى من خصومي بصولتي

أشتت جيشا قد تدجج في الوغى أساجله من غير سيف ولأمة
فمن كان للمولى يكون له ومن يكن للهوى يمسي هويا بهوة
لجأت لربي موقنا باستجابة فمن لي مجيب ما جأرت بخلوتي؟
فلا تغرني بالعبد أرجو نواله فكل فقير للغني بلقمة
ألا لا تكلني للعبيد وأغنني بفضلك عنهم ما شكوت بعلتي
أتلجؤني للناس أرجو عطاءهم وأبوابهم في وجه عبدك سدت؟
رفعت إلى زيد وعمرو خصاصتي فردوا سؤالي واستهانوا بغصتي
خزائن ربي ليس تنفذ بالعطا وما عند غير الله يفنى بقلة
أتتركني بين الورى متكففا وتنسى حبيبا يا غني بعيلة؟
وقد قسمت أرزاقهم قبل خلقهم فلا خوف من رزق يضيع بقسمة
بسطت الأيادي لست أخشى ملامة أنا عبد سيد باسط منه بسطتي
فيا أيها الفاني تريد لي العطا فزد مم لم يقسمه ربي بحصتي
فمن يعبد الباري رجاء نعيمه ومن يعبد الباري اتقاء للفحة
فلو لم تكن نار ولا جنة ولا وعيد ولا وعد لضن بركعة
فحسبي أحباب رجوا وجه ربهم ولم يسألوني أجرة عن محبتي
فأولئك الباقون ما مات غيرهم وأولئك الناجون في يوم حسرة
ظننت بأني هائم في مفازة ولا هم لي غير الوصول لفرجة
فألفيتني أطوي الدنى في عباءتي وأحمل أكوانا تخفت ببردتي
تسير بسيري إن أنا سرت ماشيا أطير فتعلوا طائرات برفقتي
وحولي درار دائرات بواقف مشيت فتاهت كي تحاول وقفتي
أمني يموج البحر ما كنت غاضبا وعند الرضا يهدا الهدير لهدأتي؟
أنا روح هذي اللائحات وسرها متى لحت غابت ماحقات بلوحتي
أظل شموسا قد أظلت دلائلا تدل ذوي الألباب ممن أظلت

وتهديهم إن ما تحير أمرهم وتخبرهم باسمي وتكتم كنيتي
متى ما عرفت النفس خفت غوايتي وإن أعرف المولى أمنت بروعتي
فنفسك أرض والسماء نديمها وروحك تسمو والنفوس تسامت
ولله شأن قد أحطت بسره يملكني عرشا بدون رعية
ولله ما أطلعت مما أذاعني بأسماع قوم خلتهم تحت إمرتي
وأعلى الورى رسل لما قد تخصصوا وخصوا بتشريع وثقل الأمانة
فلولاهم ما كان فيها محدث وما كان صديق وأولوا الكرامة
فحاذر كلاما في مقاماتهم ولا تخض في أمور عاليات بريبة
وجانب عماء لا تجرب عماءه لكي لا تجازى بالعمى في البصيرة
فقد تاه قوم أن تحروا أموره وضلوا ضلالا في طلاب العماية
فلولا رسول الله أعني محمدا لما كان للأكوان معنى وهدت
عبير إذا ما الزهر فاح بروضه وسر إذا ما الحسن باح بهمسة
وباب لمن شاء الولوج مفتح إلى حضرة العلام من بعد سدرة
ترقى رسول الله من قبل آدم وفي آدم قد خص قبل بسجدة
وما الأنبيا إلا بشائر بعثه فما من كتاب لم يبشر ببعثة
هو الشمس لما أشرقت في سمائها تلاشت نجوم لم تزل من مجرة
محا ما تبقى من شرائع قبله وأثبت شرعا ليس يبلى بفترة
نماذج هانت تحت أنموذج السنا تفرد عنها في السناء وجنت
سراج مبين بث في ظلمة الدجى أضاء من الكونين وهو ببكة
وأفنى شرورا ماحقات بحقه وأبلى بلاء في ميادين جمة
وزاد تصاريف الولاية قوة بما اعتدلت في كل شيء وحقت
وما من نبي لم تشبه شوائب خصائص إنسان وشرع الإرادة
تشدد موسى مثلما كان وحيه ولان يسوع في سماح وطيبة

فمن طبع موسى طبع دينه ثم من طبيعة عيسى ما تطبع بالتي

ولكن رسول الله جرد ذاته بما أرسل الأملاك يوما وشقت

أليس قرين المصطفى صار مسلما وكل قرين غيره في تعنت؟

وقد خص عنهم بالوسيلة عنده ويشفع يوم العرض وترا بشفعة

وإن قلت: ما بال العزيز جماله فقد قطعت منه الأيادي وقدت؟

أقول جمال يسلب الغانيات لا جلال تجلى في رجال ونسوة

حبيبي رسول الله هل لي شفاعة إذا ما تلاقى الجمع في يوم فرقة؟

فإني وإن فرطت مازلت راجيا وزادي اشتياق وانتساب لعترة

أتنسى محبا قد جفته عشيرة وخانته أزمان وهان بعشرة؟

تأجج روع راعه منك رائع تجلى بحلمي فاستفقت بنشوة

وهاجت شجون خلتها في بواطني وأسقمني وجد وجدت بمهجتي

فنفسي فداء للذي كان معتقا وروحي هواء إن تهاوت هويتي

ففي مجمع البحرين جمع ترددت عليه شؤون الخلق ثم استقرت

يقابل بين الشيء ثم نقيضه ويقضي بعدل في أمور بحنكة

ومن لا يرى بدر التمام فحبه لما في السما من سابحات تبدت

فكن راحما تنظر رحيما بأمة وكن صابرا يظهر عليك بطلعة

ولا تتحنث دون شوق وتدعي ولا تتمثل كالدعي وتخبت

وداعين أملاكا يريدون عونهم وأسماء سموها بجهر وخفية

تعازيم تتلى والدخان سحابة طلاسم خطت في رقاهم بدقة

فلا تستعن بالخلق مهما يكن ولا تسطر سوى هدي النبي برقية

يظنون حقا باطلا من جهالة عفا الله عنهم ما أتوه بنية

دعوت قريبا لا يرد دعائيا فما لي وفان لا يبالي بدعوتي؟

حديث ابن عباس كفاني سؤالهم إذا ما سألت اسأل رواه بسنة

فلا تدع غير الله والكل حادث ولا تسألن الناس مقدار بلغة
ولا تبك عن ماض وترجو قوادما فما ثم إلا حاضر إن تفوت
فإن قلت دهري من ثلاث دحرته وفي حسرة تحيى ويأس ولهفة
ولا تنتظر موتا وقد مت آنفا ولا ترتقب من بعثة قد تقضت
فلا وقت إلا واحد في ثلاثة ولا حكم إلا حكمه في قضيتي
فقد فت في الألواح من قبل موعد ولحت بآجال وغبت بقدرة
وما موضع في الكون إلا أقامه بوهم بديل عن بديل وهيأة
عرفت بأني خالد في منامة خلت من منون كي أموت برقدة
فما هذياني ما هذيت بكبوتي .بمفن كلاما قلته عند نبوتي
يجوز علي الدهر من عهد آدم وأبعث حيا في الحساب بغفوتي
سجل طوى عنا كتابا إذا انتهى من البسط قدرا من سطور رديئة
تبدل أرض غير أرض بأرضنا ويحشر قوم في حصون منيعة
ففيما بقائي في محيط عبرته وفيما صدوري عن زماني وحقبتي؟
فإني رأيت الكون دون تلبس صغيرا تبدى في ظنوني وفكرتي
مللت طوافا في مواضع خلتني أراها كثيرا في ربوعي بقريتي
ولست الذي يبغي افتخارا وعزة .بما جبت مما قد ترامى بسفرتي
وما خلت نفسي في الورى غير طارئ أسليهم ما أمعنوا في شريعة
وأغرب في قولي إذا ما تغربوا غرابيب سودا ناعقات بخربة
وما جئتهم بالوحي حتى ألومهم ولكن وحيي في صحائف غربتي
أضيء لهم صبحا تناءت شموسه وأحرق أضغاثا تلاشت بوهجتي
فهم لي شهود ما علي شواهد فإن يشهدوا لي لم يحيطوا بجنحتي
ومن سائرات بالبشارة عنده تروح وتغدو في حوائج سرت
تزين أجواء الهدى ما تنزلت تبشر أحبابا رضوا بالبشارة

حمائم حامت في شجوني وأجذبت كوامن مني هاجها ما تغنت
تحب عباد الله حب يمامة وتكبر من شاني وتحفظ حرمتي
وتشهد أحبابا شكوا في تودد وتخبر عنهم من إذا ود ودت
وتسأل غفرانا لقوم تدرجوا وتشفق من قوم تمادوا بقسوة
وهذي السما مفروشة من ملائك سبيحهم كالنحل طن وأطت
وليس بمحص عدهم غير واحد وما منهم إلا مطيع بخشية
يحفون بالعرش الذي زان نوره بياضهم حسنا فتاهوا بزينة
لعمري فراشات تناهى جمالها تطير بأحلامي فتزداد حيرتي
وأسراب ورق في سماء تتابعت فوارت أديما بالجمال وغطت
وجوههم طهر تبدو كصبية وأنظارهم إن ينظروا مثل صبية
هم البرءاء البيض منا سريرة هم الحنفاء الصيد أولوا المكانة
فمن أبصروهم كان ذاك بشارة تترلت الأملاك بالإذن هلت
نظرت إليهم نظرة مت بعدها ولما حييت ازداد شوقي لميتتي
صفوف تناهت في اتساق مهابة فلله ما خطب الملائك صفت؟
ترفع عرش في خوالج إمرة ترامت إلى الكونين من كل وجهة
فمنه أساس الحكم فيما تصرفت سلاطين عادت من هداها ببيعة
يخالجني منه قوائمه إذا تنازلت عن حكمي وهمت بخلعتي
أقوم إذا قامت أغالب غيرتي وأقعد عن حقي قعود المثبت
ولي صولجان إن غشتني إمارة أهش به إن ما تحامت حميتي
ولي هيكل في رائعات تروعت بروعي وكرسي يروع رعيتي
ملوك تولت حكمها في قضائه فما من ملوك والمليك بدولة
فإن شئت تصريفا فدونك صارفا عن الله فاصرف عنك تحظ بحظوة
ولا تنصرف عن خدمة الناس مسرفا ولا تتصرف فيه دون مشورة

ودع عنك كرسيا لقوم تنافست على ما أعد الله من فيض نعمة
وخذ غرفة من سلسبيل مهيئ ولا تغترف من بحر ملح بغرفة
فحسبي بأني بالغ أرض موطني وفي غربتي حسبي ابتهاجي بعودتي
فإن شئت أن تبقى غريبا بمهمه فما من بقاء هاهنا في بقية
أنا راحل قبل الرحيل وآيب إلى أن يجود الرب يوما بأوبة
فمالي وقد زاد الهوى في يراعتي أدافع أفكارا علي ألحت؟
فيا لائمي فيما هويت صبابة أترجو سلوي عن حياتي ومنيتي؟
ألم تدر أن العشق دين بطانتي أتدعو لكفري أم تحاول ردتي؟
حبيب متى ما ضاع حوتي وجدته وإن لم يضع حوتي برمت برحلتي
فإن ألفه أبصرت حسنا مكللا بما جل من سر سناؤه مبهتي
فأنسى بأني جئت أرجو حديثه وأبقى شريدا لا أبوح بكلمة
فقد غبت عن نفسي ولم أدر من أنا ولم أستفق إلا بغدوة همتي
تقربنا مي إذا ما تقاربت وإن ما قربنا أبعدت بعد قربة
فما القرب يدنيني ولا البعد دافع ولا الوصل يكفيني ولا الهجر مشطتي
بسبع أراض والسماوات سبعة أظل ظعينا لا أغادر حجرتي
فأنت بأرض في وجودك أول وأنت بأرض في اصطناع وكلفة
ولا تنس أرض الجن فيها معاشهم وللأوليا أرض إذا ما ترقت
وأرض بدت بيضاء كانت لمحشر وبرزخ أموات بأرض قريبة
وأرض خليل الله هبها لصبية رعاهم خليل الله فيها برأفة
أراض طواها فهي واحدة ولا يحيط بها إلا حكيم بقبضة
وما من سماء دون أرض ولا فضا فلولا نواة لم تذق طعم ثمرة
ولولا أناس هاهنا في تخومها تداعت سماوات وأرض ودكت
فأنت أساس الصرح فافهم رعاية حباك بها رب كريم وأخبت

يزول إذا زال الأساس وينتفي ويبقى بقاء ما تبقى لفترة
إله وعبد لا إله بغيره ولا سيد إذ لا من مسود بأمة
فلا يعرف الباري بغير بريئة ولا من غفور دون آت بزلة
وقالوا: رسول الله لم ير ربه وحال حجاب بينه دون رؤية
حجابه نور أن رآه محمد وأنواره تعمي بصائر حدت
فلا تدرك الأبصار غير محاسن سرت منه فيما كان حسنا وشذت
فإن قلت موسى لم ير الله جهرة ولكن تجلى للجبال فدكت
أقول: كليم الله هاله رؤية ولم يحتمل نورا تجلى بصعقة
ولكن رسول الله كان مؤهلا لرؤيته أن خص عنهم بختمة
ودعني وإبليس الذي في جهالة بما خصه الباري أمور الغواية
فلولا غرور كاد كيدا لآدم لما كان تكليف وبعض البلية
ولو يعرف الشيطان دور فسوقه لشاء جزاء عنه يوم القيامة
ولم يخلق الباري أبانا وزوجه لجنة خلد بل لأرض الخلافة
فقوله: إني قد جعلت خليفة بأرض. قبيل الخلق كان بمدة
صبيان والشيطان بالله حالف ولم يعرفا مكرا وخلدا بكرمة
فأغواهما إبليس بالصدق ماكرا وقد أقسم الشيطان صدقا بخدعة
وما ألحد الشيطان يوما ولا ادعى ألوهية أو سب ربا بنبسة
ولا زال يرجو من كريم تفضلا وما أيأس الشيطان كبر الخطيئة
وما ذنبه غير الغرور وسجدة أباها لغير الله من دون صفوة
وقاس محل النار بالطين خاطئا وفاتته روح شرفت بؤس طينة
وقال أنا خير وأشرف عنصرا وما آدم إلا عجين بتربة.
ولكن صنيع الطين من شأن عارف وخلق بأيدي الله كان وحفنة
ولو كان ذا عقل لما كان عاصيا لرب عظيم ثم باء بلعنة

ولم يعص إلا عارفا أن ربه حليم بمن يعصي وياتي بتوبة
أليس له في الآي تبرئة إذا أتى يوم جمع من أناس بخطبة؟
يخاف من المولى ويخشى عذابه ويفزع من أملاكه رغم جرأة
وتلك خصال قد خلت من مكلف مشى في عناد وادعاء ألوهة
فلله كيد عاد بالخلد مكره على أمة سارت بأمر ووفت
فلو ما عصى الشيطان ربا وما غوى لما كان وعد بالخلود بسورة
فما كيده إلا ضعيف وواهن ولكن نفسي أزبدت وتقوت
حليفة إبليس غوايتها الهوى تريد شقائي إن برمت بتروة
فأوكل أمور النفس لله يا فتى ولا تحتقر نفسا على الفسق شبت
أمولاي رفقا إنني في هواكم تفردت عن جنسي وأنكرت نسبتي
فمالي وحبا قد عهدت جلاله محا من وجودي ما تبقى بخفقة؟
فهل بعد حب البدر أحبب غيره وأرنو لنجم خافت في تشتت؟
وقد كنت أرضى في الجمال بنظرة إلى فانيات من وجوه حسيرة
فلما عرفت الحسن أشرق وجهكم على ليلتي فامتاز عن كل سحنة
وغبت جلالا عن جميلات حينا وراودنني من بعد هجر وبغضة
فكيف طلعتم من مغارب أظلمت وكيف غربتم في الضياء بقبلتي؟
فجوبوا صدور العشق لست بعاشق ولا تأبهوا مهما صرخت لشهقتي
لعمري تفانينا بما في صدورنا تراتيل أشواق وعزف بزفرة
فما النار نار ما صليت بحرها وما البرد برد ما غطست بدجلة
فإن نصل حرا كان حر رواحهم وإن نشك قرا من رواحل راحت
بما نابني لما عزمت على السرى وأسرى بجأشي في ظلام سريرتي
وما صدع الأقدار لما تحكموا بعمري وأفنوا من شبابي وشيبتي
تكونت والأكوان في بقدرة أنا عالم بين اتساع وضيقة

وكلمني بالطور صوت بخاطري فأي كلام قد خلا من عبارة؟
معان بليغات وأفكار عالم تلقيتها سرا بأغوار فطرتي
وأفرح قلبي بالرضا بعد غمه أنا فرحة الله الذي منه فرحتي
ولم أستطع إخبار قومي بكنهها فلا لفظ يعني ما سمعت بلهجتي
وصرت بلا معنى بجملة قارئ ضميرا بلا رفع ونصب وكسرة
فإن تعربوني كنت بالرفع باديا وبالنصب أخفى وانتهائي بجرة
وما لي بإعراب محل بمرة وإن شئت إعرابا فواو المعية
أتخفى جمالا عن عيون أحبة إذا استشرفوا ما قد خلقت بشرفة؟
وتبدي لهم حسنا سبى من عقولهم وتقريهم من كل لطف ومنة؟
فلا عيش لي مهما قبلت ضيافة بدار ولم تحضر قراي وسفرتي
فإن غبت عن قوم أتوك بجوعهم وأطعمتهم من مكرمات بصحفة
فإني أتيت الدار أبغي وصالكم متى ما طرقت الباب تعرف طرقتي
يثير اشتياقي ما برأت بقوة وأبدعت من حسن جميل ببدعة
فأبصرت في ذاك القدير بلمسة سرت في بديع الصنع من دون لمسة
ففيم الخفا إن ما ظهرت بقوة وفيم النوى إن ما قربت بشدة؟
فحسبي بأني عبد رب وحسبه من الحسب عبد في خضوع وذلة
فربي مليك إن سألتم وسيد إذا ما تفاخرتم بملك وسلطة
وربي جميل قد تجلى بهاؤه إذا ما تكاثرتم بقبح وخسة
وربي قوي لا قوي يرومه إذا ما تباهيتم بجيش وعدة
وربي حليم بالورى ما تجبروا إذا ما تود دتم لطاغ بدمعة
فمالي ولي غير ربي وسيدي إذا حان دوري واستطبت منيتي
سألقى حبيبا لا يخيب عبده ويلقى حبيبا لا يكافى بخيبة

فهرس مواضيع كتاب: المغاني النفيسة في شرح معاني الكبيسة

صدر للمؤلف:

ديوان أطلال

سوانح الخواطر في كوامن السرائر

صد المجانيق عن نسف قصة الغرانيق

أبواب الشيطان

الاستبشار بشرح ما خفي في زنار من لطائف المعاني والأفكار ورقائق الحكم والأسرار

المسمى: اللطف الخفي في شرح رباعيات الجعفي

شرح تائية الجعفي المسمى: المغاني النفيسة في شرح مغاني الكبيسة

الأمازيغ شعبنا المفترى عليه.. في انتظار الطبع

قصيدة البطحاء في مدح خير البرية جمعاء

لأبي الفتح الجعفي المغربي الشاذلي عفا الله تعالى عنه

شرع الهوى عند النوى زجرا ... صبا هوى بالزجر ما ازدجرا
لما اكتوى بالشوق في سهر ... حر الجوى في سهده استعرا
ما زال بالبطحاء محتشما ... لما إباه نهاه وانتهرا
أشجته أسراب القطا عبرت ... ديار من يهوى وما عبرا
أضحى يسائلها بلا حرج ... عن ساكن في بكة الخبرا
يا هل ترى نظرت بغدوتها ... عند الضحى في شعبها قمرا؟
لكنها عجبت وما عهدت ... قمرا مشى في الأرض أو خطرا
زادته لما أنكرت كمدا ... والصب يشجيه الذي نكرا
يا عاذلي إن ما عذرت فما ... من عاذل في الحب قد عذرا
لولا الحيا لم أبق مرتقبا ... أقدمت لكن الحيا دبرا
واليته لكنني بشر ... هيهات أقمار تلي بشرا
دعني وبطحاء قد احتملت ... شكواي لم تبرم بها ضجرا
أشكو نوى الأحباب من أسفي ... سرب القطا في الجو منتشرا
لو يعلم الأحباب وقفتنا ... هرعوا إلينا بالبكا زمرا
نرعى الدراري في السماء ولا ... راع سوى في هجعة وكرى
حتى إذا ما آنست رحلت ... والليل يوحش وحدة الشعرا
والصبح لاح بنوره قبسا ... يذكي من الأشجان ما فترا
إني سئمت طلاب من هجروا ... أهفو إلى صب وما شعرا
مالي أداري ما يساورني ... والدمع يفضحني متى انهمرا
يا أهل مكة فيكم حرم ... لا تحرموني منة وقرى
عهدي بكم كرماء من أزل ... تؤوون وفدا حج واعتمرا
هلا رحمتم هاهنا كلفا ... أزرت به الأيام واحتقرا؟
إني غريب في محلتكم ... لكن لي نسبا إلى مضرا

في مولد الهادي انمحى زلل والحق بعد صماته هدرا
إيوان كسرى قد هوى خجلا والنار في الفرس انطفت شررا
ما خطب ساوة بعدما ظمئت أضحت كآل يخدع البصرا؟
والكون أشرق بعد دلجته والشرك في أغواره غبرا
إن يسترق جن بمقعده سمعا رمته الشهب واندحرا
سل في بني سعد وقد سعدوا عن قادم من مكة حضرا
لو يعلمون بأنه أربي أرقوا بليل واشتكوا سهرا
بشرى بني سعد بما شهدوا خصب غدا بالينع مزدهرا
وروت بماء بعدما جدبت والمزن حين أظلها همرا
وخلت ضروع عجافها لبنا من بعد ما شحت جرى دررا
انظر إلى الأملاك حين أتت شقت عن الصدر الذي صدرا
فارتاع من وجل بشقهم طفلا صغيرا ليس مختبرا
الصادق اسأل عنه كافرة يصدقك قولا كل من كفرا
حتى دعوه أمينهم زمنا ما خان عهدهم ولا خفرا
لم يعبد الأوثان في صغر والسحت لم يقربه أو سكرا
لما اختلى في الغار معتكفا يدعو إلها ضارعا بحرا
يفضي بما يلقى ويسأله سؤل الملح بسؤله جأرا
إذ بالملاك أتى على عجل ضم الأمين محمدا فقرا
حتى إذا جبريل راح مضى فزعا من الناموس وادثرا
يا أيها المزمل المسجى أنذر قريشا واقرإ السورا
ما أشركوا بالله ربهم إلا أسامي سميت هدرا
كفروا بمولاهم وما قدروا قدر الذي ذرأ السما وبرا
من دونه يدعون ما صنعوا بئس الذي يدعونه حجرا
حتى إذا ما كذبوه ولم يتبعه غير أراذل الفقرا
قصد الألى في طائف سكنوا يبغي هدايتهم كما أمرا
لكنهم رجموه صبيتهم وكأنه خزي فما انتقرا
ودعا لهم بالصفح علهم أصلابهم تصغي لما نذرا

في ليلة الإسراء معجزة ... يلقى بها أهل التقى عبرا
خص النبيء بها وأمته ... لم يحتملها لب من سخرا
جاز البراق به بلا نصب ... سبعا كبرق عندما طفرا
لما ارتقى فضلا بمنزلة ... كل الورى عن دركها قصرا
سار بليل هاله سر ... أسرى بروحه في العلا سفرا
أم أن أقواما بندوهم ... عزموا على تقتيله أشرا
وقفوا ببابه في الغداة وقد ... شهروا من الأغماد ما شهرا
مر النبيء حذاءهم أمنا ... لم يبصروه كأنهم بصرا
فغدوا وقد عميت بصائرهم ... وكأنهم خشب بدت بعرا
خرجا أبو بكر برفقته ... والكفر يتبع منهم الأثرا
لله من صحب الحبيب وما ... خاف الردى أو حاذر الخطرا
صحبان في ثور قد اختبآ ... والمشركون ببابه زبرا
فحماه بيت العنكبوت وما ... نسجت سوى في الحال ما سترا
فإذا أبو جهل يعود بمن ... أغراهم غضبان منكسرا
إن ما قضى الرحمن من جلل ... من غيره يمضيه مقتدرا؟
فاسأل سراقة وهو ملتحق ... ينبيك عن فرس به عثرا
غاصت قوائمه بإثرهما ... في الرمل فارتاع الذي جسرا
واستشرف الأنصار طلعته ... حتى بدا في الأفق وانسفرا
وعلت أهازيج لمطلعه ... فرحا بآت كان منتظرا
في طيبة الأحباب قد جمعوا ... والحق فاح أريجه عطرا
آخى رسول الله بينهم ... أنصارها إخوان من هجرا
اقبل رسول الله من نظمي ... هذا الثناء بثثته الفكرا
لست الذي يبغي به دررا ... حسبي بأني أنظم الدررا
أو أبتغي من شهرة علنا ... لكن من يمدحكم اشتهرا
هذا المشيب غزا بشعلته ... ما اسود من رأسي وما نظرا
والعمر أذبل ورده هرم ... والسقم شل مفاصلي ضررا
لم أحتمل زادا يبلغني ... مولاي يوم الحشر مذخرا

مالي سوى حب برى جسدي لمحمد في القلب قد وقرا
بعدا لركبان بعدتهم نزلوا ببدر عدهم كثرا
خرجوا بزينتهم وبهرجهم يبغون حرب محمد بطرا
والمسلمون بقلة ظهروا وكأنهم جيش قد انحشرا
ورمى رسول الله كف حصى في أعين منه اشتكت عورا
وحمى الوطيس غباره سحب غشيت سيوفا برقها سفرا
حد النصال غدا بهم حكما دأب الحسام إذا قضى بترا
هامات قوم خلتها ثمرا عصفت به الأرياح فانهصرا
عم الرسول يجوب جمعهم مثل الحمام إذا هوى قبرا
يسجي من الفرسان معتليا مستلئما في أدرع زبرا
يجري دم الأحرار ممتطيا جلمود صخر حط منحدرا
طاشت بصيحته عقولهم وكأنه أسد إذا زأرا
واذكر من الفرسان من شهدوا أحياء أو شهداء معتبرا
واذكر عليا إنه بطل واذكر إذا رمت الوغى عمرا
فإذا العداة رؤوسهم صرعى منهم أبو جهل وقد شخرا
وفلولهم ظبي مفزعة لاذت بشعب سربها انشطرا
فرح الهداة بنصر ربهم وفدت قريش أسر من أسرا
من ينصر المولى إذا برزوا أمسى بعون الله منتصرا
واذكر إذ الأحزاب قد حشروا ممن بدا جمع ومن حضرا
لما تحلق جيشهم جدلا حول الهدى لم يدر ما قدرا
ريح تزمجر في خيامهم لما توالت ولوا الدبرا
حستهم حس الجراد إذا هم الجنان ذرته واندثرا
إني مدحت محمدا شرفا لم أعتدل في المدح مختصرا
أطريه في خلق وفي خلق وأخل مهما كنت مبتكرا
عذري بأني مثل مرآة من غير قصد تعكس الصورا
أو أنني طير شذا فرحا لما بغصن أبصر النورا
والشعر لم أحسبه يرفعه ما يرفع الأقمار من شعرا

لما جرأت بذاك من شغفي ... أفرطت فيه ولست معتذرا
يا صاحبي تب قبل آتية ... توريك قبرا ضمن من قبرا
إن ما تتوب وأنت في سعة ... قد لا تتوب مؤملا عمرا
إن الحيا يا صاحبي ردح ... من لم يتب ما تاب محتضرا
ما خلتني إلا بمغترب ... أحيى به في غربتي كدرا
والنفس لا تقبل بها حكما ... من يمتثل أحكامها فجرا
واغضض من الأبصار عن فتن ... إن تفتتن لا تظلم البصرا
واقنع من الدنيا بما بسطت ... وابسط أكف الجود مفتقرا
والفرض لا تهمل ولا تسأل ... عدنا بفرضك أو تخف سقرا
هل من مطيع ربه كرما ... لم يندرج في زمرة الأجرا؟
لولا جنان لم نطع طمعا ... أو خوف نار نتقي حذرا
إني أطعت الله معترفا ... ما خلتني بالله متجرا
اعبد بهيا دونما وطر ... يكفيك حسن بهائه وطرا
رؤيا النبيء بشارة عبرت ... فتح بتاويل الذي عبرا
نصر جحافله متى فصلت ... عصفت بأنسام الهدى نشرا
طوفوا ببيت واعمروا حرما ... ما عاد للكفار معتمرا
أكرم بمن نزلت بمبعثه ... صحف تبشر بالذي انتظرا
صلى برسل الله كلهم ... في المسجد الأقصى غداة سرى
هل من شفيع غيره بهم ... يوم الحساب إذا الورى حسرا؟
أمم أتت من رسلها يئست ... حسبته من أوزارها وزرا
يرجون منه شفاعة لهم ... إذ لا شفيع سواه معتبرا
اشفع تشفع في الذين جنوا ... وعفا بذاك عن الذي وزرا
يا حسن من دان الجمال له ... حتى غدا بالحسن مؤتمرا
أفضى البهاء له بفتنته ... إن ما تبدى للورى بهرا
الربعة المقدام في جلد ... ما بان طولا أو دنا قصرا
الأزهر الأنوار في بلج ... عذب المحيى مبلجا نضرا
أعني أزج الحاجبين بما ... تحت الجبين منونا سحرا

الأهدب الأشفار قد دعجت   عيناه حتى حبرت حورا
ليس المهلطم في صحابه بل   أطرافه عبلت وما بجرا
في شعره رجل ولحيته   كثت ومسربة هفت شعرا
والأنف أقنى ما به عوج   وفم كخاتم عندم فغرا
ضخم العظام بمنكبيه ترى   عظما إذا ما قام وابتدرا
أعضاؤه سالت وقد رحبت   كفاه بسطا بالندى قطرا
افتر عن برد بضحكته   حبات مزن ماؤها طهرا
في وجهه شمس مذهبة   تلقي بأنوار الهدى شذرا
ألفاظه در بمنتظم   من يحتمله بروعه انبهرا
يمشي الهوينى خطوه عذب   كيمامة سنحت سماء ذرى
جادت يمينه كالسحاب إذا   هم اليباب وأنزل المطرا
شهم إذا المستضعفون أتوا   يشكون ظلما مسهم نصرا
رحب الخوان بمنة وقرى   إلف ومألوف بما اصطبر
بر رحيم زانه أدب   يدني الصغار ويرفع الكبرا
ختم الرسالات التي سلفت   ختم الكمال وأحبط الزبرا
لم يدركوا الهادي بمعجزة   والمعجزات أمارة السفرا
إن كان موسى فضله كلم   في الطور فهو دنا وما اقتصرا
حلم المسيح بحلمه نزر   سمح يعز عليه ما شجرا
داود بالمزمار لم يدرك   جرس النبي صداه ما زمرا
إن ما العزيز نساؤه قطعت   منه الأيادي عندما ظهرا
وجه النبيء بهاه منفرد   لم يدع للفحشاء من نظرا
حفظ الجلال جماله كرما   في وجهه ذكرى من ادكرا
سحت بدعوته السما مطرا   في بلدة قد أمحلت وقرى
وجرى زلال من أصابعه   وسقى خميسا بعدما انفجرا
وانشق في عليائه قمر   لما دعا مولاه وانفطرا
والتام من شجر تفرقه   وأظل شهما خاطب الشجرا
واسأل أبا هر بمسغبة   ينبيك عن لبن بما وفرا

شرب العفاة به جميعهم ورووا ولم ينقص ولا نزرا
والجذع حن أنينه شجن وكأنه طير وقد عقرا
ورقى ابن عمه عندما رمدت عيناه بالأقذاء واعتذرا
لله يا سرب القطا أبلغ مني سلام متيم شكرا
نور الوجود وسر نشأته والآل والأزواج والوزرا
واجعل مديحي رب مغفرة مما أتيت من الذي حظرا
وأنر به قبري بوحشته وارأف بعبدك رب مقتبرا

تم الكتاب ولله الحمد والمنة لا إله غيره